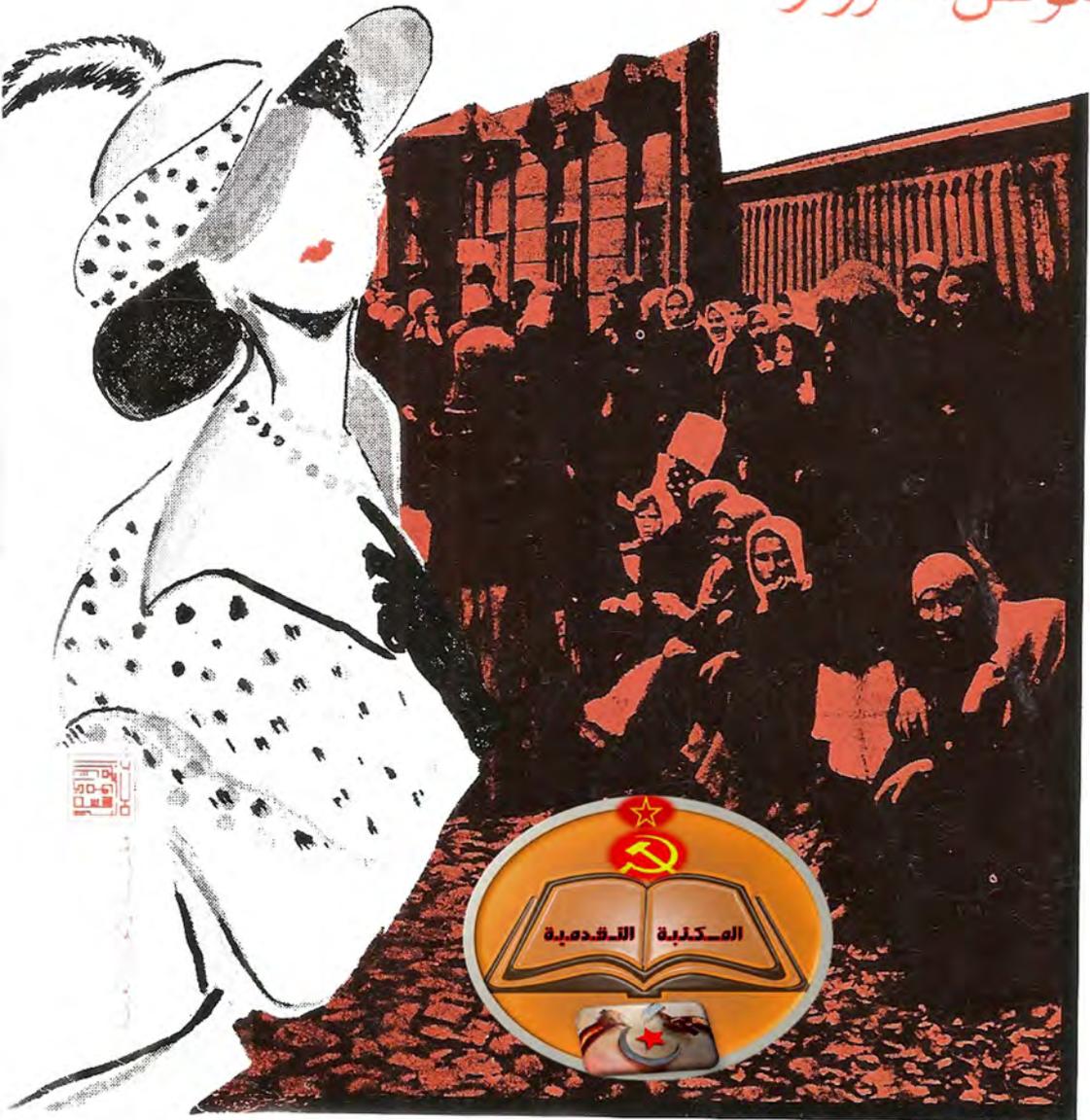


ألكسندرا كولنتاي

٢٠  
ذائق  
الفتوب

# حُبَّ عَامِلَةِ الْبَحْلِ

ترجمة:  
مؤنس الرزاز



حُبِّ عَامِلَةِ النَّخْلِ



الكَسندَرَا كَوْنْتَاي

# حُبَّ عَامِلَةِ الْخَلِّ

تَرْجَمَة: مَوْس الرَّرَاز

٢٠

مؤسَّسة الأبحاث العربيَّة



\* الكسندرا كولنتاي : حب عاملة النحل .

\* الطبعة العربية الأولى ، ١٩٨٥ .

\* جميع الحقوق محفوظة .

\* الناشر : مؤسسة الأبحاث العربية ش . م . م .

ص . ب ٥٠٥٧ - ١٣ (شوران) بيروت - لبنان

هاتف ٨١٠٠٥٥ ، تلکس ٢٠٦٣٩ دلتا - لبنان

\* تصميم الغلاف : نجاح طاهر .

\* يضم هذا الكتاب الترجمة الكاملة لرواية :

Alexandra Kollontai: *Love of Worker Bees*

Cassandra Editions 1978 Chicago

## مقدمة

الأهمية الأساسية لهذا الكتاب تعود إلى مؤلفته. فالكسندرا كولنتاي، المناضلة، والتي كانت من أبرز الذين طرحوا موضوع تحرير المرأة داخل الثورة البولشفية، تستعير في هذا الكتاب الشكل الروائي. لتعبر من خلاله عن مشكلات وصعوبات تحرير المرأة، وعن التناقضات الجديدة التي بدأت تبرز بعد انتصار الثورة الاشتراكية.

والكسندرا كولنتاي، ابنة الجنرال السابق في الجيش القيصري، التي تركت زوجها عام ١٨٩٨ لتعيش تناقضات شبيهة بتناقضات الرواية التي كتبت، هي في الأساس كاتبة اجتماعية حول تحرير المرأة، إذ أصدرت مجموعة من الكتب: «الشيوعية والمرأة»، «الأخلاق الجديدة والطبقة العاملة» «الأسس الاقتصادية لمسألة المرأة»، وهي واحدة من المجموعة القليلة التي رافقت لينين في قطار العودة عبر ألمانيا إلى روسيا، وشغلت منصب مفوضة الشعب لشؤون الخدمات العامة في أول حكومة ثورية يرأسها لينين.

المسائل الأساسية التي حاولت كولنتاي إثارتها في كتاباتها تتلخص في ثلاثة محاور.

- ربط النضال النسائي بالنضال الطبقي، ورفض الاتجاه النسوي البرجوازي الذي يريد أن يفصل قضية تحرير المرأة عن النضال الاجتماعي والطبقي.

- التركيز على البيوت الجماعية، والدعوة إلى رفض العائلة البرجوازية. وقد أثمر هذا التركيز انتشاراً واسعاً لفكر البيوت الجماعية في الفترة الأولى لانتصار الثورة.

- الدعوة إلى أخلاق جديدة، وربط النضال البروليتاري السياسي والايديولوجي بالدعوة إلى أخلاق تتأسس حول مبدأ الحرية والمساواة.

في روايتها هذه، وفي بعض القصص الأخرى التي نُشرت نلمس التناقضات الأولى التي صاحبت انتصار الثورة الاشتراكية، خاصة بعد تطبيق السياسة الاقتصادية الجديدة، ومع محاولة الدولة الاشتراكية تجاوز المشكلات التي خلفتها الحرب الأهلية.

والتناقضات لا تبرز هنا عادية، بل هي تشير إلى المسألة المركزية التي حاولت كولنتاي إثباتها، والنضال من أجلها، قبل أن ينتهي بها المطاف في المنفى كعضوة في الوفد التجاري السوفياتي في أوصلو، هي العلاقة بين الأخلاق الثورية الجديدة وبين العاطفة الإنسانية. فبطلة القصة فاسيليسا، على الرغم من «نموذجيتها»، ووضعيتها «كبطل إيجابي» بالمعنى الواقعي الاشتراكي، لا تنتقل إلى الأخلاق الجديدة إلا عبر توترات شخصية حادة، ولا تكتشف أهمية العلاقة الحرة بين الرجل والمرأة، إلا لأنها تربط هذه العلاقة بأفق سياسي محدد.

الرواية بهذا المعنى هي وثيقة سياسية - أدبية. إنها تنقل تفاصيل المخاض الذي عاشته الثورة الاشتراكية، والتناقضات المختلفة التي عصفت بها، والحلم الثوري بتأسيس مجتمع جديد وقيم جديدة، لا تمس الحياة العامة فقط بل وتنتقل إلى الحياة الشخصية.

عندما نشرت كولنتاي روايتها هذه عام ١٩٢٣ كجزء من سلسلة «الثورة في المشاعر والأخلاق»، اعتبرت روايتها بأنها تركز على القضايا الجنسية، ثم اعتبرت بعد ذلك كنموذج للانحطاط البرجوازي الصغير. مما

كان يعني أن هذه الرواية لم تصل إلى أيدي القراء الذين أرادت نقل تجربتهم والتعبير عنها.

عندما نقرأ هذه الوثيقة اليوم، فإن ما يستوقفنا فيها هو الجرأة على طرح مسائل طليعية ما تزال إلى اليوم خاضعة لنقاش متصل من جهة، وقدرتها على أن تقدم وصفاً حياً، من وجهة نظر امرأة مناضلة، للتحويلات التي شهدتها الثورة الاشتراكية.

بهذا المعنى، فإن القيمة الأدبية للرواية هي في ما تدل عليها، في الأسئلة التي تطرحها، وفي المعاناة والتجارب التي تخوضها بطلتها، وهي تجارب شبيهة إلى حد ما بتجارب كولتاي نفسها، من أجل تأسيس نظام جديد من القيم، ما يزال إلى اليوم بحاجة إلى تأسيس.



# فاسيليسا ماليغينا

- ١ -

فاسيليسا ماليغينا فتاة في الثامنة والعشرين من العمر وتعمل في معمل حياكة. إنها فتاة مدنية حقاً. فهي نحيلة وتعاني من سوء التغذية. شعرها جعدي وقصير إذ إنها قصته حين أصيبت بمرض التيفويد (التيفوس). وإذا لمحها المرء عن بعد فقد يخالها صبياً بصدرها الضامر وقميصها الروسي.

صحيح أنها لم تكن جميلة، عيناها البنيتان فريدتان ورائعتان. ومجرد التطلع إلى هاتين العينين كان يبعث في الناظر شعوراً من الفرح.

كانت فاسيليسا فتاة بلشفية، انتسبت إلى البلاشفة حين اندلعت الحرب. كانت تبغض الحرب، ولهذا كانت تتجادل مع بقية العاملات اللواتي كن يعملن بحماسة لإرسال الثياب إلى الجبهة ويشتغلن ساعات إضافية في سبيل انتصار روسيا.

كانت تقول إن الحرب مأساة دموية - ونحن في غنى عنها. إنها عبء على كاهل الشعب. وما ذنب هؤلاء الشباب الذين يسعون إلى الجبهة كي يُقتلوا؟ الحرب مأساة وكارثة.

وكانت كلما مرت بمجموعة من الجنود في الشارع تشيح بوجهها معرضة. وتفكر: كيف يسعهم أن يمشوا هذه المشية العسكرية المباهية ويغنوا ويبتهجوا وهم في طريقهم إلى مصرعهم وكأنهم في عطلة! ولماذا لا يرفضون الذهاب إلى الحرب. لماذا لا يقفون ويقولون نحن لن نذهب إلى الجبهة، لا

نرغب في الموت ولا في قتل الآخرين . لو فعلوا ذلك لما كان ثمة حرب .

كانت فاسيليسا مثقفة ، فلقد علمها والدها المنضد (صنّاف حروف) القراءة باكراً . فراحت تطالع وأحبت أعمال تولستوي وبالتحديد قصصه الشعبية .

وبسبب ميولها السلمية وموقفها من الحرب كادت أن تُطرد من المعمل . . . . . ست العاملة الوحيدة التي تقف ضد الحرب - لولا أن المعمل كان بحاجة لكل يد عاملة . وعندما ذاع صيت موقفها وانتشر ، لقبها العمال بـ «التولستووية» نسبة إلى تولستوي . وجعلت كل العاملات في المعمل يعرضن عنها بسبب موقفها من الحرب والذي كن يعتبرنه موقفاً خيانياً استسلامياً . وكنّ يصفنها يائسين بأنها «قضية خاسرة» . . لا جدوى منها .

ولم يمض وقت طويل حتى بلغ موقفها من الحرب آذني منظم الحزب في المنطقة . فأرسل في طلبها . وسرعان ما اكتشف أنها واثقة من آرائها وأنه يمكن الاعتماد عليها ، فضلاً عن أنها جديرة بالعمل الحزبي . وهكذا اقتربت فاسيليسا تدريجياً أكثر فأكثر إلى البلاشفة . ولم يكن هذا التقرب من البلاشفة ابن ساعته . فقد ناقشت أعضاء اللجنة طويلاً في البداية ، فكانت تمطرهم بالأسئلة . وكانت تغادر الاجتماعات أحياناً وهي مفعمة بغضب عاصف . ولكن شيئاً فشيئاً أخذت تفهم مواقفهم بوضوح أكثر ، وفي النهاية بادرت فاقترحت عليهم أن تبدأ نشاطها الحزبي . هكذا أمست فاسيليسا بولشفية .

وسرعان ما أثبتت جدارتها في مجال النشاط بين الجماهير إذ كانت خطيبة مفوهة . فلم تتلعثم ولم تفتقر إلى الكلمات المناسبة أبداً ، وكانت تدير الجدل مع المناشفة والاشتراكيين الثوريين بمهارة وبراعة . وإذا كانت بقية النساء في المعمل خجولات وذوات ألسن معقودة فإن فاسيليسا كانت فصيحة وجريئة تتحدث بمنطق وشجاعة . وسرعان ما اكتسبت ثقة الرفاق في الحزب واحترامهم ، حتى أنهم قرروا أن تمثلهم في «الدوما» Town Duma

خلال عهد حكومة كيرنسكي الموقته . مما جعلعاملات يفتخرن بها ، ومنذ ذلك الوقت بات كل ما تقوله فاسيليسا بمثابة القانون أو الكلام المنزل عندهن . وتمكنت فاسيليسا من إقامة علاقات طيبة حتى مع النساء الأكثر محافظة . وحتى حين كانت تنهرهن وتصرخ في وجوههن كن يعتقدن أنها تدرك حقيقة الأمور أكثر منهن ، فهي تعمل في المعمل منذ كانت صبية صغيرة .

كانت فاسيليسا تشعر أنها إن عجزت عن تفهم حاجاتهن فإن أحداً لن يفهم هذه الحاجات . ولكن رفاقها لم يقتنعوا بجدوى النشاط بين هؤلاء النسوة . كانوا يقولون : « عليك الانصراف عنهن ، لدينا أمور أكثر أهمية ينبغي أن نركز عليها » .

طلما أثار هذا الموقف غضب فاسيليسا التي كانت تلح على تجاوب الحزب مع متطلباتها . وكثيراً ما تساءلت فاسيليسا لماذا تعتقدون أن قضايا المرأة أقل أهمية من أمور أخرى؟ لطلما عوملت النساء هكذا! لا أستغرب كونهن محافظات! كيف يمكنكم أن تأملوا القيام بثورة ناجحة دون أن تضعوا للنساء موقعاً في حساباتكم؟ دور النساء دور خطير وأساسي . إذا كسبنا النساء إلى جانبنا . . ربحنا نصف المعركة .

كانت تدرك جيداً ما الذي تريده ، وكانت تناضل بصلاية دفاعاً عن مواقفها . وما أن أقبل العام ١٩١٨ حتى باتت مناضلة بلشفية أصيلة . عبر سنوات الجزر سقط الكثيرون ويثسوا ، فانصرفوا عن النضال . أما هي فما كانت تكلّ أو تمّل من النشاط . فقد كانت تلقي الخطب وتجادل وتناظر وتنظم . على الرغم من أن نحافتها وشحوبها كانا يجعلان المرء يتساءل عن مصدر هذه الطاقة والحيوية التي لا تنضب . لكن عينيها الرائعتين كانتا تجذبان الناس بدفئهما ويقظتهما .

في أحد الأيام وصلتها رسالة . كانت تنتظرها بفارغ الصبر منذ أمد بعيد . رسالة بعثها زوجها الحبيب وصديقها الذي لم تره منذ أشهر طويلة

موحشة. والفراق صعب لكنها الحرب الأهلية والجبهة الصناعية التي قذف الحزب بكل قوته وأعضائه فيها.

كانت فاسيليسا تدرك تماماً أن الثورة ليست لعبة وأن على الجميع أن يضحوا في سبيلها. لهذا كانت تعيش كل هذه الفترة وحيدة بعيدة عن زوجها، إنها تضحي في سبيل الثورة. حين افترقا كل إلى جبهته طبت النساء خاطرهما وواسينها قائلات إن الأمور ستنتهي بطريقة مرضية. وقالوا «رب ضارة نافعة، فبعده عنك يضاعف من شوقه وحبه لك. وبعذك عنه يحول دونك والممل منه.

ربما كن على حق لكنها لا تبالي بذلك. فحديث المواثمة هذا لم يدفع عنها الوحشة والشوق المتواصل إليه.

في أية حال، كانت فاسيليسا تندفع في النشاط والعمل حتى إنها ما كانت تملك لحظة فراغ تكرسها لنفسها. فهي تنشط في سبيل الحزب بياض النهار وجزءاً من الليل. وتعمل بلا كلل في السوفيتات المحلية وكانت المهام تتراكم نحوها على التوالي. وهي تدرك أن عملها هذا له أهمية كبيرة وتشعر أنها تحقق بهذا النشاط ذاتها، فتستمد من العمل نشوة وممتعة. ولكن حين يرحل النهار وتعود إلى غرفتها - العلية كما يسمونها في الريف - كانت الوحشة تداهم قلبها كريح باردة. تجلس منهكة وترتشف الشاي، تتشوق لزوجها وتستغرقها أفكار قائمة: لا أحد يحتاج إليها، إنها بلا أصدقاء، بلا هدف محدد تناضل في سبيله. هل يهم أمرها الآخرين؟ لو كان أمرها يهمهم لشعرت بذلك.

في الفترة الأخيرة كانت تشعر بكآبة حادة نتيجة فشل مشروعها الذي أضفت عليه أهمية كبيرة - بيت جماعي - وها هم الجميع الآن يشتمون ويمينون بعضهم البعض. بدا لها وكأن أحداً لا يدرك أهمية الحياة الجماعية. إنهم يرغبون عن خوض هذه التجربة. ولعلمهم، غير قادرين عليها. لقد أهانها أولئك الذين يقيمون في المنزل. وكانوا يظنون عليها بحصتها الفائضة

باعتبارها عاملة ذات امتيازات . «لتذهب حصتي إلى الجحيم . . . بوسعي أن استغني عنها» وعلى الرغم من نجاح رفاقها في تطيب خاطرها وتهديتها فإن ذلك لم يدفع عنها الارهاق والتوتر اللذين يداكها دكاً .

هكذا مضى فصل الشتاء . وكانت تقضي معظم الليالي جالسة في غرفتها متكئة بمرفقيها على الطاولة ، تقضم الفاكهة لتوفر السكر وتفكر في الغد ومحنه . دهمها شعور باليأس ، لا أمل للثورة بالنصر ، معارك خاسرة وطعنات في الظهر .

لو كان فولوديا هنا لحففت عن كاهلها بمجرد أن تتحدث إليه عما يؤرقها ، ولكن عانقها وضمها . وتذكر تلك الأيام حين كانت تسأله :

- ما الذي يشرك الآن يا قاسيا؟ كلما رأيتك تقف هناك أمام الآخرين بدوت لعيني كائناً شكساً صغيراً . تقول إنك لا تخشى شيئاً . ولكن انظر إلى نفسك الآن منكشاً كالعصفور .

وما أن تقول ذلك حتى يقبض عليها بذراعيه القويتين ويحملها ثم يدور بها في الحجرة ، يهددها وكأنها طفلة . هذه الذكرى جعلت قلبها يخفق بالبهجة والحب ويتلهف للزوج الوسيم الطيب الذي يحبها . . . يحبها كثيراً .

كلما فكرت فاسيليسا به سقطت في الكآبة وبدت لها الأشياء في التتخيتة (العلية) الموحشة قائمة . ولكن بينما كانت تغسل كوب الشاي تساءلت ما الذي تريده من الحياة أكثر مما لديها؟ لا شيء إلا المتعة؟ هل ترغب فعلاً بملازمة فولوديتشكا لها طوال الوقت هي التي تحب عملها ويحترمها أصدقائها؟ الثورة ليست مشواراً أو عطلة للراحة . هكذا كانت تذكر نفسها . على الجميع أن يضحوا . إذن ألسن تبالغين في طلباتك وتوسلاتك يا فاسيليسا ديميتيئنا؟ تذكرني أن كل شيء بات للجميع الآن . . . كل شيء مشترك . . . كل شيء للثورة .

حاولت أن تتذكر كيف بدأت كل هذه الضجة في المنزل الجماعي .

وتذكرت كيف عزمت على انشاء منزل نموذجي تنتشر فيه الروحية الشيعية . على الرغم من أن هذا المشروع لا علاقة له بعملها في الحزب أو في السوفييت . إلا أنها كانت متحمسة لهذا المشروع . فقد كانت تأمل بإقامة منزل لا يهدف إسكان الناس فقط حيث تعيش كل عائلة حياتها الخاصة ويكون لكل ساكن مشاربه ومعتقداته الخاصة . لا . . لم تكن فاسيليسا تؤيد هذا الأسلوب في الحياة السكنية حيث لا يفكر السكان إلا بحاجاتهم . كانت تأمل بأن يعيش السكان حياة جماعية مشتركة .

وأنشأت تخطط لإقامة مثل هذا المنزل بصبر . وراحت تنفذ مخططها شيئاً فشيئاً . وقد عانت من الحيبة تلو الحيبة نتيجة هذا المشروع . فقد أخذ المنزل منها مرتين . لكنها كانت تناضل بضراوة في سبيل استرجاعه . . وفعلاً نجحت في استرداده . وأخيراً أمسى المنزل جاهزاً بمطبخه ومغسلته وصالته وغرفة الطعام وكلها كانت جماعية مشتركة . وكانت غرفة الطعام مصدر زهو وبهجة فاسيليسا . ولم يخل المنزل من مكتبة أيضاً حيث استعملت غرفة المكتبة كغرفة اجتماعات كذلك .

في البداية سارت الأمور سيراً رائعاً . كانت النساء اللواتي يسكن في المنزل يغمرنها بالقبلات ويصفنها بأنها «كنزهم الصغير» يقلن : «أنت ملاكنا الحارس» نحن سعيدات هنا والفضل يعود إليك . ولكن الأمور بدأت تتعقد . فقد بدأ السكان ينتقدون القوانين المعمول بها في المنزل ويعارضونها . لقد كانوا يرفضون تنظيف المنزل ، وكانوا يتنازعون في المطبخ حول مسألة غسيل الصحون وأدوات الطعام . وكانت المغسلة تفيض باستمرار ولم ينجح السكان في ضخ الماء منها . وصار السكان يتجادلون ويتنازعون وعم الاضطراب في المنزل ، وباتت فاسيليسا هدفاً لانتقادات الجميع ومحلاً لاعتراضاتهم ، وكأنما كانت ربة البيت وكأنها ما كانت تنظم الأوضاع بطريقة صحيحة . وتفاقم الوضع حتى أن بعض السكان غادروا المنزل .

وفي غمرة هذا الاضطراب المتفاقم قرر الزوجان فيدوسيئس - وهما من

السكان - أن يثيرا مزيداً من الشغب. فقد كانا يريان في كل شيء غلطاً وسلبية. ولم يكفا عن إبداء انزعاجهما لحظة واحدة. وكانا ينتقدان كل شيء فلا يعجبهما العجب. وكان لهم شيئاً من السطوة والسلطة في المنزل مصدرها أنهم من أوائل من سكن فيه. وبالتالي اعتبرهم أغلبية سكان المنزل ملاكين واستنوا بمنهجهم. ولكن المعضلة كانت تكمن في أن معرفة ما الذي يريدونه وما الذي يرفضونه أشبه بالمستحيل. كل ما كانت فاسيليسا تدركه هو أنها كانا مصدر شقاء في حياتها، وكانا يثجحان في إثارة المشاكل يومياً.

ولا شك في أن الإرهاق والسخط قد نالا من فاسيليسا حتى كادت أن تنهار وتنتحب. ولكن حين شعرت أن المشروع كله قد ينهار عمدت إلى وضع قانون أو قاعدة جديدة. فقد رأت أن يدفع السكان مبلغاً من المال مقابل الماء والكهرباء والايجار والضرائب وغيرها. ولاقت في سبيل رصد كل ذلك عناء كبيراً. لكن قانونها الجديد بقي حبراً على ورق. فماذا بوسعها أن تفعل إذا كان السكان لا يملكون المال الكافي؟ فالاقتصاد الجديد جيد، لكن لم يكن بوسع المرء أن ينجز شيئاً إن لم يكن يملك النقد الكافي.

لكن فاسيليسا كانت مصممة على خوض هذه المعركة في سبيل مشروعها الغالي على قلبها حتى النهاية. ليس بوسعها أن تراه ينهار، فضلاً عن كونها ذات قناة لا تلين. فإذا آمنت بقضية ناضلت في سبيلها بضراوة. وهكذا سعت إلى موسكو وقضت عدة أيام تفرغ أبواب المكاتب، تتحدث إلى المسؤولين والمديرين شارحة قضية المنزل. وقد نجحت في عرض قضيتها حتى أن المسؤولين قرروا أن يمنحوها بدلاً عن التوصيلحات ومخصصاً دائماً للمنزل.

عادت تتوهج بالفرح، إلا أن الزوجين فود وسيثنز الكريهين بددا فرحها. إذ أنها استقبلها بنظرة شزراء تنم عن اتهام لها بالخيانة لكونها توسلت مساعدة للمنزل. وعند ذاك عمدا إلى خطة هجومية جديدة. فراحا ينشران الشائعات الفاضحة حول فاسيليسا قائلين إنها تتوسل مساعدة

للمنزل كي تحتفظ لنفسها بقسم منها . كان من العسير عليها أن تتذكر كل تلك العقبات التي كان عليها أن تحملها .

لقد كانت بحاجة شديدة إلى صديق حميم تشكو له همومها وتناقش معه الوضع . عند ذاك قر قرارها على الكتابة إلى فلاديمير تتوسله العودة . لكنه كتب جواباً قال فيه إنه هو أيضاً مشغول بقضايا هامة ليس بوسعه تأجيلها أو الانصراف عنها . وانبأها بأنه رقي فاحتل منصباً جديداً . وأنه مضطر إلى تنظيم حسابات المؤسسة التي كان يعمل فيها موظفاً . لقد كان فصل الشتاء بالنسبة له أيضاً فصل نضال شاق ولهذا فإنه لن يتمكن من العودة الآن فالمؤسسة تعتمد عليه .

إذن . . على قاسيليسا أن تتحمل كل متاعبها وحيدة . والذي كان يحز في نفسها هو أن أصحابها وحلفاءها ، العمال ، هم مصدر متاعبها . ولو كانوا برجوازيين وضد الشيوعية لهان الأمر ولما اكرثت .

ولحسن الحظ وقفت لجنة المنزل إلى جانبها . لم يتركوها تحمل القضية إلى المحكمة لكن أعضاء اللجنة قر قرارهم على حل مشكلتها . فقد رأوا أن القضية قضية تشهير قائمة على الجهل والخبث . ولكن ما أن عازمت اللجنة على طرد الزوجين فيود وسيثز حتى اعترفا بذنبهما وتوسلا قاسيليسا المغفرة وأكدوا لها أنها طالما احترماها . أثار انتصار قاسيليسا البهجة في نفسها ، إذ أنها كانت مرهقة ومنهكة وقلقة إلى حد المرض .

بعد كل ما حدث نال منها المرض ، وعلى الرغم من أنها عادت إلى العمل من فورها فقد غمرها شعور بأن شيئاً ما قد مات في داخلها وذوي . ما عادت تحب المنزل مثل سابق عهدها - لقد عانت الكثير من أجله . كانت تشعر كما لو أن طفلها قد تلوث وتلطخ . . حتى أن ذكريات طفولتها عادت تنبثق مجدداً . تذكرت أخيها الأصغر كولكا وهو يريها قطعة من الحلوى . وحين همت بتناولها انفجر كولكا ضاحكاً ضحكة ماكرة وقال : « انظري إلي !

سوف أفسد الحلوى». ثم بصق على القطعة وناولها إليها قائلاً: هاك قطعتك يا فاسيليسا بوسعك الآن أن تأكلها إنها لذيذة الطعم».

فتحول فاسيليسا وجهها عنه منتحبة وتقول:

- صبي مقزز. لماذا فعلت ذلك.

هكذا كان شعورها نحو المنزل. ما عادت ترغب في أن تكون مسؤولة عنه بعد الآن. سوف تتعاون مع اللجنة لكنها لن تكرس وقتها كله للمنزل الآن. ليتهدم المنزل فهي لم تعد تبالي. وحتى تجاه السكان ما عادت تشعر إلا بالفطور. ألم يتواطأوا مع الزوجين فيود وسيقتش في التهجم عليها؟ وهكذا راحت تنأى عن السكان شيئاً فشيئاً. صحيح أنها كانت تتعاطف مع مشاكل الناس في السابق. لكنها الآن لا ترغب إلا في أن تُترك وشأنها فتعيش بسلام. كانت فاسيليسا متعبة جداً.

والآن مر الشتاء الطويل. وبزغت الشمس وراحت العصافير تزقزق، وتبسمت فاسيليسا حين تذكرت كيف كان قولود يتشكا يناديها: عصفوري. ومع الربيع بدأت تشعر بحيوية جديدة تضطرم فيها على الرغم من استفحال فقر الدم في جسدها وصعوبة التنفس.

من خلال النافذة رنت إلى السحاب الرقيق في السماء، وسطح قصر ارستقراطي تحول الآن إلى قصر للأومومة. في الحديقة ثمة براعم تتفتح لتوها، وملاً الربيع قلبها. كم كان ذلك الشتاء بارداً. كم شعرت بالوحدة وما صاحبها من صراعات وقلق. اليوم يبدو وكأنه إجازة ترتاح فيها من كل ما مرّ بها. فات أوان التخبط في الأخطاء الآن. واليوم بالذات سيكون كل شيء على ما يرام إذ أنها تلقت رسالة من حبيبها قولوديا. وأية رسالة.

أرجوك يا فاسيا لا تعذبيني أكثر. لأنني ما عدت أحتمل فقد بهظني حملي. فأنت تعديني دائماً بأنك ستأتين لزيارتي ولكنك لا تني تؤجلين ذلك. لو تعرفين أي شقاء تسببينه لي. إذن عدت أيها المناضلة الصغيرة تتنازعين

مع الجميع . الإشاعات تحوم حولك حتى أنها انتشرت هنا أيضاً . ويقول البعض أن أخبارك وصلت الصحف . أما الآن وقد ربحت المعركة فلا بد أن تأتي وتزوري حبيبك فولودكا الذي يهيم بك ويشتاق إليك . وسوف تدهشين لحياتنا الجديدة المميزة بالجلال . عندي الآن بيت خاص وبقرة ، فضلاً عن وضع سيارة تحت تصرفي . ولنا خادم أيضاً ، فوسعك أن تنصرفي عن أعمال البيت وتسترخي بارتياح . الربيع هنا رائع وأشجار التفاح مجللة بالفتح . ألا ترين أننا لم نقض ربيعاً واحداً معاً قط؟ ينبغي أن تكون حياتنا ربيعاً دائماً متصلاً ، أليس كذلك يا حبيبتي؟

إنني بحاجة إليك الآن . إذ أنني أعاني من بعض المشاكل مع أعضاء اللجنة الحزبية . إنهم يتهمونني اتهامات مزعومة . ويشيرون إلى فوضويتي مرة أخرى . لقد حدثتكَ عن سافيليف . . . إنه مصدر كل هذا . أرجوك يا فاسيا أن تساعديني في الخروج من هذه المحنة . لقد سئمت صغارة هؤلاء . إنهم يجعلون الحياة أمراً مستحيلاً . ولكن من الصعب عليهم في أية حال توجيه النقد لي . إذ أنني أعمل بجهد . . رغم ذلك فإني احتاجك . أقبل عينيك البنيتين .

أحبك دائماً

قولوديا .

جلست فاسيليسا واستغرقتها الأفكار . وشرد بصرها إلى السحب في السماء ، وتبسمت مسرورة لهذه الرسالة الرائعة . إن قولوديا يعني كل شيء بالنسبة لها ، وهو يحبها حباً جارفاً . مسدت على الرسالة التي ترقد على حجرها وكأنها تمسد شعرها غافلة عن السماء والسطح والسحب فهي لا ترى إلا قولوديا الجميل بعينه الضاحكتين . .

قلبا يخفق بمحبته . كيف وسعها أن تقضي الشتاء وتحتمل أزماته من دون الحبيب؟ منذ سبعة شهور لم تره . دهمها إحساس بالشقاء حين خطر لها أنها ما كانت تفكر فيه طيلة هذه الأشهر باستمرار . لقد أغرقتها شجونها

ذلك الشتاء واحتجزها عملها المتواصل . . . ببساطة لم يكن لديها متسع من الوقت للتفكير به . لكنها وضعت حبها له في قلبها حيث بقي قوياً لا يتغير . أما الآن وقد انتصرت وأنقذت مشروعها أي البيت الجماعي فبوسعها أن تفكر وتطيل التفكير في الحب مجدداً .

تذكره فتكاد تحس إحساساً ممتعاً بحضوره إلى جانبها . لكنها تدرك أي عبء يحملها مثل هذا الحب - إذ إنها دائماً قلقة عليه . فهو فعلاً يفتقر إلى أي إحساس بالمسؤولية ولا بد أن تعترف أن منتقديه الذين يتهمونه بالفوضوية لا يجانبون الصواب في اتهامهم هذا . كان يمقت تنفيذ قرارات الحزب ، فهو يميل إلى إطلاق نفسه على سجيتها . ولكنه كان من جهة أخرى بارعاً على صعيد العمل .

لقد حالت حياتها المنفصلة وبعد الواحد منها عن الآخر دون أن يحدث احتكاك بينهما أو تدخل على صعيد العمل . وكان هذا الوضع مناسباً بالنسبة لقاسيا إذ إنها ترغب في أن تمنح كل اهتمامها للعمل الذي تكون متخرطة فيه ، لو كان فولوديا معها فإنها ستصرف عن العمل لتبقى معه ، وسيعرض هو عن عمله ليتفرغ لها . سيقول لها : «صحيح إن للعمل أفضلية على أي شيء ، ولكن هناك حبنا أيضاً ، وهو بأهمية العمل أليس كذلك يا قاسيا؟» .

وستوافقه . إنها تشاركه هذا الشعور ، كانت مفعمة بالثقة والبهجة لأنها كانا رفيقين لا زوج وزوجة فحسب .

ها هو الآن يتوسلها أن تأتي ، كما يسأل الصديق صديقه ويتوسله أن يساعده في حل مشكلة . قرأت الرسالة مرة أخرى ثم أخذت الظنون تلم بها . إذا كانت لهذه المشكلة علاقة بـ «ساقيليف» فإنها أبناء مزعجة حقاً . فساقيليف مضارب لا يتردد . كان على فولوديا أن يتعد عنه . على فولوديا كموجه أن يكون فوق الشبهات وبالتالي أن يتجنب أمثال ساقيليف . لكنه

كان دائماً يسرف في الثقة بالناس . فهو يعطف على أمثال ساقيليف ويدافع عنهم .

لكن لا عذر للشفقة على هؤلاء الذين يستغلون الأموال العامة . وينبغي أن يعاقبوا . صحيح أن قولوديا يتمتع بقلب طيب إلا أنها لا تتوقع أن يعرف كل الناس ذلك ، ولا شك في أن الناس سوف يعيدون علاقته بساقيليف لأسباب أخرى . فضلاً عن أن لقولوديا الكثير من الأعداء . إذ أنه ما إن يخرج عن طوره حتى يفقد السيطرة على نفسه كلياً . ماذا لو تكررت تلك الحادثة التي وقعت قبل ثلاث سنوات . حين رفعوا عليه قضية؟ كانت فاليسيا تدرك تماماً من تجربتها الشخصية سهولة تحطيم سمعة شخص ما . .

المشكلة الآن مشكلة قولوديا . ينبغي أن تسعى إليه من فورها لتساعده وتقف إلى جانبه ، فتجعل هؤلاء القوم يشعرون بالخجل نتيجة موقفهم . دهمها إحساس ملح بالمضي إليه من فورها . فما عادت تهتم كثيراً بشأن المنزل الآن . في أية حال لن تستقيم أمور المنزل تماماً ، ثم . . فليذهب المنزل إلى الجحيم . صحيح أنها انتصرت من الناحية الرسمية ، إلا أن الزوجين فيود وسيفز باتا عملياً مسؤولين عن المنزل .

تهدت ، سعت إلى النافذة ورنّت إلى الباحة . وقفت هناك تودع المنزل ومسحة من القتامة تميز ملامح وجهها . ثم تضرجت وجنتاها ودهمها إحساس عارم بالسعادة .

«قولوديتشكا! سوف أرى حبيبي قولوديا قريباً . آه يا حبيبي . إنني في طريقني إليك» .

اتخذت فاسيليسا مجلسها في عربة القطار. كانت قد قطعت مسافة يومين وبقي لها يوم يفصل بينها وبين موقع زوجها. ما كانت معتادة على السفر حاملة متاع «سيدة». لكن فلاديمير أرسل لها المال لتشتري تذكرة سفر في العربة المعدة لنوم الركاب (يبدو أن فلاديمير يملك من المال هذه الأيام ما يكفيه لشراء أي شيء يرغبه). كما أرسل لها قطعة طويلة من القماش كي تحيظ منها ثوباً جميلاً. قال لها: «منذ اليوم عليك أن ترتدي ما يناسب كونك زوجة مدير».

ولم تملك فاسيليسا نفسها فضحكت حين تذكرت كيف جاءها أحد زملاء زوجها بالمال وقطعة القماش. فقد فك الرجل الرزمة بوقار وأثنى على نوعية القماش كأنه بائع متجول. ضحكت فاسيليسا وداعبت الرجل بمازحة، لكن الرجل لم ير سبباً للضحك. أكد لها أن نوعية القماش جيدة. بعد ذلك أمسكت نفسها إلا أنها لم تدر كيف تتعامل مع هذه الأنماط من الموظفين الإداريين الجدد.

حين رحل، راحت فاسيليسا تقلب قطعة القماش. ما كانت معتادة على التفكير في الثياب والموضة. ولكن الأمر ليس بهذه الصعوبة، كل ما عليها أن تفعله هو تحويل هذا القماش إلى ثوب على الموضة.

قصدت صديقتها الخياطة وشرحت لها الأمر.

«أرجوك يا غروشا خيطي لي ثوباً على الموضة».

فتناولت غروشا مجلة أزياء كانت إحدى صديقاتها قد أحضرتها من موسكو الخريف الماضي . وراحت الخياطة تخطِ ثياباً على طراز صور المجلة طيلة الشتاء، وقد أعجب الناس بهذه الثياب .

راحت غروشا تنقب المجلة باحثه عن ثوب مناسب . وبعد أن قلبت الصفحات وتمعنّت في الصور اختارت ثوباً . قالت : «انظري يا فاسيا، هذا الثوب يناسبك تماماً . فأنت نحيلة وهذا الثوب يجعل الورك يبدو عريضاً، ومن أمام يخفي صدرك الضامر . سوف أخيط لك ثوباً يباهي زوجك به .

قالت فاسيا :

- عظيم يا عزيزتي غروشا .

اتفقتا على السعر، ثم تبادلتا القبل، ورحلت فاسيليسا والسعادة تغمرها . لقد بات فولوديا خبيراً في الموضة النسائية . حين كان في أمريكا عمل في أكثر من مخزن من مخازن الثياب النسائية فتجمعت لديه معلومات لا بأس بها في هذا المجال . وها هو يستفيد الآن من هذه الخبرة . على «التجار الحمر» الجدد أن يتابعوا مثل هذه الأشياء الآن . فأناقة النساء، هي في النهاية، سلعة أيضاً .

كانت فاسيليسا تجلس وحيدة قرب نافذة العربة . شريكها في الغرفة كانت امرأة خشنة تتضوع بالعطور وتتحلى بالأقراط وتندثر بالحريير .

كانت في هذه اللحظة تزور ركاب العربة المجاورة . وترامت ضحكاتهما وضحكات المعجبين إلى الأسماع .

أما مع فاسيليسا فقد كانت نائية منطوية . تزم شفيتها وتقول :

- عفواً يا عزيزتي، أنت تجلسين على شالي، سوف تجعلك كيه .

أو تقول :

- هل لك يا عزيزتي أن تخرجي وتقفي في الممر لدقيقة كي يتاح لي أن أعد نفسي لليل؟

كانت هذه المرأة المضرجة بالعمور الثقيلة تتصرف وكأنها تملك العربية، بل وكأنها تتحمل وجود قاسيليسا في مقطورتها عن طيبة قلب. ما كانت قاسيليسا ترغب في أن يقال لها «يا عزيزتي» لكنها ترغب عن مجادلة هذه المرأة. قالت لنفسها الأفضل أن أعتاد التكيف مع الآخرين بدل أن أقضي الوقت في مجادلتهم.

أقبل المساء ونشر ظلاله الزرقاء - الرمادية عبر حقول الربيع. وبدت الشمس الضاربة مثل كرة حمراء هائلة فوق الخط الأرجواني الذي رسمته الغابات البعيدة. وبدت الصخور وكأنها تنبثق من الحقول وتتدحرج نحو السماء. امتدت أسلاك التلغراف، وكانت الأعمدة تنهض بين الحين والآخر فتحمل الأسلاك.

بعث هذا الشفق في نفس قاسيليسا إحساساً ثقيلاً بالكآبة. لم يكن حزناً، كان ضرباً من التوق إلى شيء تعجز عن وصفه.

خلال الأيام القليلة الماضية كانت مفعمة ببهجة لا حد لها. تتعجل في التحضير لهذه الرحلة. وكان الجميع يشعرون بالأسى لأنها ستسافر. غمهم الحزن لأنهم قد لا يرونها مرة أخرى. حتى المرأة فيودوسيف أتت وودعتها وغمرتها بالقبل والاعتذارات. شعرت قاسيليسا بالإحراج إذ إنها لم تكن تحقد على هذه المرأة بقدر ما كانت تعترض على هذا النموذج بشكل عام.

اصطحبتها زميلاتها إلى المحطة. حيث كانت لجنة الحزب بانتظارها، فضلاً عن أطفال المنزل الجماعي الذين حملوا أزهاراً من الورق صنعوها خصيصاً لها. في تلك اللحظة فقط أدركت قاسيليسا أنها لم تبدد وقتها وطاقتها هباء. فبوسعها الآن أن ترى أن بذور الحياة الجماعية التي زرعتها بدأت تنمو في نفوس هؤلاء الناس، وأنه لا بد من تفتح هذه البذور عن

أشياء إيجابية . وما أن تحرك القطار ولوح الجميع لها بقبعاتهم حتى انهمرت دموعها وشعرت بالأسى لأنها ترك هؤلاء الأصدقاء .

ولكن سرعان ما اختفت البلدة، وراحت القرى والضواحي تومض في النافذة ثم تختفي . وخلال لحظات اختفى أيضاً المنزل الجماعي من بالها ومعه مسرات وأحزان ذلك الشتاء، ورحلت أفكارها إلى المستقبل فسبقت القطار إلى حبيبها فولوديتشكا . تمت لو يطير القطار إليه، لو يطير كما قلبها إليه . . .

إذن من أين انبثقت هذه الأفكار الكثيرة؟ شعرت وكأن قلبها مشدود إلى حديد بارد ثقيل وراحت الدموع تنسكب من عينيها: لعل مصدر الكآبة يكمن في أنها رحلت عن جزء من حياتها، الماضي يخفي كما هذه الحقول خارج النافذة التي تعبر عينيها وتختفي بعشبتها الربيعي الناعم . حقل تلو الآخر . حقول لن يقع بصرها عليها بعد اليوم . انتحبت لوهلة بصمت، ثم كففت دموعها، فشعرت بالسكينة تغمرها، فكأنها قد حلت أذابت القلق في قلبها بالبكاء . . . واستراحت .

اشتعلت مصابيح العربة . وأسدلت الستائر عند المدخل ، واستحال الجو فجأة إلى حميم أليف . تذكرت مرة أخرى أنها سوف تلتقي بفولوديا بعد يومين ، سوف تقبله مرة أخرى - انبثق صوته حياً في ذاكرتها، بفمه الدافئ، وذراعيه القويتين . سرت في جسدها رعدة كسل ناعسة لذيدة . وتبسمت لنفسها ولولا المرأة الجالسة إلى المرأة لانفجرت بالغناء فرحاً وحبوراً .

غادت المرأة العربة وشفقت الباب وراءها . امرأة حمقاء! أغمضت فاسيليسا عينيها وراحت تفكر بقلادير مرة أخرى، وتستحضر مراحل حبهما . لقد ذهباً في الحب منذ خمس سنوات . خمس سنوات! بدا لها وكأنهما تحابا في الأمس القريب فقط . ولكن ما بوسعها أن تتذكر يوماً لم يكن فيه فولوديا حبيباً وصديقاً . استرخت على المقعد الكائن في الركن وأغمضت عينيها . اهتزت العربة برفق، وأخذتها إلى النوم، لكن أفكارها كرجت

متواصلة . تذكرت كيف التقيا لأول مرة . . .

كان ذلك أثناء اجتماع ، قبل ذلك «الأكتوبر» الذي لا ينسى بقليل . كانوا كمشة من البلاشفة . لكنهم تعويضاً عن عددهم الصغير كانوا يعملون بطاقة مضاعفة . كان المناشفة والاشتراكيون الثوريون المنقسمون في عز قوتهم . وكانوا يلاحقون البلاشفة ويقمعونهم ويصفونهم بـ «عملاء الألمان» و «خونة الوطن» ورغم ذلك كان عدد البلاشفة يتزايد كل يوم .

ما كان أحد يعرف كيف ستجري الأمور بالتحديد . لكن البلاشفة كانوا مصممين على تحقيق السلام ، وعلى الحلول محل «الوطنيون الخونة» الذين كانوا يريدون استمرار الحرب . كان هذان الهدفان واضحين ، وكان البلاشفة يناضلون لانجازهما بكل ما لديهم من طاقة وحيوية . كانوا واثقين من أنفسهم لا يساومون ، تشع عيونهم بالتصميم الذي لا يلزمه كلمات تفسره . كانوا يقولون : قد نموت ، لكننا لا نستسلم . ما كانوا يفكرون بأنفسهم - ما كان هذا أوان المشاكل الشخصية !

كتب الكثير من الكذب الأحمق عن فاسيليسا في صحف الاشتراكيين الثوريين والمناشفة خلال حملة عامة تهدف إلى الإساءة للبلاشفة . كانت تقول لنفسها دعهم يثرثرون ما يجلو لهم كل هذا سوف يخدم هدف البلاشفة في النهاية . فالشعب يزداد قناعة بأن البلاشفة سيرون في الدرب القويم .

كانت أمها تنتحب وتقول :

- كان الأجدد بك أن تفكري بي قبل أن تنضمي إلى هؤلاء البلاشفة ، لقد ألحقت العار بعائلتنا وختت الوطن .

حتى تتجنب الخلافات العائلية ، انتقلت فاسيليسا وأقامت مع صديقة لها . هناك لم تتأثر بدموع أمها ، وتدرجياً انقطعت علاقتها بالعائلة . وراحت تعمل في سبيل البلاشفة وكأما تدفعها قوة غامضة لا تبين لها مصدراً . كانت عازمة على المضي في النضال والجدال حتى لو انتهى بها الأمر إلى الانهيار .

باتت النزاعات أكثر حدة، وأصبحت الأجواء للانفجار. وحين بلغتهم أنباء «بيتر» (بتروغراد) عن قرارات المؤتمر، وعن خطابات تروتسكي واجتماعات سوفيات بتروغراد بات واضحاً أن العاصفة قادمة لا محالة - في تلك الظروف تعرفت إلى فلاديمير.

حدث ذلك في اجتماع يغص بالحضور. الناس يقفون على حواف النوافذ، يقتعدون الأرض والممرات حتى أن التنفس بات صعباً. ما كان بوسع فاسيليسا الآن استحضار غرض هذا الاجتماع لكنها لا تزال تذكر المنصة جيداً. وتذكر أن البلاشفة انتخبوا في ذلك اللقاء الجماهيري ولأول مرة كممثلين. وتكونت اللجنة من البلاشفة ويسار الاشتراكيين الثوريين وشخص فوضوي ينتمي إلى إحدى التعاونيات ويعرف ب «الأمريكي». كان هذا الشخص هو فلاديمير نفسه.

في ذلك الاجتماع وقع بصرها عليه لأول مرة رغم أنها سمعت عنه الكثير قبل ذلك. كان البعض يقول عنه بحماسة «أي رجل، إنه يجيد الخطابة بلا شك». وانتقد آخرون اندفاعه. غير أنه كان يحظى بتأييد تعاونية الخبازين ومجموعة من العمال الصناعيين، وكانوا معاً مجموعة من الملتزمين، وقوة يحسب حسابها ويعتمد عليها.

فرح البلاشفة حين زايد فلاديمير على المناشفة لكنهم غضبوا حين عارضهم. ما كان بوسعهم أن يحددوا موقفه بدقة. أما سكرتير المجموعة البلشفية فما كان يميل إليه ويقول: «من الأفضل تجنب حلفاء من أمثاله. فهو مضطرب التفكير». لكن ستيان اليكيفيتش، وهو أحد أقدم البلاشفة المحترمين في البلدة، كان يضحك ويقول: «انتظروا قليلاً، لا تتعجلوه، سوف يصبح بلشفياً ممتازاً مع الوقت. إنه شاب مندفع متحمس. امهلوه ليشق طريقه بين كل هذه الأفكار الأمريكية المشوشة في رأسه».

ما كانت فاسيليسا تلتفت إلى هذا كله. إنها كانت تعرض عن كل أولئك الذين ظهروا تحت الأضواء على نحو مفاجيء. وصلت إلى الاجتماع

متأخرة، كانت تلهث متعجلة، حيث أنها ستلقي خطاباً عن صناعة (الطابوق). تلك الأيام كانت في أية حال اجتماعاً واحداً متواصلًا مديدًا، فقد كانت خطيبة ذات شعبية - كانت الجماهير تعيها اهتماماً بالغاً وتحبها. كانوا يعجبون بكونها امرأة عاملة، مفوهة.

وقد نجحت فاسيليسا بابتكار طريقته الخاصة في الخطابة. فكانت تذهب مباشرة في خطابها إلى لب الموضوع دون ثرثرة واسهاب. وهكذا كانت دائماً تلقي الخطاب في قاعات تزدهم بالحضور.

اتجهت فاسيليسا من فور وصولها إلى المنبر. ربت الرفيق يوروتشكن (الذي استشهد بعد ذلك وهو يحارب في الخطوط الأمامية على الجبهة) على يدها. قال:

- لقد انتصرنا انتخبوا البلاشفة واثنين من يسار الاشتراكيين الثوريين و«الأمريكي»، إنه على وشك الحديث الآن، إنه جيد، كما لو أنه بلشفي.

رنت فاسيليسا إلى «الأمريكي» وما أن وقع بصرها عليه حتى شعرت بالدهشة. إذن هكذا يبدو الفوضوي. ولو لم يقال لها إنه فوضوي لخمته أفندي ارستقراطي. بياقته المشدودة وربطة عنقه وشعره المسرح بعناية. كان وسيماً أنيقاً وذا رموش مديدة تلفت النظر. حين رآته وهو يتقدم ليلقي خطابه، رفع يده إلى فمه وهو يتنحج تأهباً.

تبسمت فاسيليسا وقالت في نفسها: «إنه يشبه أي ارستقراطي». كان صوته لطيفاً ومقنعاً تكلم بطريقة ممتعة مطولة. حديثه الساخر حمل فاسيا على الضحك، وحين انتهى من خطابه صفقت له بحماسة شأنها شأن حشد الحضور. عندما هم بالعودة إلى المنبر كاد يتعثر بفاسيليسا، فالتفت ليعتذر. فإذا بوجه فاسيليسا يتورد وإذا بها تشعر بالخرج مما ضاعف من ارتباكها. غير أن الفوضوي جلس إلى المنضدة دون أن يلتفت إليها. وبدون مبالاة اتكأ بمرفقه، على ظهر مقعد وأشعل سيجارة. فمال الرئيس

وأوماً إلى سيجارته مشيراً إلى أن التدخين غير محبذ في مثل هذه الاجتماعات، فما كان من فلاديمير إلا أن هز منكبيه وواصل تدخينه، وكأنه يقول: «قوانينك لا تسري علي». نفث دخانه مرتين ثم قذف بالسيجارة إلى الأرض بينما كان رئيس الجلسة مشغولاً بقضية أخرى.

استحضرت قاسيليسا هذه الذكرى كاملة. مدت قاسيليسا لسانها في وجهه (!) لكنه لم يلتفت. لم يتطلع إليها إلا حين جاء دورها لتلقي خطابها. في تلك الليلة بالذات تحدثت حديثاً بليغاً مقنعاً، ورغم أنها كانت تقف وظهرها إلى فلاديمير إلا أنها أحست بعينه ترنوان إليها. في ذلك الخطاب عمدت قاسيليسا عن قصد إلى الإمعان في كيل المديح إلى البلاشفة والتهجم على المناشفة والاشتراكيين الثوريين والفوضويين - رغم أنها لم تكن تعرف الكثير عن الفوضويين في ذلك الوقت - كل ما كانت تعرفه هو أنها ترغب في إثارة غيظ «الأمريكي» لأنه كان يتخذ هذه المسحة الأرستقراطية.

في ذلك الوقت كان شعرها مديداً مجدلاً حول رأسها. وفي منتصف خطابها سقطت ضفيرتها على كتفيها. وكانت هي مستشارة تتحدث بحماسة واندفاع حتى أنها غفلت نفسها ولم تلحظ الدبابيس وهي تسقط عن شعرها. حين أربكها سقوط جديلتها نحت شعرها إلى الخلف. ما لم تدركه قاسيليسا وقتذاك هو أن الجديلة سحرت فلاديمير تماماً.

«ما كان بوسعي أن أراك بوضوح حين كنت استمع لخطابك، ولكن حين انسكبت جديلتك على كتفيك أدركت فجأة أنني إزاء قاسيا المرأة والثائرة، لا الخطيبة وحسب. وكم كنت امرأة طريفة، تحتقنين وتضطربين وتتخذين هيئة الجرأة وتلوحين بذراعيك مهاجمة الفوضويين بينما شعرك ينهمر على ظهرك مثل خيوط ذهبية. . . خصلات كأنها ثعابين تزحف إلى وراء. فأقسمت حين ذاك على أن أتعرف إليك عن قرب».

قال لها فلاديمير ذلك بعد أن أصبحا حبيبين.

حين انتهت من خطابها سارعت إلى رفع شعرها مرة أخرى. ولملم كوروتشكين الدبابيس عن الأرض. قالت وهي تشعر بالارتباك والجميع ينظرون إليها:

- شكراً يا صديقي .

كانت تخشى الالتفات إلى «الأمريكي»، لكنها أدركت أنه لا بد قد لاحظ. لا بد وأنه يحسب أنها حمقاء. أثارت هذه الفكرة غضبها، ودهبها شعور عدائي نحوه. ولماذا تلتفت إلى ما يظنه هذا الرجل؟

انفض المجتمعون. فجأة وقف «الأمريكي» أمامها. قال:

- اسمحي لي أن أقدم نفسي.

وقال لها اسمه ولماذا يقف هنا.

صافحته وهنأها هو على خطابها. فتضرجت وجنتاها ثانية. وشرعا يتحدثان ويتجادلان هي تدافع عن البلاشفة وهو عن الفوضويين. غادرا القاعة المزدحمة إلى الشارع حيث المطر والريح. كان ثمة عربة تابعة للتعاونية بانتظاره. فاقترح فلاديمير توصيلها إلى بيتها. فوافقت واستقلت العربة. كانت العربة ضيقة فجلسا متلاصقين صامتين تحت سقفها الخفيض.

توقف كلاهما عن الجدل فصمتا. لم يخطر على بالهما أنها قد يتحابان. راح الجواد يخبّ تضرب سنابكه في البرك الصغيرة، وجعل كلاهما يتحدث عن أمور عادية، عن المطر وعن اجتماع اليوم التالي في التعاونية حول صناعة الحساء. كانا يشعران بسعادة عارمة.

حين بلغا منزل قاسيا وأن أوان الوداع أدركا أنها آسفان للفراق. لكنها لم يعلقا بكلمة. -قال فلاديمير:

- آمل أن لا تكون قدمك قد ابتلتا.

قالت فاسيليسا بدهشة وبهجة :

- قدماي؟

إنها المرة الأولى التي يهتم شخص ما بهما، ويقلق من أجلهما. راحت تضحك، فظهرت أسنانها البيضاء، في تلك اللحظة شعر فلاديمير برغبة جارفة في طبع قبلة على هاتين الشفتين.

أرسلت البوابة صريراً حين جاء الحارس ليفتح باب البناية لفاسيليسا. هتف فلاديمير:

- إلى اللقاء غداً في التعاونية، لا تنسي. الاجتماع يبدأ عند الثانية بالضبط. نحن نتقيد هناك بالطريقة الأمريكية.

نحى قبعته وودعها. يمت فاسيليسا صوب البوابة متعجلة وكأنما تنتظر شخصاً. ثم سمعت انصفاق البوابة وباتت وحدها في الباحة المعتمة. ولتوها شعرت أن ما جرى كان أشبه بالمغامرة وسرعان ما غمرتها مشاعر القلق وهواجس الكآبة. استولى عليها شعور لم تتبين له مصدراً ولا تفسيراً جعلها تحس بالغضب والأسى. وأدركت إلى حد الألم كم هي بلا وزن، كم هي بدون قيمة.

أراحت فاسيليسا رأسها على وشاحها الصوفي في مقصورة القطار. ما كانت نائمة، لكنها كانت تحلم بالحب. وكأنما هي في السينما، دورة تلو دورة، صورة تعقب أخرى، الفرح والشقاء، كل ما عاشته مع فولودكا راح ينبثق أمامها. كان هذا الاستحضار للماضي بهيجاً حتى أن الذكريات التعيسة أثارَت في نفسها مشاعر السرور. قالت لنفسها: كانت الأمور تعيسة أحياناً، لكن ها هي تتحسن.

واسترخت على مقعدها. اهتز القطار كأنما ليث السكينة في نفسها، وتذكرت فاسيليسا اجتماع التعاونية.

كان الاجتماع صاخباً مضطرباً، والخبازون جازمين ملحين . كان فلاديمير رئيسهم ، والشخص الوحيد القادر على السيطرة عليهم وكبح جماحهم . يصيح وتنتفخ عروق جبهته توتراً . لم يلاحظ دخول قاسيا وجلوستها في المؤخرة تتفرج .

تبنوا قراراً ينزع الثقة عن الحكومة ويطالب بسيطرة العمال على التعاونية، ثم بدأوا بانتخاب إدارتهم . وفقد المساهمون والبورجوازيون و«الدوما» مراكزهم . وبالتالي ما عادت التعاونية واحدة من تعاونيات المدينة، ولكن مجموعة من الخبازين والصناعيين يتعاونون معاً من خلال مشروع جديد متميز .

غير أن المناشفة ثاروا فأرسلوا مجموعة تابعة لهم لتدخل . كان الاجتماع على وشك بلوغ نهايته لم يتبق إلا اجتماع المديرين - حين أطل فجأة عند الباب مفوض المناشفة، المسؤول الرئيس في المدينة، وأحد رجال كيرنسكي . كان مصحوباً بمجموعة من قادة المناشفة والاشتراكيين الثوريين . وما أن وقع بصر فلاديمير عليهم، حتى لاحت نظرة ماكرة في عينيه . وسارع إلى القول:

- أيها الرفاق . أعلن نهاية الاجتماع . لم يتبق لدينا سوى تنصيب مديري تعاونية الخبازين الثورية الجديدة . غداً سوف نعقد اجتماعاً عاماً لدراسة أمور أخرى، أما الآن فبوسعنا جميعاً العودة إلى منازلنا . تحدث بهدوء وببنبرة واثقة، ثم نهض المجتمعون . هتف المفوض بامتعاض:

- لحظة، لحظة يارفاق، لا تفضوا الاجتماع لو سمحتم .

هتف فلاديمير:

- لكنك تأخرت أيها المفوض . الاجتماع انتهى . إذا شئت الاطلاع على مقرراتنا فأهلاً وسهلاً ها هي هناك . كنا قد عزمنا على إرسال وفد ليتباحث معك، ولكن بما أنك جئت إلى هنا شخصياً فهذا أفضل . آن الأوان لكي

تتعلم أن التواصل الثوري يتطلب أن يأتي المسؤولون إلى المنظمات العمالية حتى يستعلموا.

وقف فلاديمير بثبات وراح يللمم أوراقه، ولكن عينيه وارتا نظرة خبيثة. هتف الحشد بالقاعة: «هذا صحيح» وانفجر البعض بالضحك. احتج المفوض وسعى نحو فلاديمير وهو يتحدث بعصبية وإثارة. فما كان من فلاديمير إلا أن رمقه بنظرة ملؤها المتعة. تكلم بصوت واضح مرتفع وكانت أجوبته تسمع في أرجاء القاعة. وصفقت الجماهير لفلاديمير وأطلقوا صيحات الابتهاج حين دعا فلاديمير المفوض لحضور حفلة بمناسبة تسليم التعاون من قبل البورجوازيين إلى الخبازين. هتفوا «إن هذا الأمريكي حاد وسليط». مما حمل المفوض على مغادرة القاعة بعدما يئس من تحقيق أي انجاز. وهدد أثناء خروجه باللجوء للقوة. فصاح فلاديمير وقد اتقدت عيناه:

- حاول أن تلجأ للقوة. : وسترى.

وردت الجماهير كلماته. وامتلاء جو القاعة بالوعيد والتهديد حتى أن المفوض وجماعته اضطروا إلى مغادرة القاعة من باب جانبي. إلا أن الصخب لم يتبدد.

وقد تأجل اجتماع الإدارة حتى المساء لكي يتسنى للناس تناول الطعام. كانوا جميعاً في الاجتماع منذ الصباح وقد نال منهم التعب والارهاق.

كانت فاسيا تتجه نحو البوابة مع الآخرين حين نبت أمامها فلاديمير مبتسماً. أنيقاً مختلفاً عن الآخرين بسترته النظيفة الزرقاء. إلا أنه لم يبد اليوم لعيني فاسيا ارستقراطياً، لقد شعرت فاسيا اليوم أنه واحد منهم. لا بد وأنه بلشفي. كان جريئاً لا يعرف التردد ولا يرده راد. بوسعها أن تتخيله يواجه الرصاص - حتى ولو كانت ياقته منشاة.

استولت عليها رغبة مفاجئة بترك يدها في يده الكبيرة الواثقة. ها هي

تقابل رجلاً تعتقد أنه بوسعها قضاء حياتها سعيدة مطمئنة معه . ولكن ما الذي قد تعنيه هي بالنسبة لشخص مثل فلاديمير؟ رأت نفسها عبر عينيه وتنهدت . بدا لها وسيئاً ، قد رأى العالم ، إذ كان في أمريكا . أما هي فمن تكون؟ مجرد شيء صغير لم تقع عيناه البسيطان على شيء وراء حدود البلدة . كيف يمكن لمثله أن ينظر إليها نظرة جادة؟ بل إنه حتى لم يلحظها اليوم .

اقتحم صوت فلاديمير أفكارها .

- مرحباً يا رفيقة قاسيليسا . لقد نجحنا في إحراج المفوض أليس كذلك؟ علمناه درساً . إنني على يقين من أنه لن يعود إلى هذا المكان مرة أخرى . منذ الآن سوف نكتفي بإرسال قراراتنا لهم من أجل إعلامهم وحسب .

كان فلاديمير مبتهجاً وكان مزاجه جيداً ، تبادلوا الحديث والضحك ، ولو لم يجره أصحابه بعيداً لتابعوا الحديث في الممر أطول مدة ، يبحثان قصة المفوض ويتناولان القرارات التي اتخذها المؤتمر .

.. قال لها بصوت ينم عن الحسرة :

- إيه ، لا بد أن أذهب الآن يا رفيقة قاسيليسا .

سرت في نفسها رعدة البهجة ورفعت عينيها البنيتين نحوه . توقف فلاديمير من فوره وحدق إلى عينيها كما لو إلى قلبها . شعرت وكأنه يغرق في هاتين العينين .

هتف أصحابه :

- هيا يا فلاديمير ، لا تتلكأ ، تأخرنا . . وأشغالنا تتراكم ومهامنا تزداد .

هتف :

- سوف آتي .

ضغط على يد قاسيا ومضى . ومضت قاسيا أيضاً تمشي عبر شوارع المدينة ولا تدري إلى أين تذهب ، غافلة عن كل ما حولها ، فكأنها لا تبصر

العابرين ولا الشوارع . . فقط فلاديمير . ما حدث لها مثل ذلك في حياتها  
أبدأ .

ثم ازدادت مناسبات لقاءاتها . ففي إحدى أمسيات شتاء جليدي كانا  
يغادران اجتماعاً للسوفييات معاً . كانت السماء باهرة والثلج متناثر على  
الأرض والأسطح والسيارات ويجلج الأشجار برقائق ريشه الأبيض . مضت  
أيام أكتوبر، وانتقلت السلطة إلى أيدي البلاشفة الذين قبضوا عليها بثقة .  
لقد هزم المناشفة والجنح اليميني للاشتراكيين الثوريين . رغم أن الأميين  
ظلوا يشكلون مشكلة . مجموعة واحدة تسيطر الآن - البلاشفة . قوتهم تزداد  
والعمال جميعاً يلتفون حولهم . لم يبق من مناهض لهم سوى البورجوازية  
والقساوسة والضباط، إلا أن السوفييات لم يفسحوا لهم المجال أبداً . أمواج  
الثورة لم تهدأ بعد ولم تتوقف، ولم تعد الحياة إلى طبيعتها العادية بعد .  
الحرس الأحمر يطوفون في شوارع المدن والقرى وكانت تقع صدمات خفيفة  
هنا وهناك . لكن رغم كل شيء بدأ وكأن الصراع الأكثر ضراوة قد حسم  
الآن .

كان قاسيليسا وفلاديمير يتكلمان عن تلك الأيام التي استولوا فيها على  
السلطة في البلدة . وقد حقق جماعة فلاديمير من الخبازين الانتصار في ذلك  
اليوم . كان فلاديمير الذي انضم إلى الحرس الأحمر معهم يحمل شارة الذراع  
الحمراء وقبعة الفرو . وقد تعرض لاطلاق النار أيضاً، ورأت قاسيا الثقب  
الذي أحدثته رصاصة في كتف سترته .

رغم أنها كانا يتقابلان كثيراً، إلا أنهما ما كانا يتمتعان بالوقت الكافي  
ليتحادثا بعمق . الآن، ودون تخطيط مسبق، تركا الاجتماع معاً، وشعر  
كلاهما من فوره بالسكينة والراحة . لدى كل منهما الكثير ليقوله للآخر، مثل  
صديقين قديمين . ثم توقفا فجأة عن الكلام، وقد غمرهما شعور عارم  
بالاندماج .

عبرا منزل قاسيا دون أن يلاحظاه، وقبل أن ينتبها كانا يتجولان في

ضواحي البلدة. ويتوقفان تملأهما الدهشة ثم ينفجران ضاحكين. أين هما من المكان؟ وقفا يتطلعان إلى نجوم السماء المتوهجة لا يتزحزحان. في تلك اللحظة الجميلة شعرا بأنهما شابان وسعيدان.

قالت فاسيا:

- في الريف حيث نشأت، يعرف الناس الوقت من النجوم. ما كان عندنا ساعة. كان أبي يعرف كل نجمة، ويعرف كيف يحدد الوقت بدقة.

وراح فلاديمير يحدثها عن طفولته. عن عائلته الفلاحية الفقيرة. كان يتوق إلى الذهاب إلى المدرسة، لكن المدرسة كانت بعيدة جداً. فاقترح على ابنة القس ان يطعم أوزتها مقابل تعليمه القراءة والكتابة فوافقت. وكان صوت فلاديمير يرق كلما تحدث عن الريف، وعن الحقول والأشجار قرب منزل والديه. وشعرت فاسيا أنه رائع. وبدا لها منذ تلك اللحظة أعز إلى قلبها من أي وقت مضى.

حدثها عن مراهقته، وكيف رحل إلى أمريكا في ذلك العمر مصمماً على أن يبني لنفسه مكانةً هناك. بعد سنتين من العمل على سفينة شحن وضع اسمه على القائمة السوداء لأنه شارك في اضراب. فاضطر إلى الرحيل عن تلك الولاية. عرف الجوع وعمل في أي عمل كان يعرض عليه.

في البداية عمل منظفاً في فندق فخم. آه لورأت كل أولئك النزلاء الأنيقين. وليتها رأت النساء. . بثياهن الباذخة وجواهرهن وحريرهن.

ثم عمل بواباً في دار للموضة. هناك كانوا يدفعون له أجراً مجزياً، لكنهم لم يعرضوا عليه العمل إلا لأن طولته وعرضه يناسبان بدلة العمل. كانت تلك الوظيفة مملة إلى أبعد حد. وكثيراً ما أثار منظر الزبائن الأغنياء الأنيقين غضبه. وعمل سائقاً لدى تاجر قطن غني. كان يجتاز مئات الأميال عبر أمريكا في سيارة الليموزين الفارهة. لكنه سرعان ما مل هذا العمل أيضاً - إنها أجرة العبيد شأنها شأن الوظائف الأخرى التي عمل بها. في أية

حال، شجعته هذا الوظيفة الأخيرة على الدخول إلى عالم تجارة القطن. وأصبح كاتباً وبدأ يأخذ دروساً في المحاسبة. وفي (فبراير) ١٩١٧ انفجرت الثورة في روسيا. فهجر كل شيء من فوره وعاد إلى روسيا.

قال: لكن أمريكا عالم آخر. أحب أشياء كثيرة فيها. مثلاً، التاجر وقف إلى جانبه، حين قبض عليه وزج في السجن بتهمة الانتماء إلى منظمة محرمة بعد أن اصطدم مع رجال الشرطة، بل إن رجل الأعمال هذا دفع كفالة وأخرجه من السجن. لقد أثر فيه طابع الولاء هذا.

وسارا وسارا، يعبران الشارع تلو الشارع، وقاسيا تصغي إلى حديث فلاديمير الذي ما كان يكف عن الكلام وكأنه يرغب في أن يقص حياته كلها. بلغا بوابة منزل قاسيا مرة أخرى. سألها فلاديمير:

- هل تسمحين لي أن أدخل وأتناول الشاي معك؟ حلقي جاف ولا أشعر بالنعاس؟

ترددت قاسيا: فمن المؤكد أن زميلتها التي تشاركها المسكن قد نامت. ولكن لا بأس. سوف توقظها فيتناول ثلاثتهم الشاي، وهذا ادعى للبهجة في أية حال. ولماذا لا تدعو حبيبها إلى الداخل؟ ما كان بوسعها أن تتركه في تلك اللحظة.

دخلا، ساعدها في إعداد السبماور. قال:

- على المرء دائماً أن يساعد السيدات. هذه مسألة مفروغ منها في أمريكا.

جلسوا إلى الشاي، وراحا يضحكان ويداعبان زميلة قاسيليسا التي أيقظها وانتزعها من السرير والتي جلست ناعسة تطرف بعينيها. كانت قاسيليسا طافحة بالسعادة.

طفق فلاديمير يتحدث عن أمريكا مرة أخرى. عن النسوة الجميلات اللواتي كن يأتين إلى (دار الأزياء) بجواربهن الحريرية وسياراتهن بينما هو

يفتح الباب لهن بزیه المزرکش وقبعته المعقوفة ذات الريش . ذات مرة دسّت امرأة ورقة في يده تقترح عليه موعداً للقاء، لكنه لم يذهب . ما كان ميالاً إلى النساء المخادعات وعلاقاتهن السرية . امرأة أخرى منحته وردة . بينما كانت فاسيا تصغي إلى هذه القصص شعرت بأنها تتضاءل نسبة له وأنها أقل جاذبية - وتبخرت البهجة من قلبها . عبست . سألتها بلهجة محايدة :

- كنت تحب كل هؤلاء النسوة الجميلات إذن؟

وشعرت من فورها أن سؤالها سخي فغضبت من نفسها .

رمقها فلاديمير من قرب وهز رأسه سلباً . قال :

- طوال حياتي يا فاسيليسا ديميتيخنا، كنت أبقى قلبي وحيي نقيين . والفتاة التي سوف أحب ينبغي أن تكون طاهرة كذلك . هؤلاء النسوة ما كن سوى مومسات ، ليسوا بأفضل من عاهرات الشوارع .

تدفقت البهجة مرة أخرى في قلبها - وهناك تجمدت . إذن فهو لن يجب إلا عذراء . . أليس كذلك؟ حسن . . إنها ليست عذراء . في البداية كانت علاقة الحب القصيرة مع بيتا رازغولوف الذي يعمل في قسم الآلات . لكن سرعان ما أرسل إلى الجبهة . ثم كانت علاقتها بمسؤول حزبي وفكرا في الزواج . ولكن هذا المسؤول أيضاً غادر إلى الجبهة ، وحين توقف عن الكتابة نسيتته تدريجياً .

هل يعني فلاديمير فعلاً أنه لن يجب إلا عذراء؟ رنت إليه فاسيا بانتباه محاولة تتبع ما كان يقوله، لكنها كانت في حالة من الرعب أغنتها عما حولها فما عادت تميز الأشياء .

أما هو فقد ظن أنها ملت قصصه فقطع ما كان يقوله ونهض ليغادر . ودعها بعجلة وفتور وامتلأت عينا فاسيا بالدموع . كانت في شوق إلى معانقته، ولكن هل كان حقاً يرغب فيها؟ انتحبت طوال تلك الليلة وعزمت على تجنب هذا « الأمريكي » بعد الآن . فما كان للقاءها به معنى

مادام هو لا يقع إلا في حب عذراء؟

ولكن رغم أنها قصدت تجنب «الأمريكي» إلا أن علاقتها في واقع الأمر ازدادت قوة. ففي اجتماع إحدى اللجان لتعيين محافظ، دب خلاف، البعض رشح فلاديمير، ولكن آخرين عارضوا بشدة وخاصة سكرتير الحزب الذي عارض معارضة عنيفة. قال إن أهالي البلدة يقفون ضد «الأمريكي» الذي يستقل سيارته وكأنه حاكم من حكام القيصر، وينزع قبعته بحركة ارسقراطية. المواطنون العاديون يعتبرونه خطراً عاماً، إنه لا ينضبط ولا يلتزم بتعاليم الحزب، وقد أثرت حوله أكثر من شكوى مؤخراً لأنه لا يتقيد بقرارات الحزب في التعاونية.

في ذلك الاجتماع دافعت قاسيا عن فلاديمير بحرارة، رغم أنها كانت تعتقد أن تكلفه تلك الخيلاء إنما هو ضرب من حماقة. امتعضت لكونهم لا يزالون يشيرون إليه على أنه فوضوي. من الغباء عدم الثقة به - فهو كعامل ليس أقل شأناً من أي بولشفي. وقف ستين اليكسييفيتش إلى جانب فلاديمير أيضاً. ثم اتفق الجميع على إحالة الموضوع إلى التصويت. صوت ستة إلى جانبه وسبعة ضده. وهكذا انتهت هذه المسألة.

حين بلغ قرار اللجنة فلاديمير استولى عليه الغضب وراح يشتم البلاشفة. كيف يسعهم عدم الثقة به هو الذي ناضل بكل قلبه وروحه في سبيل الثورة؟ هتف:

«أيها الدستوريون، أيها المركزيون، إنما أنتم تنشدون إقامة دولة بوليسية تابعة لكم».

وظل يرسل شتائمهم ويحذرهم مصير أمريكا. حيث يؤمر الشعب ويمنع من القيام بأي شيء، وحيث تقمع الحركة الأمية باستمرار. كل هذا السيل من الكلمات بث مزيداً من الحذر تجاهه من قبل اللجنة. وطالبوا أن يدعن فلاديمير لقرارهم. إلا أن العداء استمر وبات أكثر حدة. وظلت

فاسيا تدافع عن فلاديمير بشراسة حتى بُح صوتها. ثم ظهرت قضية جديدة أمام السوفيات: مرة أخرى لم تلتزم تعاونية فلاديمير بأمر محدد. حين واجه فلاديمير السوفيات كرر نفس الأسطوانة مرة أخرى: «لا أعترف بهذه الإجراءات البوليسية، ينبغي على كل دائرة أن تضع قوانينها الخاصة بها. أما بالنسبة للانضباط فيإني لا آبه له. لم نقم بالثورة، ونضحي بدمائنا ونطرد البورجوازية لنذهب ونشئ أنفسنا بحبل جديد. من هم أولئك القادة الذين ظهروا فجأة على مسرح الأحداث ليأمرونا؟ أولاً نعرف نحن كيف نأمر أنفسنا؟

واحتد النقاش وعلت الأصوات الواعدة المهتدة. قال الرئيس محذراً:

- إذا لم تنفذ الأوامر، اضطررنا إلى فصلك من السوفيات.

صاح فلاديمير وقد اتقدت عيناه:

- حاولوا أن تفعلوا ذلك وسترون. إن الخبازين التابعين لي مقاتلون بارعون. إذا سحبتم من الميليشيا فمن سيتبقى ليدافع عنكم؟ عند ذاك سوف يسحقكم البورجوازيون تحت نعالهم. وإلى هذا تسعون. هذا ليس سوفيات هذا فرع للبوليس القيصري.

وآذى هذا القول فاسيا في نفسها. لماذا يتفوه بهذه الأقوال؟ كان يقف ثابتاً بوجهه الأبيض ويواصل دفاعه الذي يزيد من إثارة مشاعر العداوة له.

صاحوا:

- اعتقلوه، افصلوه، اطردهوا هذا التنبل الكسول الذي لا ينفع.

وهنا تدخل ستين اليكسييفيتش فأنقذه. اقترح أن ينتقل فلاديمير إلى غرفة أخرى، ويترك السوفيات ليتباحثوا في الأمر دون حضوره. فغادر فلاديمير الغرفة ومعه فاسيا.

كانت مغضبة منه لأنه تفوه بكل تلك الحماقات . هو الذي أثبت للسوفييات أنه ملتزم وعلى استعداد للتضحية . ولكن هل يمكننا أن نحكم عليه من خلال ما تفوه به من عبارات عفوية . لماذا لا يحكموا له أو عليه من خلال أفعاله؟ الكل يعرف كم دافع فلاديمير عن السوفييات، وأنه كان وراء تأييد السوفييات للبلاشفة في أكتوبر . فهو الذي نزع السلاح من الضباط . وكان هو وراء فرار المحافظ واستحضار جماعته إلى الشوارع قائلاً لهم :

- هيا . . نظفوا الشوارع من الثلج .

هل يفصلوه من السوفييات لمجرد أنه صاحب مزاج غضوب؟ كانت قاسيا حانقة حنقاً عارماً حين دلفت إلى الغرفة المجاورة . كان فلاديمير يجلس إلى طاولة والكتابة تستولي عليه . ورأسه على ذراعه . رفع بصره نحوها ، عيناه تشتعلان سخطاً . بدا مضطرباً ولاحظت قاسيا بقلق أنه يشبه طفلاً مجروحاً في نفسه ، صغيراً وغير منيع . عازمت على الدفاع عنه مهما كان الثمن .

قال فلاديمير:

- وهكذا خاف هؤلاء الدستوريون . هل تظنين أن وعيدي أخافهم؟ ولكن . . .

كان مزهواً . ملامح قاسيا متعاطفة حانقة معاتبة في آن .

- أخطأت يا فلاديمير ايشانوفيتش . وليس لك إلا أن تلوم نفسك . لماذا تفوهت بكل هذه الحماقات؟ ألم تر أنها بالنسبة لهم لم تكن إلا معارضة السوفييات .

أصر فلاديمير:

- وسوف أواصل معارضتي ما داموا يتصرفون وكأنهم بوليس القيصر .

- كيف تفوه بهذه العبارات؟ أنت تعلم أنك تقول ما لا تعني .

دنت قاسيا منه، في تلك اللحظة شعرت أنها أكبر منه عمراً. رنت إليه بمحبة وجدية. رنا هو إلى عينيها ولم ينبس.

- هيا، اعترف أنك فقدت أعصابك.

نكس فلاديمير رأسه. قال:

- القضية من أساسها قدرة. إنهم غاضبون مني.

رنا إلى قاسيا مرة أخرى بعيني طفل يعتذر إلى أمه. قال بيأس:

- فات الأوان. لا يسعنا أن نفعل الآن شيئاً. الوضع ميؤوس منه.

امتلاً قلبها بالألم والحنان. بات عزيزاً عليها. وضعت يدها على رأسه ومسدته برفق.

- أرجوك، لا تيأس يا فلاديمير ايثانوفيتش. هذا ليس من شيم الفوضوي.

عليك أن تؤمن بنفسك وتثق بها. ولا تسمح للآخرين بإهانتك.

كانت قاسيا تقف إلى جانبه تمسد شعره. مال برأسه على صدرها.

قال:

- لقد كانت حياتي صعبة كما تعلمين. واجهت الكثير من الخطوب

والضربات. حسبت أننا سوف نحيا في الثورة كأصدقاء ونعمل إلى

جانب بعضنا البعض بمحبة. لكن، أعتقد أن الأمور ليست كذلك.

قالت قاسيا:

- ستسير الأمور سيراً حسناً. علينا فقط أن نثق ببعضنا إذا كنا نعمل

جماعة.

- لا. الأمور ليست بخير. ألا ترين بنفسك أنني لا أستطيع التعايش مع

هؤلاء الناس.

- ولكنك سوف تتعلم التعايش معهم. إني متيقنة من ذلك.

رفعت فاسيا رأس فلاديمير نحوها، وراحت تحديق إلى عينيه كأنما ليستوحي الثقة منها. لكن عينيه طاфحتان بالقلق واليأس. مالت نحوه وراحت تقبل شعره برفق.

- عليك أن تصلح ما أفسدت الآن. عليك أن تعتذر وتخبرهم أنك خرجت عن طورك وأنهم أساؤا فهمك.

وافق فلاديمير ورنا إليها بعينين تتوسلانا المساعدة. قال: «حسناً». ثم قام نحوها بحركة مفاجئة، طوقها بذراعيه والتحم بها بقوة وراح يقبلها بشهوة متقدة.

هرعت فاسيا إلى غرفة الاجتماع وسعت من قسورها إلى ستين اليكسيفيتش. عليها أن تنقذ فلاديمير ايقانوفيتش.

وأخيراً انتهت المشكلة. لكن العداة نحو فلاديمير لم يتبدد، وسرعان ما انقسم السوفييات إلى قسمين. وبدا الأمر وكأن أيام الصداقة في التعاونية قد ولت.

في عربة القطار المظلم تمت قاسيالو أن تتخطى هذه الذكريات. إلا أن الذكريات ظلت تتزاحم وتتكاثر في رأسها. كانت ترغب في أن تتذكر كيف بدأ حبها بالضبط.

بدأ فلاديمير يصطحبها إلى البيت دائماً. وجعلا يتشوقان للقاءات. وحين يخلوان لبعضهما كانا يتصرفان بعفوية ودون تكلف.

ذات مرة في شقتها - ولم تكن زميلتها هناك - أخذها بين ذراعيه. كانت قبلاته حارة متقدة، بوسعها أن تتذكر تلك القبلاات حتى هذه اللحظة. إلا أنها حررت نفسها من ذراعيه ورنّت إلى عينيه بثبات.

- لا يا قولوديا، لا تفعل. لا أرغب في الخداع.

نظر إليها مصدوماً مذهولاً. قال:

- ولكن أنا لا أخدعك يا قاسيا؟ ألا تدرين أنك وقعت في نفسي منذ وقع بصري عليك؟

- لا، المشكلة ليست هنا يا قولوديا... ثمّة مشكلة أخرى. نعم أنا أصدقك ولكني... لا، أرجوك توقف. لقد قلت لي مرة إنك لن تحب إلا عذراء. حسناً إني لست عذراء كان لي أحياناً قبلك.

كانت تتحدث وترتعش، الرعب يغمرها خوفاً من تبديد هذه السعادة الجديدة.

لكنه قاطعها:

- هل تعتقدين أنني التفت إلى علاقاتك السابقة؟ أنت لي الآن يا قاسيا، وأنت في عيني أظهر وأكثر من رأيت رقة. إذن... أنت تحبيني يا قاسيا. هل تحبيني فعلاً؟ لا أصدق أنك لي، لي وحدي. لا تتحدثي بعد الآن أمامي عن أحبائك. هل تسمعين؟ لا تحدثيني عنهم، لا أريد أن أعرف. كل ما يهمني هو أنك الآن لي أنا.

وهكذا باتا حبيين.

كانت العربة معتمة. المرأة الأخرى نائمة وعطرها يفوح في المقصورة. قاسيليسا ترقد على المضجع الأعلى، تحاول أن تنام. لكن جهودها ذهبت أدراج الرياح فالنوم يستعصي عليها. كانت ذكرياتها مع قولديا صارخة. وشعرت في أعماقها أن الماضي قد انطوى، وأن سعادة أربع سنوات ماضية ما كانت إلا ذكرى. لم تتبين سبباً واضحاً لهذا الشعور الحاد، ولم تجد له تفسيراً، فحياتها لا تزال تمتد إلى المستقبل. لم تفهم ولكنها شعرت بهذا الإحساس الغامض: لقد تغير حبهما - شعرت أيضاً أنها هي نفسها تغيرت...

رقدت هناك في العتمة، طاوية يديها تحت رأسها والكآبة تغمرها.

لقد أدركت الآن أنها كانت مستغرقة في عملها إلى درجة لم تعد معها قادرة على التفكير في كثير من الأشياء بطريقة صحيحة. أشياء نجحت في تأجيل التفكير فيها، مثلاً: كل نزاعات فولوديا مع الحزب، وتلك المشاجرات الصغيرة مع الدوائر. في الأيام الأولى ما كان هكذا. طبعاً كان ثمة منازعات، وكثيراً ما تنطح ضد السلطات، لكن كان بوسع قاسيا دائماً أن تقنعه وتجعله يتوصل إلى الموقف المنطقي، إذ أنه كان يثق بما تقول وما ترى وكان يصغي لها.

حين بدأت الحملة البيضاء، مثلاً، وتهددت البلدة، سارع فلاديمير بالسعي صوب الجبهة. لم تحل قاسيا بينه وبين ذهابه لكنها ألحت عليه بالانضمام إلى الحزب أولاً. بعد جدال وتلمل أذعن وانضم. أمسى بلشفيًا ثم مضى.

لم يتبادلا الرسائل كثيراً. كان يرسل لها ما يكفي لزيارته يوماً أو يومين، ولكن بعد ذلك كانا ينفصلان عدة أسابيع، بل أشهراً. كان ذلك الوضع حتمياً، بل إنهما لم يملكا من الوقت ما يكفي للاشتياق لبعضهما.

وفجأة علمت فاسيليسا أن تهمة ما رفعت ضد فلاديمير وأنه يواجه اللجنة. عجزت عن تخيل ما حدث. كان يعمل في دائرة المؤن، ويبدو أنه تلاعب بحساباته، بل ذاعت شائعات حول اختلاسات صغيرة قام بها.

ثارت قاسيا حين سمعت ذلك. قالت: «كل هذا أكاذيب لا أصدق كلمة واحدة، كلها أكاذيب وتهم».

مهما يكن، كانت هذه التهم جدية، وهبت هي تستقي المعلومات. لم يعتقل لكنه فصل من الوظيفة. توصلت ستين أليكسييفيتش لمنحها إذناً كي تحمل الطرود إلى الجبهة، وبعد ثلاثة أيام كانت هناك. تلك كانت زيارتها الأولى لفولوديا.

امتألت الرحلة بالعقبات - تأخير في وصول القطارات . في البداية اكتشفت أنها لا تحمل الوثائق اللازمة، ثم اتضح لها أن عربة البضائع قد انفصلت . القلق ينهشها، ماذا لو بلغت قضيته المحكمة قبل وصولها؟ في تلك اللحظة أدركت قاسيا كم تحب فلاديمير . وكم كان عزيزاً على قلبها . وكانت تهب لتقف إلى جانبه بعناد كلما زادت قناعة الجميع بأنه فوضوي وأنه قادر على التمرد . لا أحد يعرفه كما تعرفه هي . كان مهذباً رقيقاً مثل امرأة - سلوكه فقط ينحو منحى وقحاً وغير مرن . وقاسيا تعرف أنه بالمحبة واللطف قد ينقلب ليكبح جماح نفسه . صحيح أنه طافح بالمرارة، لكن هذا أمر طبيعي فحياة العامل ليست سريراً من الورود .

عندما وصلت أخيراً، قصدت موقع قيادة الجيش من فورها، وبعد التي والتي وبعد أن تجشمت الخطوب عرفت موقع فلاديمير . كان عليها أن تجرجر نفسها إلى الجانب الآخر من البلدة، رغم أنها كانت محظوظة إذ عرض عليها أحدهم أن يقودها إلى المكان ويحمل الطرود . إنها متعبة ترتعش برداً، ولكن البهجة غمرتها حين عرفت أن التحقيق لم يكتمل بعد، وأن لا دليل مادياً ضده حتى الآن . وبدا لها أن الآراء منقسمة في الدائرة، وسمعت الكثير من الشائعات والاتهامات .

استاءت قاسيا كثيراً حين كانت تعلن أنها زوجة فلاديمير فتلمح

نظرات حانقة عدائية. بدا وكأنهم يوارون شيئاً ما عنها. كانت عازمة على التحقيق في المسألة والجري وراء كل التفاصيل، ثم مقابلة الرفيق توبوركوف، الذي أرسلته اللجنة المركزية للحزب والذي كان يعرف سجل فلاديمير. كيف يقمعونه ويضطهدونه هكذا بينما يتجاهلون المناشفة والاشتراكيين الثوريين. لماذا يعاملون فوضوياً أقسى مما يعاملون أعداءهم الحقيقيين؟

وصلت قاسيليسا ومرافقها إلى حيث يقيم فلاديمير. لكن الباب كان مقفلاً بالملزاج. قرع مرافقها الباب. لا جواب. كان جوربا قاسيا مبتلين. حتى أنها كانت تتشوق إلى غرفة دافئة لتغيير جوربيها لا لرؤية فلاديمير. طوال خمسة أيام كانت تجلس في عربة مدفئة للبضائع بلا نوم.

اقترح مرافقها:

- لنقرع النافذة.

كسر غصن شجرة ودق على النافذة. اهتزت الستائر وظهر جزء من رأس فلاديمير في الظلام، ثم ظهر رأس امرأة وسرعان ما اختفى. إحساس بالغثيان والوجع شل قاسيا وجدها.

صاح مرافقها:

- افتح يا رفيق. أحضرت لك زوجتك لتراك.

بسرعة أسدلت الستائر مرة أخرى لتواري قولوديا والمرأة. وعادت قاسيا إلى المدخل بانتظار فتح الباب. ما الذي يؤخره؟ وظنت قاسيا أنه لن يأتي إلى الباب أبداً.

أخيراً فتح الباب على مصراعيه ووجدت نفسها بين ذراعي قولوديا. قال وهو يعانقها ويقبلها بينما انحدرت دموع الفرح من عينيه:

- أتيت أخيراً يا حبيبتي، أوه يا قاسيا يا أعز أصدقائي.

قال مرافقها بلهجة لا تخلو من نزق:

- هلا حملت هذه الطرود عني؟

قال قولوديا:

- حسناً. لندخل ونتناول شيئاً من الطعام، يا حبيبتى المسكينة، لا شك أنك مبتلة والبرد يقرص عظامك.

في الداخل كانت الغرفة مضاعة ونظيفة، رمقت غرفة نوم وغرفة طعام - وهناك رأت ممرضة تجلس إلى طاولة، على رأسها منديل أبيض وعلى ذراعها شارة حمراء. كانت بالغة الجمال، وشعرت فاسيليسا بطعنة الألم. عرفها قولوديا:

- فارقارا الممرضة، زوجتي فاسيليسا ديميتيتشنا.

تصافحت المرأتان وحدثت كل منهما الأخرى محاولة قراءة أفكارها.

قال فلاديمير:

- هيا يا فاسيا، اخلعي معطفك. أنت السيدة هنا الآن. انظري كيف أعيش هنا ببجوحه. أليس أفضل من حجرتك الجحر. هيا، هاتي معطفك. إنه بليل، سوف أعلقه بجوار المدفأة.

بقيت الممرضة حيث هي. قالت أخيراً:

- حسناً يا فلاديمير اقانوفيتش، علينا أن نحل الأمور غداً. لن أتدخل في سعادة حياتك العائلية الآن.

صافحت فاسيا وفلاديمير وخرجت فصحبها الرجل الذي جاء مع فاسيا. ثم رفع فلاديمير فاسيا بذراعيه وطاف بها في الحجره وراح يضمها ويقبلها. كان مبتهجاً لرؤيتها. خف توتر فاسيا وقد شعرت بالخجل والندم من ربيتها. ولكنها عجزت عن أن تمسك نفسها بين القبلة والقبلة فقالت:

- من هي هذه الممرضة؟

وطرحت مؤخرة شعرها إلى الخلف حتى يسعها التحديق إلى عيني فلاديمير.

- المرضة؟ أوه، لقد جاءت لنتحدث حول إرسال المؤن للمستشفى . علينا أن نسارع في عملية التسليم، لكن ثمة تأخير في كل مكان. صحيح إنني لست مسؤولاً عن هذه العملية، لكنهم يعتمدون عليّ، حتى في أبسط التفاصيل يهرعون إليّ.

ثم شرع يحدثها عن قضيته. أنزل قاسيا وقصد معها غرفة النوم، ومرة أخرى دهمها ذلك القلق المؤلم، كان السرير قد سُوي بسرعة، والأغطية مكومة على الفراش على عجل. رمقت فلاديمير بنظرها، كان يروح ويجيء في الغرفة ويحدثها عن مشكلته واضعاً يده وراء ظهره - كم كانت تحب عاداته هذه - أنبأها كيف بدأت القضية وكيف تطورت. تجاهلت قاسيا قلقها الذاتي وأصغت له وشعرت بالألم له. كانت القضية قائمة على الحسد والتهم المضادة.

حبيبها فولوديا صادق شريف وهي تعرف ذلك.

استخرجت جوربين ناشفين من حقيبتها، لكنها لم تكن تملك حذاء آخر. لاحظ فلاديمير ذلك فعلق:

- انظر إلى هذه المرأة، إنها لا تملك حتى حذاء احتياطياً. سوف اشترى لك حذاء من الجلد الجيد، سوف يصنع الإسكافي حذاء لحبيبتى. دعيني أجردك منهما. كم هما بليين.

نزع الحذائين ورمى جوربيها على الأرض، وأخذ قدمي قاسيا الباردتين بين يديه الدافئتين.

قالت ضاحكة:

- حبيبي فولودكا، كم أنت ظريف.

شعرت بالفرح . إنه مجبها ، وهذا هو المهم .

احتسبا الشاي وهما يبحثان في قضية فلاديمير . اعترف لها بصراحة عن المرات التي كان فيها متغطرساً أو فقد أعصابه وخرج عن طوره ولم ينفذ التعليمات وكيف أنه كان يصر أحياناً أن يبتكر طريقاً خاصاً به في حل الأمور وتنفيذها وكيف أنه كان يرفض الأوامر أحياناً أخرى . انبأها كيف أنه ارتكب خطأ التورط مع مختلف الخداعيين في العمل ، أما بالنسبة لتهمة الاختلاس فقد سألته قاسيا ، إنها لا تصدق أنه قادر على القيام بمثل هذا العمل ؟ وقف أمامها أنفاسه تتلاحق والغضب يستولي عليه .

- كيف يمكنك مجرد الشك في ، أنت من بين الناس جميعاً يا قاسيا؟

- الأمر ليس كذلك يا فولوديا ، صدقني . كل ما هناك أنني قلقة نتيجة وضع حساباتك . لا بد وأنهم يحققون فيها بدقة الآن .

- ليس ثمة حاجة لقلقك على وضع حساباتي . الذين خططوا وأعدوا لهذه التهمة لن يجدوا فيها خللاً . لقد درست المحاسبة وأنا أعرف منهم بها .

ارتاحت قاسيليسا وتنفست الصعداء . ما عليها سوء مقابلة رفاقه والحديث إليهم وشرح حقائق القضية لهم .

قال فولوديا :

- أنت متقدة الذكاء يا حبيبي . الحمد لله أنك جئت . ما كنت أتوقع مجيئك . قلت لنفسي أن ليس لديك متسع من الوقت لحبيبيك فولودكا .

- ولكن يا حبيبي ليتك تعرف . لم تتوفر لدي دقيقة راحة حين كنت بعيدة عنك . أنت دائماً في بالي ، وأقلق خوفاً من أن يقع لك مكروه .

قبلها وقال :

- قاسيا أنت ملاكي . لعلي لست جديراً بك ، لكنني لا أحب إلآك . وهذا الأهم .

دهشت قاسيا إذ رأته متوتراً قلقاً. ولم تفهم ما الذي يقوله بالضبط.  
آن الأوان للجوء إلى الفراش. أخذت قاسيليسا ترتب السرير والأغطية.  
فجأة جمدت في مكانها: كان ثمة بقعة دماء على الغطاء ومنديل صبحي  
نسائي مخرج بالدماء.

صرخت:

- قولوديا، ما هذا؟ أخبرني قولوديا.

- لعن الله مدبرة المنزل، لقد لطخت السرير.

رمى بالمنديل إلى الأرض.

- فلاديمير.

صاحت قاسيا وعيناها تتسعان وتقولان كلاماً أبلغ من اللغة. رنا  
فلاديمير إليهما ولاذ بالصمت.

- قولوديا، أرجوك قل لي ما الذي يجري هنا.

تداعى قولوديا على السرير وهو يلوي يديه.

- لقد دُمر كل شيء الآن تماماً. لكنني أقسم لك يا قاسيا، أنت المرأة التي  
أحب.

- كيف تفعل ذلك لنا؟ كيف؟

- قاسيا، إنني شاب. وكنت وحيداً طوال عدة أشهر. إنهن يداعبنني.  
لكنني أبغضهن. لسن سوى عاهرات.

مد يديه نحوها. الدموع تنهمر على وجنتيه. وتنسكب على يديها.

- أرجوك يا قاسيا، حاولي أن تفهمي، وإلا فقد أنتهيت. حياتي عسيرة.  
أرجوك. اشفقي عليّ.

تماماً كما فعل قبل سنوات في اجتماع السوفييات. مالت قاسيا نحوه

وقبلت رأسه، ومرة أخرى خفق قلبها بالحب والشفقة على هذا الرجل الذي يوارى في قلبه طفلاً. إذا لم تفهمه هي وتشفق فمن يفعل؟ إنه محاط بالأعداء المتأهبين لرميه بالحجارة. صحيح أنه جرح مشاعرها بقسوة، لكن هل يعني هذا أن تتخلي عنه في هذه اللحظة الحرجة. لا، ليس بوسعها. إنه بحاجة ماسة إلى حمايتها، كأم، من خطوب الحياة. فإن هي تخلت عنه لأنه أهانها إهانة شخصية فذلك يعني أن حبهما كان سدى وهباء. كانت تفكر وهي تميل عليه تمسد شعره. دقات ملحمة متصلة على الباب. سرعان ما أدركا مغزاها. تعانقا. على عجل وتبادلا القبيل وقصدا الصالة.

لقد انتهت التحقيقات الأولية. وتقرر اعتقال فلاديمير. ماتت الأرض تحت قدمي قاسيا، لكن فلاديمير تصرف بهدوء، لملم أشياءه، وأخبر قاسيا كيف تتصرف، فأرشدها إلى موقع الوثائق التي يحتاجها للدفاع عن نفسه. ثم ذهب معهم..

لن تنسى قاسيا تلك الليلة أبداً، رغم مرور سنوات عديدة على تلك الحادثة. لم تعرف في حياتها كارثة مثل هذه. كان قلبها يتمزق بين حزينين هائلين: الحزن القديم للمرأة التي خانها صديق ورفيق تحبه. حزن للبغض الإنساني. حزن لانتفاء العدالة.

بعد أن قادوا فلاديمير، هرعت قاسيا تدور في غرفة النوم كامرأة مخبولة، كل ما كان بوسعها التفكير فيه هو أن فلاديمير قد ضاع وقبل وعانق امرأة أخرى في هذه الغرفة بالذات وهذا السرير. امرأة جميلة بشفتين مكتنزتين وصدر مكتمل النمو. ربما ذهب إلى حدود حب هذه المرأة. نعم، لعله كذب عليها حتى لا تحز الحقيقة في نفسها.

قاسيليسا تنشد الحقيقة. لماذا انتقوا هذا اليوم بالذات ليأخذوه منها؟ كان بوسعها أن تعرف كل شيء منه لو كان هنا ليجيب على أسئلتها لو ظل هنا لطيب خاطرها وواساها وأنقذها من الكآبة الممزقة.

بعد أن نال منها الحزن والألم دهمها غضب مفاجيء صبت جامه عليه، كيف تجرأ؟ ما كان ليضاجع امرأة أخرى لو أحبها حباً حقيقياً. وإذا كان لا يحبها فلماذا لا يقول ذلك مباشرة بدل اللف والدوران ودفعها نحو الجنون بأكاذيبه. دارت في الغرفة كالعاصفة وقد دهمها الرعب، ولم تنقذها سوى فكرة جديدة ألت بخاطرها فجأة بوضوح مؤلم: ماذا لو أقيم الدليل على قضيته؟ ماذا لو كان الاتهام حقيقياً؟ ماذا لو كان متورطاً فعلاً؟

تبدد شعورها بالغيرة والغضب واختفى وجه الممرضة ذات الشفتين الحمراوين المكتنزتين من بالها، ولم يبق سوى شعورها بالقلق على فلاديمير ممزوج بإحساس بالخجل منه. لقد أهين أمام الناس واعتقله رفاقه، فأى غضب غضبها مقارنة بهذا الغضب الذي صب على رأس الرجل الذي تحب. غمرها حزن جديد، فقد شعرت أنه حتى الثورة تفتقد الحق وتفقر إلى العدالة.

تبدد الإرهاق، وشعرت بأن لا علاقة لها بجسدها فكأنه ليس ملكها. لم يتبق سوى جرح مؤلم سببته مخالب أفكارها المعذبة. تلك الليلة ظلت ساهدة لا يطرق النوم لها جفن. وحين بزغ الفجر قر قرارها الحاسم على الدفاع عن فلاديمير، وإنقاذه من الهوان العلني. سوف تُثبت للعالم كله أن زوجها رجل شريف. وأنه تعرض للظلم والإهانة والتهم الفضائحية.

في ذلك الصباح الباكر أقبل جندي من الجيش الأحمر حاملاً رسالة من فلاديمير.

حبيبتي وصديقتي العزيزة فاسيا، ما عدت أهتم لما سيحل بي ولا كيفية تطور القضية. ثمة فكرة واحدة تلم بخاطري وتدفعني إلى الجنون - أن أفقدك. ليس بوسعي أن أحيأ دونك. إن توقف حبك لي وأختفى فلا تدافعي عني. إذ عندها لن أهتم لو أطلقوا علي النار.

المخلص لك قولوديا.

حاشية: أحبك أنت ولا أحب إلاك. قد لا تصدق ذلك، لكنني أقسم بذلك حتى لو كنت إزاء الموت.

حاشية أخرى: لم أعمد أبداً إلى استثمار ماضيك سلاحاً ضدك، فأرجو أن تفهميني الآن وتسامحيني. أنت ملاذي جسداً وروحاً.

قرأت فاسيا الرسالة. ثم قرأتها مرة أخرى وأخذ شعور بالراحة يتسلل إليها. إنه على حق طبعاً. إذ أنه لم يلمها يوماً لأنها ليست عذراء منذ عاشا معاً. ثم أنه رجل مثل الرجال، كيف يمكنه رد امرأة ساقطة تداعبه وتتحرش به؛ فهي لا تتوقع منه أن يزنر نفسه بحزام العفة. قرأت الرسالة للمرة الثالثة، قبلتها، طوتها ثم دستها في حقيبتها.

في الأيام التالية كانت تندفع كأنما دهمتها نوبة حيوية عارمة، ولكن في كل خطوة كانت تصطدم بالبيروقراطية واللامبالاة حتى إنها شعرت أحياناً بالخيبة حد الاستسلام. لكنها لا تستسلم، فهي تستجمع شجاعته ثم تنديف مرة أخرى متوسلة إنقاذ فولوديا. ما كانت على استعداد للإذعان لكل هذه الأكاذيب والمعلومات المضللة فينهب المتأمرون حبيها.

ثم أحرزت نصراً مهماً. إذ أن القائد توربوركوف نفسه قد عزم على أن يحقق في القضية بنفسه. وبعد أن راجع القضية بدقة قرر أن تهمل لأن الدلائل القاطعة غير متوفرة. وبدلاً عنه اعتقل رجلين يدعيان: سفريدوف ومالتشينكو.

لكن في صباح اليوم التالي أصيبت فاسيا بمرض التيفوئيد. وما إن حل المساء حتى باتت عاجزة عن تمييز الوجوه حتى إنها لم تتعرف إلى فولوديا الذي عاد لتوه. فيما بعد كانت تتذكر مرضها كابوساً خانقاً. في المساء فتحت عينها وتطلعت حولها فأبصرت غرفة غريبة وطاولة انتشرت عليها وممرضة تجلس إلى سريرها، امرأة عجوز بوجه صارم. حدقت فاسيا إليها وانقبض قلبها لرؤية الممرضة وثار غضبها لرؤية منديلها الأبيض. ماذا

تفعل هنا؟

- هل أنت عطشانة؟

سألته الممرضة . ومالت نحوها تمد كوباً من الماء . شربت قاسيا بنهم ثم فقدت وعيها مرة أخرى . في غيبوبتها تلك تخيلت أن فولوديا يميل نحوها، يرتب الوسائد . استفاقت وكانت بين الغفلة والصحو . ثم فقدت وعيها مرة أخرى . وهذه المرة حلمت - أم تراها كانت ترى الحقيقة؟ بطيفين يعبران في غرفتها كطائرين ، لا ليسا طيفين بل نسوة، لكن نسوة مزيفات . . واحدة بيضاء وأخرى رمادية، وراحتا تجولان في الغرفة بحركة بدت لها راقصة، ثم مصارعة . أدركت قاسيا أن هذين الشكلين يرمزان إلى الحياة والموت . وإنما أقبلا ليقنتلا عليها . دهمها الرعب . همت بإرسال صيحة مرتفعة . لكن صوتها اختنق وبدا لها أنها فقدته . فتضاعف رعبها . وتداركت خفقات قلبها حتى خيل لها أنه سينفجر .

ثم، رات . . . . . تات! أصوات إطلاق نار في الشارع . تمكنت من فتح عينيها . المصباح الليلي يحترق ويرسل دخاناً باهتاً . كانت وحيدة والوقت منتصف الليل . سمعت أصوات فئران . وبدا وكأنها تتلململ بين ألواح الخشب الأرضي ، وتقترب أكثر فأكثر من سريرها . استولى الرعب على قاسيا ظنت أن الفئران سوف تثب بعد لحظة إلى السرير فتتكاثر فوقها . وأن قوتها المستنزفة لن تمكنها من طرد الفئران .

هتفت بصوت واهن :

- فولوديا، فولوديا .

وسرعان ما كان فولوديا إلى جانبها يميل عليها ويرنو إلى عينيها بقلق :

- قاسيا يا حبيبي، ما الأمر؟ ما الخطب يا حبيبي؟

- فولوديا، أهذا أنت؟ ألا تزال على قيد الحياة؟ لست أتخيل أوهاماً؟

مدت ذراعها الواهنة لتلمس رأسه .

- إنني حي أرزق يا حبيبتى . إنني هنا بجوارك . لماذا كنت تصرخين؟ ماذا حدث لحبيبتى؟ هل رأيت كابوساً؟ أتحسين بالحمى؟ قبل يديها برفق ومرر يده على رأسها المبتل بالعرق .

- لا ليس كابوساً ولا حلماً، إنها الفئران هناك .

قالت بصوت خائر وتبسمت ابتسامة واهنة .

ضحك فولوديا وقال :

- فئران! يا لبطولتك يا فاسيا، ها أنت تخافين الآن من الفئران . لقد أخبرت الممرضة أن لا تتركك وحيدة . فعلت حسناً بمجيئي إلى هنا من فوري .

ودّت فاسيا لو تسأله أين كان، لكن الإعياء سلبها قدرتها على الكلام . وكان هذا الإحساس بالإنهاك ممتعاً، مريحاً، والأفضل من هذا وذاك أن حبيبها فلاديمير يجلس إلى جانبها . أخذت يده في يدها بضعف وشدت عليها .

همست متبسمة :

- إذن أنت حي .

ضحك فولوديا وقبل رأسها برفق :

- طبعاً أنا حي .

فتحت فاسيا عينها :

- شعري! ما عاد لي شعر . هل قصوه؟

- لا تقلقي بشأنه . فاسيا حبيبتى تبدو مثل صبي الآن . وهذا ما كانته دائماً في حقيقة الأمر .

تبسمت فاسيا . شعرت بالسعادة تغمرها . السعادة التي لم تعهدها منذ كانت طفلة . ثم غفت قليلاً . بقي فولوديا معها، جالساً إلى جانبها ليتأكد

من نومها نوماً عميقاً . وكانت تنام ثم تستيقظ على التوالي .

ربت عليها قائلاً :

- نامي الآن يا فاسيا ، ليس ما يدعوك إلى اليقظة . حين تتحسنين سوف يكون لك الوقت الكافي للنظر إليّ فيرتاح قلبك . إن لم تنامي الآن فلن تتحسني . وسوف يلومني الطبيب لأنني كنت ممرضاً سيئاً .

- لن تتركني؟

- لماذا أتركك؟ سوف أنام هنا بقربك على الأرض كل ليلة . أشعر براحة ما دمت أراك . غداً سوف أعود إلى العمل .

- العمل؟ في دائرة المؤن ثانية؟

- نعم . كل شيء على ما يرام الآن . وقد اعتقل المخادعون . يا حبيبي فاسوك لا تتكلمي . الكلام يضر بصحتك . لا تتكلمي وإلا ذهبت في هذه اللحظة .

شبكت أصابعها الواهنة بقوة بأصابعه ثم أغمضت عينيها مذعنة . وأقبل النوم ليغمرها برقة حلوة وفولوديا إلى جانبها قلقاً مشفقاً يحرص عليها .

غمغمت :

- حبيبي . .

- نامي يا حبيبي . .

- سأنام لكنني أحبك .

مال فولوديا نحوها وقبل عينيها برقة . وكادت فاسيا تبكي فرحاً . وتمنت لو تموت الآن في ذروة سعادتها . إذ إن الحياة لن تضمن لها مثل هذه السعادة مرة أخرى .

والآن ، وبينما هي ترقد على مضطجعها في القطار ، شعرت بأن

استحضار هذه الذكريات والخواطر يغمر قلبها بالرعب. هل فقدت الحياة تلك النكهة؟ ترى... ألن تعود تلك السعادة فعلاً؟ ماذا عن الحاضر؟ ألن تجد الآن ذات الفرح والسعادة؟ إنها على طريق رؤية حبيبها فولوديتشكا. لقد أرسل في طلبها، إنه ينتظرها، بل ولقد أرسل زميلاً له ليتأكد من سفرها إليه. ثم إنه أرسل لها المال لتشتري تذكرة القطار والثوب - هذا كله يعني أنه لا بد يحبها. رغبت قاسيا رغبة يائسة في أن تصدق أنه بوسعها العيش معاً مرة أخرى بسعادة. لكن في مكان ما في أعماق قلبها كان هذا الشك المزعج. إنها تعرف أن شيئاً ما قد تغير. ومرة أخرى ضاعت في خضم أفكارها وذكرياتهما.

كان انفصالهما ثانية مفاجئاً غير متوقع. انتقلت الجبهة فدعي فلاديمير إلى مغادرة موقعه. كان جسد قاسيا مهدوداً ضعيفاً بالتيفوئيد حتى أنها عجزت عن تحريك ساقيها. فودعها بحبة وودعته، دون أن يذكرها حادثة الممرضة. أدركت قاسيا أن تلك المرأة ما كانت تعني لفلوديا الكثير. كانت بمثابة «كأس من القودكا يحتسيه وينساه». على حد تعبيره وما أن تعافت حتى عادت من فورها إلى غرفتها في البلدة، وعاودت مزاوله عملها.

كل شيء في العمل كان كما في السابق، إلا أن شيئاً ما ظل ينهش بال قاسيا: كان قلبها غارقاً في الغضب والشك في علاقة فلوديا بتلك الممرضة ذات الشفتين المكتنزتين. رغم ذلك، كانت تحب فلوديا حباً عميقاً، وبدا وكأن مرضها ومشاركته لها قلقها قد قوى من الرابط الذي يربطهما. صحيح أنها كانا يجبان بعضهما من قبل إلا أنها لم يتعرفا على هذا الحب المتبادل مثل هذه المرة وبهذه الطريقة. لقد باتا قريبين عاطفياً بعد أن وحدتهما التعاسة. لكن هذا الحب لم يستحضر لقاسيا الحب العارم الأعمى الذي كان يزودها به حبها السابق. صحيح أنه أكثر عمقاً، ولعله أكثر استقراراً وطمأنينة أيضاً، إلا أن الشكوك كانت تنال منه وتنتشر بظلالها عليه.

ولكن هذا ليس أوان الحب، إنها أيام الحرب الأهلية، والتهديدات من كل حذب وصوب، محادثات، انفصال. الجميع يجهدون أنفسهم بالعمل. وكان على فاسيليسا أن تعالج مشكلة اللاجئين. إذ أنها عينت في لجنة الإسكان السوفيتية. وفي تلك الأثناء توصلت إلى فكرتها في إنشاء المنزل الجماعي. كانت مصرة على إدارته حسب ما ترى وبمساعدة وتبرعات السوفييت.

استنفذ هذا المشروع فاسيا كلياً. وطوال أشهر عديدة كان بمثابة حجر الزاوية في حياتها. رغم أن ذكرياتها مع فولوديا لم تبارح بالها أبداً، إلا أنها ما كانت تتمتع بوقت كاف للشعور بالتعب. فضلاً عن أنه يعمل أيضاً. إذ أن أعماله بدت وكأنها ما عادت معقدة كالسابق، وكانت واثقة من أنه بدأ يعتمد على نفسه ويتجنب الشقاق ويتكيف مع الإدارة المركزية والمديرين بصورة أفضل.

وفجأة، انبثق أمامها فلاديمير من العدم. دلف إلى غرفتها ذات يوم على نحو مباغت. اتضح لها أنه أصيب بالرصاص أثناء تراجع. لم يكن الجرح بليغاً لكنه كان يتطلب الراحة. لقد منح إجازة مرضية وقيل له أن يذهب إلى زوجته كي يجد مكاناً يأوي إليه.

غمر الفرح فاسيا، إلا إنها عجزت عن مغالبة شعورها بالقلق. لو أنه أتى في وقت آخر. فقد عملت بجهد طوال الشهرين الماضيين وبقي لها شهر آخر على الأقل من العمل المتواصل. لديها الكثير من المهام والكثير من الالتزامات. فثمة مؤتمر سيعقد قريباً، ثم عليها أن تشارك في تنظيم دائرة الإسكان فضلاً عن نشاطاتها من أجل المنزل الجماعي - وبكلمة أخرى ثمة مهام لا نهاية لها ولا حصر. وكأنما يتوقع الناس منها أن تكون في كل مكان دفعة واحدة وفي آن واحد. وها هو فولوديا يظهر فجأة.. . جزيماً. عليها أن تمنحه جزءاً من وقت العمل.

وعلى الرغم من أن بهجة فاسيا بمجيئه تخللتها غيوم القلق هذه

وعكرتها فإن فلاديمير كان جذلاً كطفل صغير. لقد أحضر معه الحذاء الذي وعدنا بإحضاره قال بلهفة: «هيا، جربيهما يا قاسيا. أريد أن أرى كيف ستبدو قدماك الصغيرتان في حذائيهما الجديدين».

ما كانت ترغب في جرح مشاعره، رغم افتقارها إلى الوقت - فثمة اجتماع للجنة الإسكان على وشك أن يبدأ - جربت الحذائين، وفجأة شعرت وكأنها ترى قدميها لأول مرة، فعلاً كانتا صغيرتين ضئيلتين. رنت إلى فلاديمير بعينين مليئتين بالامتنان.

قال فلاديمير بفرح:

- كنت أرغب لو أرفعك بذراعي لو لم تكن مصابة. أوه، أحب قدميك الصغيرتين وعينيك البنيتين.

وهكذا واصل حديثه ومداعباته وقد أسكره فرح رؤيتها مرة أخرى. إلا أن قاسيا كانت تصغي له بأذن واحدة فقط، إذ كان ينبغي عليها أن تكون في الاجتماع منذ فترة طويلة. ظلت ترنو إلى ساعة المنبه على الخزانة ذات الأدراج.

الدقائق تدق وتم وهم ينتظرونها بفارغ الصبر. بدأت تشعر بالغضب لماذا تجعل الناس ينتظرونها؟ ليس من اللائق أن يتأخر رئيس اللجنة هكذا.

عند المساء عادت قاسيا من الاجتماع. شعرت بالإعياء والاضطراب، إذ تخلل الاجتماع عدد من الحوادث المزعجة، ولكن ما إن بدأت بارتقاء الدرج حتى تبددت مخاوفها.

فكرت الحمد لله على وجود فلاديمير هنا. بوسعي أن أخبره بكل شيء وأن أستشيريه.

ولكن حين دلفت إلى الغرفة لم تجد فلاديمير.

أين ذهب؟ قبعته ومعطفه معلقين على المشجب. سيعود بسرعة على الأغلب. أخذت تنظيف الغرفة وتعد الشاي على المدفأة. ولكن فولوديا لم يأت. أين ذهب يا ترى؟ سعت إلى الممر، لكنه لم يكن هناك. عادت إلى الداخل وانتظرت، بينما ازداد قلقها. أين ذهب؟

سعت مرة أخرى إلى الممر. هناك رأت فلاديمير خارجاً من شقة الـ «فيودوسيف». أي خاطر دفع فلاديمير لزيارتهم؟ لقد أخبرته عن سيئاتهم.

استقبلها قائلاً:

- إذن عدت أخيراً يا قاسيا. كان السأم قد نال مني، من حسن الحظ أنني رأيت فيودوسيف فدعاني إلى شقته.

قاطعته قاسيا:

- ولكن لا ينبغي أن تنشئ علاقة مع هؤلاء القوم، أنت تعلم ذلك.

- وهل تتوقعين مني أن أبقى في غرفتك الصغيرة هذه يقتلني الملل؟ لو لم تتركيني وحيداً طيلة النهار لما اضطررت لهذه الزيارة.

- ولكن، لا شك في أنك ترى كم أنا غارقة في العمل، كنت أتمنى لو أعود باكراً، لكن ذلك كان ضرباً من المستحيل.

- طبعاً، عملك. ولكن ماذا عني أنا يا قاسيا؟ ألم أجلس أنا إلى جوارك طوال ليال عديدة حين كنت مصابة بالتيفوئيد؟ ألم أنتهز كل دقيقة لأتي وأطمئن عليك؟ أنا المريض الآن يا قاسيا، لا تزال الحمى تهد جسدي.

حزت نبرة النزق في صوته مشاعرها. وكان هو يمسك في نفسه عتياً لأنها تركته وحيداً طوال النهار. ولكن ماذا تستطيع أن تفعل خاصة وأن المؤتمر على وشك أن يعقد، وماذا عن تنظيم الدائرة الذي يتطلب جهداً متواصلاً؟

قال فلاديمير:

- ثمة شعور يراودني بأنك لست سعيدة لرؤياي . ما كنت أحسب أنك ستصرفين هكذا حين نتقابل .

- كيف يسعك قول ذلك . أنا، لست سعيدة؟ ولكن أنا . . أوه يا حبيبي الغالي .

طوقت عنقه بذراعيها فكادت تقلب المدفأة . طيب خاطرها قائلاً:

- حسبت أنك ما عدت تحبيني . بل إنني حسبت لوهلة أنك قد تكوني على علاقة مع رجل آخر . تلوحين لي باردة المشاعر، تلوحين مختلففة، حتى عينيك نائيتين وفاترتين .

- ولكن، إنني تعبة يا فولوديا . ليس لدي الطاقة الكافية للتفرغ لكل شيء .

ضمّمها فولوديا وقبّلها ثم قال:

- لا بأس، أيتها الصغيرة المتوحشة . لا بأس .

وعاشا معاً «محبوسين» في الغرفة - العلية الصغيرة حسب تعبير فلاديمير . في البداية جرى كل شيء على ما يرام . ورغم صعوبة تقسيم وقت قاسيا بين العمل والزوج، فقد فعلت ذلك عن طيب خاطر . الآن أصبح هناك من بوسعها أن تحدّثه عن خططها الجديدة وتعترف له بأخطائها .

رغم أن مسألة الوظيفة البيتية كانت مزعجة . ففي الجهة اعتاد فلاديمير أن يتناول الطعام حسب الأصول . ولم تكن قاسيا بكل تأكيد ربة بيت من السطراز الأول . فهي تكتفي بوجبة مقتصدة على الطريقة السوفيتية، مع شاي وقطعة من السكر . في الأيام القليلة الأولى أكلا من المؤن التي جلبها فلاديمير معه .

قال :

- لدي مواد أساسية : طحين، سكر وبعض النقانق، رغم أنني أعرف أن لا مانع لديك من أن تأكلي مثل العصفور وأنت لا تخزني الطعام أبداً .

- ولكن حين نفذت مؤن قولوديا اضطررت إلى تناول الطعام على الطريقة السوفيتية التي كان يبغضها .

غمغم مرة باشمئزاز :

- ما هذا الدُخن الذي تطعميني إياه باستمرار وكأنني دجاجة؟

- ولكن ليس من بديل . إنني أعيش على حصتي من المؤن .

- هراء . إن الزوجين فيودوسيف يحصلان على حصص أكبر من حصتك . لقد دعوني أمس إلى العشاء، وكان عشاء جيداً، مع بطاطا مقلية وسردين وبصل . .

- لكن السيدة فيودوسيفا تملك من الوقت ما يتيح لها أن تطبخ وتتسوق . أما أنا فلدي أعمال شاقة تستنفذني . من العسير علي أن أتدبر أمري والحالة كما هي فما بالك إن أنا طبخت وتسوقت .

- مشكلتك أنك تتحملين الكثير من الأعباء، انظري النتيجة، ما كل هذه الضجة حول المنزل المشترك . الزوجان فيودوسيف قالا . . قاطعته فاسيا بغضب بلغ ذروته :

- أعرف ماذا يقول الزوجان فيودوسيف، شكراً . واسمع، ليس من قبيل الولاء إلي أن تستمع إلي نقدهم إياي .

لقد حزت علاقة فلاديمير بأعدائها في نفسها . وفقد كلاهما أعصابه وراحا يتبادلان الكلمات القارصة ولكن فاسيا بدأت تقلق من كونها لا ترعى شؤون زوجها بشكل صحيح . فهو قد أتى إليها جريحاً مريضاً، وكل ما تستطيع تقديمه له هو طعام سوفيتي . لقد كان هو أكثر اهتماماً

بحاجاتها، ألم يجلب لها الحذائين. أحياناً كان فلاديمير يرفض تناول الطعام مما يجعلها فريسة للقلق الشديد. فبعد أن يتناول شيئاً من الشريد يدفع الصحن جانباً ويقول:

- أفضل الجوع على ازدراد طعامك السوفيتي. إني لا أرغب فيه. لنعد الشاي ونطلب من أحدهم أن يحضر لنا بعض الخبز. سأرسل لك طحيناً من الجبهة فتسدين به ما استقرضت من خبز.

بدا واضحاً أنها عاجزان عن العيش سوياً بهذه الطريقة فترة أطول. في أحد الأيام، وبينما هي في طريقها إلى أحد الاجتماعات لاحظت أن أفكارها حول القرارات والسياسات تختلط في بالها باهتماماتها بدُخن الشريد. ماذا بوسعها أن تعد لفلاديمير من الطعام بحق السماء؟ لو كان لديها وقتاً كافياً لتدبرت الأمر، إنها تحتاج إلى وقت كافٍ لتفكر في هذه المشكلة وتستنتج لها حلاً.

وفي طريقها إلى الاجتماع التقت بقريبتها. وفرحت فاسيليسا لأنها قابلت الشخص المناسب في اللحظة المناسبة. فلقريبتها ابنة تدعى ستيشا وهي فتاة شابة تركت المدرسة منذ وقت غير بعيد وعادت لتقيم مع والديها وتساعد أمها في تدبير أمور البيت. طلبت فاسيليسا من الأم أن ترسل ابنتها لتساعد في الشؤون المنزلية وبالمقابل ستزود فاسيليسا الصبية بنصف حصتها من المؤن. وبعد موافقة قريبتها سارعت فاسيليسا إلى اجتماعها وقد شعرت بالراحة. أخيراً سيتناول فلاديمير غداً وجبة حقيقية.

وسرعان ما أثبتت ستيشا أنها سريعة البديهة، وأمست صديقة لفلوديا. فمعاً كانا يدبران شؤون المنزل ويتقايضان مواد في حصتهم من المؤن، أو يحضرون أشياء من التعاونية بواسطة أحد أصدقاء فلوديا. ورضيت فاسيا. ولكن رغم أن فلوديا توقف عن إبداء استيائه من الطعام، إلا أنه استمر في إبداء امتعاضه منها.

قال :

- أنت تفكرين في كل شيء إلاي . تتجاهليني كأني غير موجود في هذه الحياة .

حزت هذه الانتقادات في أعماق نفس فاسيا . كانت ممزقة بين عملها وفولوديا ، ولا شك في أن سوء طالعها شاء له أن يأتي مجيئه في هذه الفترة بالذات . حاولت أن تفسر هذا لفلاديمير ، إلا أنه بدا غير مدرك .

كان يقطب ويقول :

- بت بارهه يا فاسيا ، بل لقد نسيت كيف تمارسين الحب .

يتضرج وجهها بالحنج وتقول :

- ولكنني منهكة يا فولوديا ، لقد استنفذت طاقتي .

ولكن فولوديا واصل عبوسه ، واضطرت فاسيا إلى الاعتراف بأن ما تفعله له ليس كافياً . فزوجها قد عاد من الجبهة مشتاقاً بعد فراق طال وإذا بها تمب إلى عملها كل يوم منذ الصباح الباكر وتركه وحيداً . وحين تعود إلى البيت في المساء فإنها تعود متعبة يذكها الإرهاق دكاً حتى أن قدميها لا تكادان تحملانها . فتسعى من فورها إلى السرير تتداعى عليه وتذهب بعيداً في النوم ، فكيف تمارس الحب؟ ذات مرة حدث شيء رهيب : لقد نامت بينما فولوديا يمارس الحب معها . في اليوم التالي وبخها فلاديمير وأنبأها بما جرى . جرى .

- أسألك ، أين النشوة في ممارسة الحب مع جثة؟

كان يداعبها . لكن من الواضح أنه متألم . شعرت فاسيا بالذنب وبالتعاسة . ليس من المستغرب إذاً أن يشعر أنها ما عادت تحبه . ولكن من أين تستمد القوة اللازمة للقيام بكل شيء؟

ذات يوم عادت فاسيا في وقت مبكر فألفت فلاديمير يعد عشاء وحيداً .

سألت :

- ماذا حصل؟ أين ستيشا؟

- قريبتك ستيشا هذه فتاة فاجرة . لقد طردتها، وإذا رأيت وجهها هنا مرة أخرى فسأقذف بها من النافذة .

- لماذا؟ ماذا حصل؟ ماذا فعلت؟

- اسمعي، صدقيني، إنها فتاة ساقطة، ما كنت أطردها لو لم تفعل شيئاً . ولكنني أخشى أن تستائي إن أخبرتك . إنها فتاة رخيصة محرومة . ولا أريدها أن تلوث البيت .

أدركت فاسيا أنه من الأفضل أن لا ترميه بالأسئلة . وشعرت أن ستيشا أغضبت فلاديمير . لعلها سرقت شيئاً، فالسرقة باتت منتشرة هذه الأيام . وفلاديمير يحب مقتنياته . صحيح أنه كريم ويمنح أصدقاءه الكثير، إلا أنه لا يزال يتمتع بغريزة الملكية . فإذا ما اقترض منه شخص شيئاً ثارت ثائرتة .

سألته :

- وماذا سنفعل الآن بشأن تدبير المنزل .

- ليذهب تدبير المنزل إلى الجحيم . سوف أعد الطعام وأزور أصدقائي . سأتدبر الأمر .

بعد ذلك بفترة قصيرة جاءت ستيشا لترى فاسيليسا في دائرة الإسكان تسألها حصتها من المؤن .

سألت فاسيا الفتاة :

- ماذا حصل بينك وبين فلاديمير افانوفيتش يا ستيشا؟ إلى ماذا كنت ترمين؟

- زارت ستيشا وعيناها تومضان، ويدها تسوي مشطاً في شعرها :

- ما كنت أرمي إلى أي شيء . حبيك فلاديمير ايثانوفيتش قبض علي فضربته على فكه . هذا ما حصل . لقد بصق دماً كثيراً بعدها . علمته درساً .

- كفي عن هذا الهراء . كان فلاديمير يمازحك .

قالت قاسيا متكلفة الهدوء وقد دار رأسها فجأة .

قالت ستيشا :

- أي مزاح هذا؟ لقد قذف بي إلى السرير . لحسن الحظ إنني قوية . لن أدع أحداً يفعل بي أي شيء .

حاولت قاسيا أن تقنع ستيشا بأنه كان يمازحها، يلعب معها، وأن فلاديمير مغضب منها الآن . إلا أن ستيشا زمت شفيتها بعناد . أي هراء . في أية حال ما علاقة قاسيا . إنها لن تطأ شقة قاسيا بعد اليوم ، أما بالنسبة للمؤمن فيإمكانها أن تحتفظ بها لنفسها .

استولت على قاسيا نوبة كآبة حادة نتيجة هذه الحادثة . ليس لها الحق في توبيخ فولوديا ولا لأن تُجرح بما فعل أليست هي السبب؟ ألم تصبح باردة؟ ألم تجرح مشاعر حبيبها فولوديتشكا؟ لا عجب في أنه بات يشعر أنها لا تحبه .

إلاً أن شيئاً واحداً أزعجها ، وهو أن زوجها قد راود فتاة صغيرة عن نفسها . لقد كانت ستيشا أقرب إلى الطفلة . من حسن الحظ أنها ذات خبرة وذكاء وإلا من يعلم ما الذي قد يحصل . ودهمت الشكوك بال قاسيليسا . هل تفتح فلاديمير في الأمر وتعلمه إنها علمت أم تتجاهل الموضوع كله؟ المشكلة تكمن في أنها اعتبرت نفسها مسؤولة جزئياً .

إلاً أن قاسيا لم تجد فرصة لبحث المسألة مع فلاديمير، إذ تغيرت حياتها كلياً . فلاديمير بدأ يخرج مع أصدقائه من أعضاء التعاونية والزملاء

السابقين . وأحياناً كان يغيب عدة أيام متواصلة عن البيت . وحين تغادر قاسيا البيت في الصباح يكون هو مستغرقاً في نوم عميق . وعندما تعود في المساء تجد البيت مقفراً، فتشعر باليأس، ولا تعرف أتنام أم تعد الشاي وتنتظره . وتعد شيئاً من الطعام، ثم تعد أوراقها لليوم التالي وتصغي منتظرة سماع وقع قدميه في الممر .

في النهاية تتعب من الانتظار، فتطفئ المدفأة (عليها أن تقتصد) وتشغل نفسها مرة أخرى بالأوراق، فتقرأ التقارير وترتب العرائض أحياناً كانت تسمع وقع خطوات متعجلة في الممر، ولكنها ليست خطوات فلاديمير . وفي النهاية تأوي إلى سريرها وحيدة باردة تعيسة، وسرعان ما تغفو وقد هدها التعب . ولكن حتى في أحلامها لم يكن بوسعها أن تتوقف عن الاصغاء للخطوات وانتظار عودة حبيبها إلى البيت .

أحياناً كان يعود مرحاً رائق المزاج، فيوقظها ويضمها ويحكي عن قصصه وأخباره وخططه . وسرعان ما كانت قاسيا تشعر بالطمأنينة والسعادة وتنسى كل قلقها عليه . ولكن في أحيان أخرى كان يعود مخموراً نكد المزاج مهتاجاً يشكو نفسه ويسئء معاملة قاسيا . ويتساءل أي حياة هذه، إنها محشوران في هذه العلية البائسة بلا مسرات ولا سعادة حقيقية وزوجته ليست بالزوجة الحقيقية، ووضعها ليس حتى كوضع من أنجب أطفالاً .

حزت الملاحظة الأخيرة في نفس قاسيا، كانت هي ترغب في الإنجاب لبث السعادة في نفس فلاديمير وحسب . ولكنها اكتشفت أنها عاقر . وكانت النسوة يطبئن خاطرها إذ أنهن لا يتخيلن امرأة عاقر . لكن قاسيا، بلا شك، امرأة عاقر .

بعد ملاحظة فلاديمير قصدت قاسيا إلى طبيب ليعالج عقمها . فتبين للطبيب أن السبب يعود إلى معاناة قاسيا من فقر الدم . وفي سبيل رفع

معنوياتها بعد سماع هذا الخبر قام فلاديمير بدعوتها إلى المسرح . اشترى التذاكر وعادت هي مبكرة حتى يذهبها إلى المسرح . فوجدت فلاديمير مرتدياً أفضل ثيابه ، ويتأمل نفسه في المرآة . بدا وكأنه سيد ارستقراطي حقيقي . فداعبته فاسيا بمحبة ولم تستطع مغالبة شعورها بالاعجاب به .

سألها بقلق :

- وماذا عنك؟ ماذا ستلبسين؟ أرجو أن يكون لديك ثوباً خليقاً بالحفلات .

ضحكت فاسيا . ملابس تليق بالحفلات! لعل ذلك أمر ميسر في أمريكا . إنهم قادرون على تغيير ملابسهم يومياً إذ أنهم لا يفتقرون إلى المال . أما هي فإنها ستكتفي بوضع «بلوزة» نظيفة وحذاءها الجديدين . هذا أفضل ما عندها . عبس فلاديمير في وجهها ورمقها بنظرة مغضبة أثارت أعصابها .

- هل تحسبن أن الناس في المسرح لن ينظروا إلا إلى قدميك . وماذا عن بقية جسمك . إنه يبدو مكسواً بكيس .  
- ولكن لماذا الغضب يا فلاديمير .

- لست غاضباً ، أنت التي سوف تغضبين من نفسك حين تجددين نفسك بين كل أولئك الناس المهمين بهذا اللباس .

سيظن الناس أننا نعيش في السجن أو الدير بسبب تصرفك . لا مسرات ، لا ثياب جميلة ، لا بيت حقيقي ، أنت تسكنين بجحر الأرانب هذا ، ولا تشربين إلا الماء ، ولا تأكلين إلا الحساء المرق ، ولا تلبسين إلا الخرق البالية . . . أي حياة هذه! لقد كنت أعيش أفضل من هذه الحياة حتى حين كنت عاطلاً عن العمل في أميركا .

- لكنك تدرك جيداً أننا لن نبلغ الكمال بين ليلة وضحاها . أنت تعرف وأنا أعرف أن الوضع عسير ، وأن روسيا تعاني من دمار رهيب في هذه المرحلة .

- أتمنى لو تكفي عن الحديث عن الدمار. من الأفضل لك أن تنظري إلى قادتنا الجدد بدلاً من ذلك. لقد تحبط القادة القدامى في الفوضى، ولكن ما إن بدأ القادة الجدد يصلحون الوضع، حتى صرخ الناس: «هل تريدون أن نعود إلى الحياة البورجوازية؟ نريد العودة إلى الأيام البلشفية المبكرة بدلاً من هذا». أنتم لا تعرفون كيف تعيشون، هذه مشكلتكم، ولهذا سنبقى نتخبط في الفوضى. لم أشرك في الثورة لأحيا مثل هذه الحياة.

- ولكن، هل تعتقد أننا قمنا بالثورة من أجل مصلحتنا؟

- من أجل مصلحة من إذن؟

- الجميع.

- بما فيهم البورجوازية؟

- لا طبعاً. من أجل العمال والشغيلة.

- ومن نحن إذن؟ ألسنا العمال والبروليتاريا؟

وواصلنا مشاجرتها بحدة. وأخيراً غادرا المنزل، ومشيا في الشارع فوق وحل الربيع. مشى فلاديمير أمامها صامتاً، وجهدت فاسيا في محاولة محاذاته.

- فلاديمير يا عزيزي، أرجو أن تتباطأ قليلاً، إنني ألهث.

توسلته أخيراً فتباطأ لكنه تأبى الحديث. في المسرح قابل فلاديمير أصحابه، وانضم إليهم في الاستراحة تاركاً فاسيا وحيدة. تمت لو لم تبدد المساء بهذه الطريقة. فهي لا تتمتع، فضلاً عن أنها ستجد عملاً مضاعفاً ينتظرها في اليوم التالي.

بعد هذه الحادثة بفترة قصيرة وحين بات فلاديمير على وشك الرحيل، افتتحت أعمال المؤتمر. حرص فلاديمير على الحضور رغم أنه ليس مندوباً. أثارت مسائل سياسية كثيرة في تلك الفترة ودار حولها نقاشات مطولة،

وحول هذه النقاشات بدأت تتشكل تكتلات جديدة. اتبع فلاديمير خط فاسيا، وانضم إلى مجموعتها بحماسة ومعه أصدقاءه القدامى. ما كانا ينفصلان سواء خلال المؤتمر أو فيما بعد في الأمسيات. كانا يقضيان أوقات الفراغ في وضع الخطب في المنزل. ويجتمع بغض أعضاء هذا التكتل في غرفتها ويتخذون القرارات.

ووجد فلاديمير آلة كاتبة ووافق عن طيب خاطر على القيام بدور «الطابعة». كان هذا الوضع يثير السعادة في القلوب. فالكل يعمل معاً كالأصدقاء، وسط جو من الوحدة الأصيلة بينهم. طبعاً، كانت تقوم بينهم جدالات حادة أحياناً حين يثورون ويفقدون أعصابهم، ثم ينفجرون ضاحكين بلا سبب محدد. كانوا جميعاً يجوبون مثل هذه المواجهة.

جاء ستين اليكسيفيتش أيضاً. جلس هناك، وراحت يده تعبث بلحيته الرمادية، وكان مزيناً مثل تاجر عتيق. وعينه تشملان الجميع بنظرة حنونة كلها محبة. وكانت فاسيليسا تهمس في أذنه طوال الوقت. لقد كان معجباً بها ويحترمها، إذ قال مرة لصديق «إنها تتمتع بعقل جيد» أما مع فلاديمير فقد كان يتصرف بشيء من البرود، مما أثار القلق في نفس فاسيا. فهي لا تفهم السبب ولا تتبينه. وبالمقابل لم يكن فلاديمير نفسه ميالاً إلى اليكسيفيتش.

قال لها فلاديمير مرة:

- صاحبك ستين اليكسيفيتش هذا منافق. إنه ليس منافلاً حقيقياً. فهو من الذين يعملون بعيداً عن الميدان.

في النهاية خسر تكتل فاسيا في المؤتمر، لكنهم تمكنوا من إحراز أصوات تفوق توقعاتهم، وكان ذلك نصراً كافياً بالنسبة لهم.

انتهت مدة إجازة فلاديمير المرضية قبل نهاية المؤتمر، ومرة أخرى شعرت فاسيا أنها تتمزق بين واجبين. بين واجب مساعدة زوجها في

التحضير لرحلة العودة، وبين المؤتمر. إلا أنها تجد هذا التعارض الآن منعشاً. إذ شعرت مرة أخرى أن فلاديمير لم يعد زوجاً وحسب بل ورفيقاً حقيقياً أيضاً. كانت فخورة به، إذ ساعد التكتل مساعدة ثمينة، حتى أصحابها ما كانوا يرغبون في سفره.

وأقبل يوم رحيله.

قال كالساخر:

- إلى اللقاء يا فاسيوك ستضطر عصفورتي الصغيرة إلى البقاء تحت الإفريز وحيدة، ولن تجد من تشكى له مشاكلها. ولكن بالمقابل لن يكون ثمة من يزعجها في عملها أيضاً.

قالت فاسيا وهي تضمه وتقبله على عنقه:

- هل تعتقد حقاً أنك شغلتي عن عملي.

- أنت التي قلت أن زوجك يأخذ الكثير من وقتك. وأنت من تدمر حول تدبير المنزل.

- أرجوك لا تذكرني بذلك. إن الوضع بدونك أكثر صعوبة وقسوة. دفنت رأسها على صدره.

- أنت لست زوجي وحسب، أنت صديقي ولهذا أحبك كثيراً.

تبادلا القبلات برفق وودع كل منهما الآخر. ولكن ما إن عادت فاسيا مسرعة إلى المؤتمر فكرت: «صحيح أنني أحب البقاء معه، إلا أنني أشعر بحرية أكبر حين أكون وحدي. حين أكون مع فولوديا اضطر للتفكير عن اثنين، وأهمل العمل». بوسعها الآن أن تغرق مرة أخرى في العمل. تعمل ثم تستريح. إذ أنها لم تنم جيداً حين كان زوجها معها.

حين عادت إلى المؤتمر سألتها ستيان اليكسيفيتش:

- هل ودعت زوجك؟

- نعم، لقد رحل.

- سوف يكون الوضع أسهل لك الآن. لقد أجهدت نفسك حين كان هنا.

دهشت فاسيا من نفاذ بصيرة اليكسيفيتش. لم تنبس، ترددت في الاعتراف بذلك حتى لنفسها - بدا لها الاعتراف بذلك إهانة لفلاديمير.

استفاقت قاسيليسا ما إن طلع الفجر . القطار سوف يصل في الصباح  
وعليها أن تسوي شعرها وهندامها حتى يُسر فولوديتشكا من مظهرها .  
بدت لها الشهور السبعة التي افترقت فيها عن فلاديمير طويلة أبدية . كانت  
قاسيليسا تشعر بخفة في رأسها مثل الصباح الربيعي .

المرأة الأخرى لا تزال في السرير، تتئاب وتمطى وتتطلع إلى وجهها  
في مرآتها الصغيرة . لكن قاسيا كانت قد اغتسلت وسوت شعرها، ولبست  
ثوبها الجديد . حين رنت إلى مرآة القطار لم تر سوى عينيها المتوهجتين  
تضيئان وجهها كله . بدا وكأن لا شائبة تشوب مظهرها . هذه المرة لن  
يكون في وسع فلاديمير أن يتهمها بأنها ترتدي أسماً .

توقف القطار عند محطة جانبية، وأطلت قاسيا تتفرج . كانت الشمس  
متوقدة ملتبهة رغم الصباح المبكر . تبشير الربيع في الشمال باهتة لا تكاد  
تُحس بينما كل شيء هنا ينفجر مزهراً . وما كانت الأشجار المجللة بعناقيد  
من الزهور البيضاء الشبيهة بالليلك، مألوفة في عيني قاسيا . أوراقها تشبه  
أوراق شجر السمن لكن لونها أكثر رقة . تضوعت برائحة عذبة تنشقتها  
قاسيا عبر النافذة .

سألت قاسيا قاطع التذاكر:

- أي نوع من الأشجار هذه؟ ليس لدينا مثلها في مسقط رأسي .

أجاب :

- إنها آقيا بيضاء .

آقيا بيضاء! ما أجملها . قطف قاطع التذاكر ضمة أزهار وناولها لقاسيا . رائحتها رائعة ، وشعرت قاسيا بسعادة غامرة حتى أنها كادت تبكي . بدا كل شيء حولها جميلاً ممتعاً ، وأعظم من هذا كله - قالت لنفسها - إنني بعد ساعة واحدة سأرى حبيبي قولوديا مرة أخرى .

سألت قاسيا قاطع التذاكر :

- هل سنصل قريباً؟

بدا لها وكأن القطار لن يتحرك ثانية أبداً ، ينفث دخانه وكأنه علق بهذه المحطة إلى الأبد . وأخيراً انطلق القطار وعبر بلدة وكاتدرائية ومعسكر ثم ضواح ثم بلغ المحطة المنشودة أخيراً . أطلت قاسيا مثارة وراحت تفتش عن قولوديا ببصرها . أين هو؟ أين قولوديا؟ وفجأة ألفت نفسها بين ذراعيه بعد أن اندفع من مؤخرة العربة .

تبادلا القبلات وتعانقا .

- أوه قولودكا ، قولودكا ، لا أصدق عيني .

قال :

- ناوليني أغراضك فوراً وتعالى لتقابلي سكرتيرنا . يا أفان اقانوفيتش ، خذ هذه الأغراض ، وسنأتي نحن بالعربة . لدي جوادان أيضاً الآن يا قاسيا ، ولي بقرة خاصة بي ، وأفكر بتربية خنازير . لدينا مساحة واسعة ، مزرعة كاملة ، انتظري حتى ترينها ، بوسعك الآن أن تعيشي مثل سيدة العزبة . وأشغالي ناجحة أيضاً ، لقد أعادوا لتوهم ، فتح الدائرة في موسكو .

وواصل فلاديمير أحاديثه دون توقف ، كان يتوق إلى إخبارها عن حياته الجديدة ومشاريعه وأفكاره . جلست قاسيا في العربة إلى جانبه

وأصغت. ورغم أنها كانت مبتهجة لسماع أخباره فقد تآقت إلى إخباره عن نفسها وإلى معرفة كيف يتدبر أموره في غيابها، وما إذا كان قد اشتاق لها وشعر بالوحدة.

وصلوا البيت. أمامها انتصب بيت قديم مع حديقة. هرع صبي ساع ليساعدهم في الترحل من العربة.

قال فلاديمير:

- لنر إن كان البيت يعجبك يا قاسيا، أعتقد أنه أفضل بقليل من جحر الأرانب الذي تسكنين فيه.

دلفا إلى البيت. في المدخل درج مجلل بالسجاد ومراة. خلعت قاسيا قبعتها ومعطفها ودخلا إلى غرفة الجلوس. الكنبات والسجاد في كل مكان. وساعة كبيرة في غرفة الطعام فضلاً عن لوحات ذات إطارات مذهبة على الجدران وعصفور محنط معلق على مسمار.

.. سألها فلاديمير مضاء الأسارير:

- هل أعجبك؟

ردت قاسيا بتردد:

- نعم.

وجال بصرها في الغرفة، ولم تدر إن كان البيت قد أعجبها أم لا. بدا البيت غريباً غير مألوف في ناظرها. فتح فلاديمير باباً وأعلن:

- هذه غرفة نومنا.

للغرفة نافذتان تطلان على الحديقة.

قالت بابتهاج:

- أوه، انظر إلى الشجر. إنها أفاقيا بيضاء.

هرعت إلى النافذة، مسحورة.

- لماذا لا تلقين نظرة على الغرفة أولاً . سيكون لديك متسع من الوقت لتفترجي على الحديقة . لا بأس باعدادي الأمور لك ، أليس كذلك؟ كل شيء هنا اخترته ورتبته بنفسى ، ومنذ سكنت فيه وأنا أنتظر مجيئك لتريه .

قالت فاسيا :

- أشكرك يا حبيبي .

وتناولت فاسيا لتقبل فولوديا ، إلا أنه تجاهل المحاولة وأخذها من كتفها واستدار بها فإذا هي وجهاً لوجه إزاء مرآة كبيرة في الخزانة .

- انظري ، سوف تريحك . إذ بوسعك أن تبصري جسدك كله عند تبديل الثياب ، وتحتها ثمة رفوف لتضعي فيها ملابسك الداخلية وقبعاتك وملابسك البهيجة . . .

- فولوديا ، هل تعتقد أن لدي قبعات وملابس جديدة؟ لعلك وجدت سيدة حقيقية . .

ضحكت فاسيا . إلا أن فولوديا واصل حديثه بلا ارتباك :

- والآن هلا نظرت إلى السرير؟ الغطاء من الحرير الأصلي . الحقيقة أنني وجدت صعوبة في الحصول عليه ، إذ أنه لم يسلم لي مع بقية أثاث البيت . وهناك مصباح قرنفلي بوسعك إضاءته ليلاً . .

طاف فلاديمير وفاسيا بالمنزل ، وراح فلاديمير يشير إلى كل التفاصيل الصغيرة ويشرحها لها . كان فلاديمير جذلاً كطفل بهذا البيت الذي بناه لزوجته . سعادته الواضحة جعلت فاسيا تتبسم أيضاً ، لكنها شعرت بالتوتر . صحيح أن الغرف جميلة ، لكنها تبدو لها غريبة غير أليفة . أحست وكأنها دخلت منزل شخص آخر . لم يكن في المنزل أي شيء مما تحتاجه فعلاً ، ولا حتى طاولة لتضع عليها كتبها وأوراقها . الشيء الوحيد الذي أحبته فاسيا هو النافذتين المطلتين على حديقة الأفاقيا .

- أقترح أن ترتبي حاجياتك وتغتسلي ثم نذهب لنأكل .

قال فلاديمير ذلك وقصد النافذتين ليسدل الستائر.

قالت قاسيا:

- أرجوك لا تفعل ذلك، منظر الحديقة من خلال النافذتين جميل.
- ينبغي إسدال الستائر حتى لا تفسد الشمس السجاد والأغطية.

وهكذا حجبت الستائر الحديقة الخضراء مثل رموش كثيفة وأضفت الستائر الرمادية طابعاً أكثر اغتراباً في عيني قاسيا. غسلت يديها وشرعت تمشط شعرها أمام المرآة.

سأل فولوديا فجأة:

- ما هذا الثوب الذي تلبسين؟ أهو الثوب الذي خُيط لك من قطعة القماش التي أرسلتها؟

قالت قاسيا وهي تتوق إلى سماع إطرأه:

- نعم، هذي هي القطعة.
- دعيني أرى.

أدارها إلى اليمين ثم إلى اليسار. لمحت في عينيه نظرة استنكار.

- ما الذي جعلك تضعين هذه الثياب عند الوركين بحق السماء؟ إن جسدك ناحل ويصلح لأحدث صرعات الأزياء. من أين أحضرت هذا الثوب البشع؟

وقفت قاسيا مذهولة وقد تضرجت وجنتها شعوراً بالذنب.

- بشع؟ ولكن غروشا قالت أنه آخر موضة.

- غروشا جاهلة، كل ما فعلته هو تخريب قطعة جيدة من القماش. تبدين مثل زوجة كاهن في هذا الثوب. من الأفضل أن ترمي به جانباً وتعودي لترتدي «تنانيرك» العادية، إنهن يناسبنك أكثر. بهذا الثوب تبدين كالطاووسة.

ولم يبد على قولوديا أنه يلاحظ الألم في وجه قاسيا، فقد حول وجهه ويم صوب غرفة الطعام ليتعجل العشاء. هبت قاسيا كالمحمومة فخلعت الثوب وارتدت تنورة وبلوزة يغمرها شعور حاد بالشقاء. وانسكبت دمعتان على وجنتيها ثم على بلوزتها، وجفا من فورهما إلا أن عينيها لم تخلوا من تعبير ينم عن امتعاض بارد.

الخادمة ماريا سيمينوفا وهي امرأة ممتلئة في منتصف العمر، قدمت نفسها إلى قاسيا أثناء العشاء وصافحتها.

ما إن غادرت ماريا سيمينوفا الغرفة حتى قال فلاديمير بحدة:

- ما كان ينبغي أن تصافحيها. أرجو أن تتذكري في المستقبل أنك أنت سيدة المنزل، وإلا فإنك سوف تفسدينها، ولن ينتهي التشكي والازعاج.

حدجت قاسيا إليه بذهول قالت:

- لم أفهم مغزى حديثك.

إلا أن فلاديمير انثنى عن الموضوع وراح يلح عليها لتأكل. لكن شعورها بالتعاسة حال دونها والطعام.

- سوف يعجبك غطاء الطاولة الذي اشتريت، إنه من حرير الموروزق، مع مناديل تناسبه. لم أمر بوضعه على الطاولة لأن غسيله يكلف غالياً.

- من أين لك هذا؟

سألته قاسيا بصرامة ثم أضافت:

- أرجو أن لا تكون قد أحضرت كميات كبيرة منها.

ضحك وقال:

- إنك لا تدريين كم تكلف هذه الأشياء في وقتنا الحاضر. ملايين

الروبيلات . هل تعتقدين أن راتبي يكفي لشراء الكثير من هذه الأشياء المترفة؟ أحصل على مثل هذه الأشياء مع البيت بصفتي مديراً، ومن حسن حظي أني وصلت في الوقت المناسب، لأنني حصلت على هذه الأشياء عن طريق دوائر مختلفة وبوساطة بعض المعارف المتنفذين . أما الآن فقد توقفوا عن فعل ذلك . فأما أن يدفع المرء الثمن نقداً أولاً يحصل على شيء . طبعاً، ثمة أشياء اشتريتها بنقودي، مثل الحزانة وأثاث غرفة النوم والمرآة واللحاف الحريري، والمصباح . . . كان يعدد هذه الأشياء بضرب من المباهاة، إلا أن وجه قاسيا ازداد بروداً، وأطلت في عينيها نظرة عدائية .

- وهل لي أن أسألك، كم كلفك كل هذا؟

كان صوتها يرعش بغضب مكبوح . إلا أن فلاديمير لم يلاحظ ذلك واستأنف تناول الكستلاته والمرق، واحتساء البيرة .

- حسن، إذا كنت تصرين على معرفة الثمن فقد دفعت - آخذين بالحسبان الخصم بسبب الدفع نقداً . .

وأطرق متكلفاً الجدية والخطر ثم انبأها بالمبلغ الكبير وتبسم متباهياً مزهواً .

انتفضت قاسيا ومالت نحوه . بغضب .

سألها مدهوشاً:

- ماذا يا قاسيا؟ ما الأمر؟

- قل لي الآن، من أين حصلت على هذا المبلغ الكبير . فوراً، الآن، أريد أن أعرف في هذه اللحظة .

- لا تبالغي يا قاسيا، عليك بالهدوء، أرجوك . هل تحسبين أنني حصلت على المبلغ بطريقة ملتوية؟ أم أنك لا تفهمين قيمة المال؟ لو سكنت نفساً

وحاولت أن تحسبي رواتبي لفهمت . ثم انبأها عن راتبه الشهري .

- أحقاً راتبك مرتفع إلى هذه الدرجة؟ ولكن حتى لو كان مرتفعاً فإنني لا زلت استغرب كيف يمكن لشيوعي مثلك أن ينفق كل هذه المبالغ على التوافه، رغم علمك بأن الفقر منتشر في كل مكان وأن الناس جائعون. وماذا عن البطالة؟ هل نسيت العاطلين عن العمل أيضاً ما أن بت مديراً؟ من الأفضل أن تجيب يا سيد مدير!

كانت فاسيا تستجوبه بقسوة .

إلا أن فلاديمير لم يتزحزح عن موقفه . بل حاول أن يقنعها بموقفه . حتى إنه داعبها مثيراً غيظها قائلاً إنها عاشت لمدة طويلة مثل عصفور حتى إنها نست قيمة النقود . فثمة كثير من الناس يحصلون على رواتب مرتفعة أكثر من راتبه . وبعضهم يحيا حياة بذخ حقيقية .

إلا أن الكلمات لم تنطل على فاسيا . كانت تريد سماع تبريره ، لماذا لا يحيا حياة شيوعي حقيقي؟

وحاول فلاديمير إقناعها بطريقة أخرى . فشرح لها الجوانب السياسية للموضوع . فقال لها أن وظيفة المدير متطلبة ، وحدثها عن تعليمات قال إنه تلقاها من اللجنة المركزية للحزب . وأصر على أن الأولوية الأساسية في عمله هي أن يضمن ارتفاع الأرباح وازدهار العمل مهما كلف الثمن . وقبل أن تنتقده عليها أن ترى ما الذي أنجزه في سنة واحدة . لقد أنشأ العمل من العدم وأمسى أكثر ربحاً ، حتى أنه بات يقارن بمؤسسات الحكومة في المنطقة .

وحتى لو عاش «كإنسان متحضر» - حسب تعبيره - فذلك لا يعني أنه ما عاد يلتفت لموظفيه وعماله . وأضاف قائلاً إنها لو حاولت معرفة المزيد من التفاصيل عن العمل لتوقفت عن إزعاجه بالنقد . وقال إنه ما كان يتوقع هذا الموقف منها . ما كان يتوقع منها ، وهي الصديقة

الصدوقة، أن تقف إلى جانب أعدائه ما إن تصل . العمل وحده عسير فكيف بانتقاداتها أيضاً . ولماذا يجهد نفسه ما دامت زوجته لا تهتم إلا بنقده والتهجم عليه ومحاکمته لأسلوب حياته؟

كان فلاديمير يمك في نفسه عتياً . إنه ثائر الآن . عيناه تشتعلان غضباً وامتعاضاً . كيف يسعها عدم الثقة به؟ كيف يسعها أن تحكم عليه بهذه الطريقة .

بدأت نفس فالسا ترق وهي تصغي إليه . لعله على حق . فالأمور تغيرت . المهم أن حساباته صحيحة، والعمل يزدهر، والدخل القومي يزداد . وهي لا تخالفه في هذا .

- وماذا لو سعيت للحصول على بعض الامتيازات وأقمت بيتاً لي؟ إنني على يقين من أنني لن أفضي حياتي في منزل جماعي . ولماذا نكون في وضع أسوأ من وضع العمال الأمريكيين؟ ليتك ترين كيف يعيشون، إن الواحد منهم يملك بينانو وسيارة ودراجة نارية .

خلال هذا الحوار أطلت ماريما سيمينوفا عدة مرات تتطلع إلى تقديم الفطائر المحلاة . تنهدت . ما إن يجتمعوا حتى يسارعوا إلى النزاع والجدال! تلك كانت حالة أبناء الطبقة العليا عندما اشتغلت ماريما سيمينوفا خادمة قبل الثورة . هؤلاء ليسوا بأفضل من أولئك . هؤلاء الشيوعيون - فكرت منزعة - إنهم يتركون الفطائر تبرد هكذا .

في اليوم التالي اصطحب فلاديمير فاسيا وطاق بها مكاتب الشركة، ثم إلى المستودعات ومساكن المستخدمين . قادهما نحو مكتب المحاسبة قائلاً:

- انظري الآن إلى دفاتر حساباتنا . لن تجدي من يرصد حساباته مثلنا . لن تتهميني بالتبذير بعد أن تتفحصين الوضع هنا . ثم سأل المحاسبين أن يشرحوا لفاسيا المبادئ التي يعتمدونها في عملهم . وقال إن

المبادئ المعتمدة بسيطة ودقيقة، مما دفع اللجنة المركزية إلى تهنئة الموظفين. على رغم من أن قاسيا عجزت عن متابعة كل الشرح إلا أنها تبينت أن الناس هنا قد بذلوا جهودات كبيرة وأنهم يحبون عملهم. باتت على يقين من التزام قولوديا بعمله وتضحيته في سبيلها.

ثم طاف بها شقق الموظفين وجعل يسأل زوجاتهم على مسمع منها إن كن سعيدات. وكان يلقي على قاسيا نظرات تشع بالانتصار إذ يأتي هجواب دائماً:

- إذا أخذنا الظروف الحاضرة بعين الاعتبار فإني أعتز بسعادتي وكل ذلك يعود إليك يا فلاديمير ايثانوفيتش.

- أسمع يا قاسيا؟ وتتهميني بأني مفرط التبذير. صدقيني أن اهتمامي الأول هو القيام بكل ما في وسعي لخدمة المستخدمين. بعد ذلك فقط أفكر قليلاً بنفسي. أترين كيف يعيشون؟ الموظفون مثل العمال والعكس صحيح، وضع العمال ليس أسوأ من وضع الموظفين. لقد فعلت كل ما بوسعي من أجلهم.

- حسن، لقد قمت بكل ما في وسعك من أجلهم. ولكن ماذا فعلوا هم لأنفسهم؟

- لا شك في أن أفكاراً غريبة تلم ببالك بين الحين والآخر يا قاسيا، ألا ترين أننا - أنا وهم - نعمل معاً. في العهد البائد كان ثمة قوانين خاصة بالمدراء لا تسري على العمال، فثمة قوانين مختلفة للعمال. لكن الوضع هنا مختلف. أنت لست سوى موضعة قديمة يا قاسيا.

قال ذلك بنبرة مداعبة ضاحكة، إلا أن قاسيا أحست أنه منزعج ومجروح من ملاحظاتها.

قضى فلاديمير ذلك اليوم وهو يطوف بها أقسام المؤسسة المختلفة حتى

أدركها التعب وأخذت تحس النبض في صدغيها، والوجع في ظهرها وفي أطرافها. وعزمت على أن تأوي إلى الفراش فور عودتها إلى المنزل حتى تنال قسطاً وافراً من النوم. لا يزال رأسها يتصدع من أصوات عجلات العربة.

وما إن عادا إلى المنزل حتى أنبأها قولوديا أن ثمة ضيوف سيأتون لتناول الطعام معها وعلى فاسيا أن تستقبلهم. فتح الساعي لهما الباب. فتناول فلاديمير دفتر ملاحظاته وكتب رسالة قصيرة ثم ناولها للساعي.

- هيا إمض في طريقك يا فاسيا، لا أريد أي تلكؤ. عليك أن تجيبي شخصياً، أفهمين؟

ثم التفت إلى فاسيليسا ورنا إليها بنظرة ذات مغزى ينم عن الشعور بالذنب والحذر. قال كالحائر:

- لماذا تخرجيني هكذا يا فاسيك.

أجابت:

- ليس من سبب. إذن الساعة أيضاً اسمها فاسيا أليس كذلك؟

- نعم، هذا صحيح، أوه... إذن هذا سبب انزعاجك. أن يكون اثنان اسمهما فاسيا في بيتي. أي امرأة أنت. اعتقد أنك تغارين. ليس ما يدعو إلى القلق، أنت تعرفين أن ثمة فاسيا واحدة لدي في العالم كله أنت من أحب.

ضم فاسيا بحب، وقبلها وهو يرنو إلى أعماق عينيها. ثم أخذ يلاطفها لأول مرة خلال ذلك اليوم. فعانقها وقادها إلى غرفة النوم. سرعان ما أقبل الضيوف ليتناولوا الغداء: سافيليف، وايقان اثنانوفيتش مدير هيئة المديرين. كان سافيليف مديد القامة بدينها وشعره القصير مصنف بعناية، وكان يضع خاتماً في سبابته. نظرات عينيه تنم عن خبث

ومكر، وبدا لفاسيا أن ابتسامته المرسومة على وجهه الخليق تشي بضرب من السخرية وكأنما هو مراقب متفرج لا يلتفت إطلاقاً إلى أي شيء ما دام ليس متورطاً في أية قضية.

حين رحبت به رفع يدها إلى شفتيه، فاستردتها فاسيا مضطربة مرتبكة. قالت:

- لم أعتد هذا.

قال:

- كما ترغبين، إلا أنني لا أنفر أبداً من تقبيل يد سيدة. إنها عادة مقبولة، وإنما بلا شك لن تجعل من زوجك غيوراً، أليس كذلك يا فلاديمير ايفانوفيتش؟ هيا، اعترف.

وربت على كتف فلاديمير. ضحك فلاديمير وقال:

- فاسيا امرأة نموذجية ولا يمكن أن أشعر نحوها بالغيرة. غمز ساقيليف لفلاديمير وقال:

- ولكن يبدو بوضوح أنها لا تتخذ زوجها نموذجاً.

أجاب فلاديمير بنزق:

- لا أعتقد أنني فعلت ما يجعلها تخمن...

قاطعها ساقيليف:

- لا بأس، لا بأس، نحن نعرفكم أيها الأزواج. لقد كنت أنا نفسي زوجاً مرة. أما الآن فأحيا حياة عازب.

لم يفتح قلب فاسيا لساقيليف هذا. إلا أن قولوديا بدأ يتحدث معه عن السياسة والعمل، وكأنه صديق قديم وحميم. ولو كانت فاسيا في مكان قولوديا لما ناقشت الأوضاع السياسية مع مضارب مثل هذا، ولما

أرسلت النكات حول رئيس الهيئة التنفيذية كما يفعلان . على فولوديا أن يدرك هذا وأن يضع حداً لصداقته مع هذا الرجل .

تناولوا الخمرة مع الغداء - وكان إيقان ايغانوفيتش قد أحضر معه زجاجة من الخمر في سلة من القش . أصغت فاسيا إلى النقاش محاولة أن تستوعب النقاط الأساسية . وفهمت أن الشركة قلقة نتيجة تأخير كمية كبيرة من البضاعة التي سوف ترتفع قيمتها ولكنها قد تصل بعد فوات الأوان إلى السوق . وشعرت أن ما قيل ليس ذا مغزى ، وأنها يتفاديان صلب الموضوع . كان رأسها الدائخ يحول بينها وبين سماع الحديث بكل تفاصيله إلى ذلك كانت عيناها تؤلمانها . تمت لو ينتهي الغداء بسرعة .

أخيراً انتهوا من تناول الطعام ، وأمر فلاديمير من فوره بتهيئة السيارة للمضي إلى المطار وحضور اجتماع يعقد هناك - حول مشكلة المواصلات .

قال سافيليف وهو يتبسم ويرمق فلاديمير بنظرة جانبية :

- كيف يسعك يا فلاديمير ايغانوفيتش أن تسعى إلى الاجتماع الليلة ، وقد أتت زوجتك لتوها بعد سفر مضمّنٍ ؟ لماذا لا تبق معها فترة من الوقت ؟ من اللائق أن تبقى معها .

قال فلاديمير بصوت لا يخلو من حدة وهو يقطع سيجاراً :

- مستحيل ، كنت أتمنى لو أظل هنا إلا أن العمل يضغط علي .

إلا أن سافيليف قال ملحاً :

- ولكن ثمة فارق بين عمل وعمل .

ومرة أخرى بدا هذا المضارب البغيض يغمز إلى فلاديمير ، وكأنما يسخر من فاسيا . قال :

- لو كنت مكانك لألغيت كل أعمالي اليوم ، في سبيل أن أقضي هذه الأمسية الأولى مع زوجتي ، إذ أن العمل لن يتبخر .

لاذ فلاديمير بالصمت وسعى نحو سيارته بانزعاج :

- هيا، لنمض يا نيكانور بلاتونوفيتش .

غادروا المنزل ولحق بهم سافيليف وايفان ايفانوفيتش، تاركين قاسيا وحدها في المنزل الكبير الموحش . عبرت الغرفة الباردة المقفلة وسعت إلى غرفة نومها . وقفت إزاء جانب النافذة وسرحت أفكارها . ثم رقدت تحت الغطاء الحريري ، ولم تلبث حتى أخذتها عينها فنامت .

استفاقت منتفضة . العتمة تغطي الغرفة . أشعلت النور، الساعة الثانية عشرة والربع . هل نامت طوال هذا الوقت؟ الوقت تجاوز منتصف الليل وفولوديا لم يعد بعد . انزلقت من الفراش فغسلت وجهها بماء بارد ثم سعت إلى غرفة الطعام . كانت المائدة معدة للعشاء والضوء يغمر الغرفة . كل الغرف الأخرى مهجورة معتمة . سعت إلى المطبخ ألقت ماريما سيمينوفاً تنظيف . سألتها :

- ألم يعد فلاديمير ايفانوفيتش بعد؟

أجابت :

- لا ، ليس بعد .

- هل يعود عادة من الاجتماعات متأخراً؟

- أحياناً .

كانت ماريما سيمينوفاً صموتة فظة في تلك اللحظة .

- ولكن هل تنتظرينه حتى هذا الوقت عادة؟ ألا تأوين إلى فراشك؟

- أنا وقاسيا نتناوب يومياً بالتتالي .

- هل سيتناول فلاديمير عشاءه؟

- إنه يتناول العشاء حين يعود بصحبة ضيوف فقط ، أما إذا عاد وحيداً فإنه يأوي إلى الفراش من فوره .

وقفت فاسيا في مكانها فترة من الزمن، إلا أن ماريما سيمينوفا كانت مشغولة بعملها فلم تلتفت إليها. وهكذا عادت إلى غرفة نومها وفتحت النافذة على مصراعيها. كانت ليلة باردة والأقايما تتضوع برائحتهما الحادة في الهواء، والضفادع ترسل نقيقها عالياً مما لفت نظر فاسيا التي حسبت أنها عصفير الليل. السماء مظلمة تنتثر عليها مجموعة من النجوم المختلفة.

وما زالت فاسيا ترنو إلى العتمة حتى داخلتها السكينة. نسيت ساقيليف المضارب. ونسيت عتبتها على تصرف قولوديا غير اللائق تجاهها. وامتلأ قلبها. بخاطر واحد: لقد جاءت لترى حبيبها، لتساعده في فهم خط الحزب الصحيح. لا غرابة في وقوعك في الورطات ما دمت تعاشر مثل هؤلاء الندماء. هذا ما ستقوله له. اللوم لا يقع عليه، إنه في أمس الحاجة إلى نصيحتها ولهذا أرسل في طلبها.

فكرت فاسيا مزهوة في قولوديا وكيف أنه أقام العمل على أسس صحيحة، إنه عامل نموذجي. وتراءت لها حوادث هذا اليوم من خلال منظار جديد. شعرت بالتفاؤل ورَقَّ بالها.

كانت مستغرقة في هذه الخواطر حتى إنها لم تنتبه إلى السيارة وهي تدنو، ولا لخطوات فلاديمير وهي تعبر البُسط. انتفضت لدى سماعها صوته.

سألها وهو يرمقها بنظرة قلق رقيق:

- لماذا تستغرقين في التفكير يا فاسيا؟

- إذن عدت أخيراً يا حبيبي. أنتظرك منذ زمن بدا لي أبدياً.

أحاطت عنقه بذراعيها، ورفعها فلاديمير بين ذراعيه شأنه في الأيام المبكرة لزواجهما؛ السعادة تغمر فاسيا. قولوديا يجبها، يجبها مثلما أحبها دائماً. كم كانت غبية، لماذا كانت متوترة طوال اليوم؟

جلسا وراحا يحتسيان الشاي ويتحدثان بفرح . انبأت قاسيا زوجها رأيا في ساقيليف، وأشارت عليه أن لا يقيم علاقة صداقة مع أمثاله . لم يجادلها فولوديا في ذلك . بل اعترف لها أنه مثلها لا يحترم الرجل ، لكنه ذو قيمة كبيرة . وذكرها بأن المشروع ما كان لينشأ لولا ساقيليف . فعلاقاته مع مختلف الناس قديمة ، وهو يحوز على ثقة التجار وبالتالي عارف ما بينهم وبين قولوديا . والحقيقة أن قولوديا تعلم الكثير منه . رغم أنه كإنسان ورجل ليس أكثر من محتال ، وبورجوازي حتى العظم . ولكن لا غنى عنه في العمل . وأهداف قولوديا : لهذا وقفت إلى جانبه حين اعتقل . أنهم يقدرونه في موسكو ، وقد لاموا السلطات المحلية لاعتقاله .

سألته قاسيا بقلق :

- ولكن ألم تصفه في رسائلك بأنه محتال ولص ؟

- حسن ، كيف يسعني أن أعبرك عن رأيي ؟ إنه عميلنا ، صحيح أنه يتدبر مصالحه الذاتية ، ولكن صدقيني إنه ليس أسوأ من الآخرين . على أن الآخرين يتدبروا مصالحهم ولا يشتغلون ، بينما يعمل هو ، لا لأنه مجبر على ذلك ولكن لأنه واع . إنه يعرف عمله جيدا ويحبه .

إلا أن قاسيا ألت فاذعن قولوديا ووعدتها بتجنبه ما استطاع . فقاسيا ترى أن العمل شيء والصداقة شيء آخر . عندما انتهيا من احتساء الشاي تبادلوا القبلات وقصدا غرفة النوم . ضم فلاديمير رأس قاسيا برفق وقبل شعرها . قال :

- رأسك الصغير هذا عزيز على قلبي . لا يسعه أن يكون غريباً عني . أليس كذلك ؟ لن أتمتع بصديق مثلك يا قاسيا . أنت المرأة الوحيدة التي أحب ، يا حبيبتي قاسيا القوية .

استيقظت فاسيا متأخرة في اليوم التالي . كان فلاديمير قد مضى إلى عمله . لا بد وأنها قد أصيبت بالرشح أثناء الرحلة أو أنها مريضة، إذ شعرت بألم حاد في خاصرتها وكانت تسعل وكأنها مصابة كان الطقس معتدلاً مشمساً، لكنها تدهرت بشالها والتزمت الفراش . أقبلت ماريما سيمينوفا، وقفت في الباب وشبكت يديها على بطنها، وهي ترنو إلى فاسيا تنتظر أن تبادرها الأخيرة بالكلام :

- صباح الخير يا ماريما سيمينوفا .

ردت الأخرى بلهجة لاذعة :

- صباح الخير، ماذا تطلبين للغداء؟ أمرني فلاديمير ايغانووفيتش قبل أن يغادر أنك ستختارين طعام الغداء . إذ سيأتي ضيوف على الغداء .

فوجئت فاسيا . كانت معتادة على الوجبات السوفيتية العادية . لاحظت ماريما سيمينوفا حيرة فاسيا، فبادرت واقترحت عدة أصناف . وافقت فاسيا على جميع الأصناف ولم تسأل إلا عن الأسعار . وبدت لها الأسعار باهظة فما كان من ماريما سيمينوفا إلا أن زمت شفيتها . قالت :

- ليس بوسعك أن تتناولي ما تريد وتوفري في آن معاً . يلزم المرء الكثير من المال من أجل كل شيء، خاصة وأن الشيوعيين قد ذهبوا بسياسة التموين .

سألت فاسيا بقلق :

- ولكن هل هناك نقود في حوزتك؟

- نعم، تبقى قليل من نقود الأمس، ولكنها لا تكفيننا. اللحم مرتفع الثمن، ويلزمنا مزيد من الزبدة أيضاً.

- ألم يترك لك فلاديمير مبلغاً كافياً؟

- لا لم يترك لي شيئاً. لكنه قال « اذهبي واتفقي مع فاسيليسا ديمنتيقنا.

ظلت ماريا سيمينوفا تقف في مكانها ساكنة تنتظر النقود. من الواضح أنها لن تتحرك إلا حين تقبض المبلغ اللازم. وشعرت فاسيا بالحنق. كانت تملك كمية قليلة من المال إلا أنها ما كانت ترغب في تبذيرها على مثل هذه الأمور البيتية غير اللازمة. فلو فعلت لما تبقى معها كوبيك واحد تنفقه على حاجاتها الضرورية.

اقتрحت ماريا سيمينوفا قائلة :

- لماذا لا تقرضيني كمية قليلة من نقودك يسدها فلاديمير ايفانوفيتش حين يعود.

بالطبع تنهدت فاسيا الصعداء حين سمعت هذا الاقتراح. هذا هو الحل. لماذا لم يخطر هذا الحل على بالها؟ انصرفت ماريا سيمينوفا راضية مطمئنة وقصدت فاسيا الحديقة، وتمشت عبر الممرات، ولكن سرعان ما أدركها التعب فأحست بأنها مريضة. عادت أدراجها إلى البيت، رقدت على الفراش ونامت وهي تطالع.

- تقلبت في الفراش، تشتعل الحرارة في وجنتيها، وأقضت الكوابيس الثقيلة مضجعها. وقد استيقظت مرة، تلفتت حولها وشعرت بالغضب من كسلها. ينبغي عليها أن تكون في البلد تعمل. أي سخف وعبث هذا؟

أن تجتاز. كل تلك المسافات من أجل أن ترى قولوديا وإذا بها تقف فريسة للمرض! لكنها عاجزة حتى عن رفع رأسها، وما إن تغمض حتى تختلط أفكارها وتضطرب. تدهمها نوبات من غيبوبة النوم فتعجز عن التركيز.

عندما فتحت عينيها رأت ماريا سيمينوفا تقف إلى جانبها.

- من المحتمل أن يصل فلاديمير ايغانوفيتش يا قاسيليسا ديميتييفنا في أية لحظة الآن. جدير بك أن تنهضي وترتدي ثيابك، وسأسوي أنا السرير. إنه لا يجب فوضى الغرف.

سألها قاسيا:

- هل تقدم النهار إلى هذه الدرجة؟

- أنها الساعة الخامسة، وما أصبت شيئاً من الطعام. كنت على وشك أن أنبهك لكنني ألفتيك نائمة نوماً عميقاً. وأنا أعلم كم هي متعبة تلك الأسفار الطويلة.

- لا أدري إذا كان السبب يعود إلى الرحلة. لكن يبدو أنني مصابة بالبرد إذ أحس بالحمى.

قالت ماريا سيمونوفا ناصحة:

- من الأفضل إذن أن تتدثري بثوبك القطني، سوف يدفئك. لا حاجة بك إلى هذا الشال،

- لا، زوجي لا يحب هذا الثوب.

- لماذا؟ إنه ثوب جيد رغم أن هذه الشراشيب عند الورك والخصر ليست في مكانها الصحيح. انظري، كان ينبغي أن يكون خط الخاصرة هنا. لقد كنت خياطة في ما مضى. فأنا أعرف شيئاً ما عن آخر صرعات الأزياء. دعيني أقص التنورة يا عزيزتي ثم نعيد خياطة الثوب بطريقة

أخرى . سيظنه فلاديمير ايقانوفيتش جديداً حين ننهي منه .

سألته فاسيا بقلق :

- ولكن ، هل سينتهي العمل في الوقت المناسب؟

- بالطبع لا . سنخيظه أنا وأنت بالتقسيط . في غضون ذلك بوسعك أن تلبسي تنورتك السوداء وسترتك السوداء ، وسوف تبدين وسيمة .

بدا لفاسيا أنها وقفت إلى ما لا نهاية أمام المرآة . أعادت ماريما سيمينوفا خياطة الثوب زارعة الدبابيس في كل مكان حتى تكمل تغيراتها ثم أحضرت قبة مخرمة . وحين انتهت ماريما من خياطة الثوب بطريقة جديدة بدا جيداً ، بسيطاً ، وسيماً . ورأت فاسيا أنه يناسبها وتساءلت فاسيا ترى ماذا سيقول فلاديمير حين يراه .

ما إن ارتدت فاسيا الثوب حتى وصل فلاديمير وضيوفه : زميل له في الـ GPU وزوجته . كان لرجل الـ GPU شارباً منتظماً ، وكان مسرفاً في الأناقة وينتعل جزمتين مرتفعتين حتى الركبة . دهشت فاسيا ، أيعقل أن يكون مثل هذا الرجل شيوعياً؟ شعرت بأنها تبغضه . وبدت زوجته في ثوبها الشفاف وكأنها عاهرة . الفراء يتدلى من كتفها والخواتم تلمع على أصابعها . قبل فلاديمير يدها ومازحها . لم تتبين فاسيا كلمة واحدة من حديثها فقد بدا الحديث مبتذلاً تافهاً . حين جلس الجميع إلى المائدة ، مال فلاديمير نحو ضيوفه ، وعندما تبادل النظر مع المرأة رقصت عيناه ولمعنا .

كانت فاسيا تجلس إلى جانب رجل الـ GPU . تعرف أنه عضو الحزب ، لكن بالها لم يسعفها لتبادل كلمة واحدة معه . احتسوا النيذ ، وتبادل فلاديمير الانخاب مع المرأة . وهمست الأخيرة بكلمة في أذنه فانفجرا يتضاحكان . مما أزعج فاسيا .

أما رجل الـ GPU فإنه لم يلتفت إلى زوجته على الإطلاق مما أثار رية

وإنكار فاسيا. ودار نقاش حول أيام الصوم، واعترفت المرأة أنها رغم إيمانها بالله وسعيها إلى الاعتراف فإنها لم تصم (!). مرة أخرى صدمت فاسيا، كيف يتزوج رفيق في الـ GPU من «مؤمنة». عبست غضبى واستولى عليها شعور عارم بالسخط على فلاديمير. أي صنف من الأصدقاء يحسب هذين؟

عندما أوشك الجميع على النهوض أقبل ايقان ايقانوفيتش وقال أن سافيليف قد حجز مقاعد في المسرح وهو يدعو الجميع للحضور.

سأل فلاديمير:

- هل نذهب يا فاسيا؟

- تقصد، مع سافيليف؟

حدجت فلاديمير بنظرة نافذة، إلا أنه تكلف عدم الفهم.

- نعم، صحيح، سوف نقيم حفلة مع نيكانور بلاتونوفيتش. ثمة أوبرا جديدة ستبدأ الليلة ويقال إنها مسلية. سوف تتمتعين.

قالت فاسيا:

- لا، لا أستطيع.

- لماذا.

- إنني متوعكة. أحسب إنني أصبت بالرشح أثناء الرحلة.

رنا فلاديمير إليها وقال:

- فعلاً. تبدين متوعكة قليلاً، عيناك مجوفتان. أعطني يدك. صحيح إنها حارة، عليك البقاء هنا. طبعاً لن أذهب أنا أيضاً.

- ولكن لماذا؟ اذهب بدوني.

وألح الضيوف على فلاديمير ليذهب معهم. فوافق. في الصلاة، وأمام

الجميع ضم فلاديمير قاسيا وهمس في أذنها:

- تبدين جميلة يا قاسيا، امض إلى سريرك وسأعود قريباً. لن أبق حتى النهاية.

سأل ماريا سيمينوفا أن تهتم بقاسيليسا ديمنتوفا ثم انصرف الجميع.

انشأت قاسيا تطوف الغرف مرة أخرى مغمورة بالكآبة. إنها ترغب عن مثل هذه الحياة، رغم أنها لا تتبين سلبياتها على وجه التحديد. ولكن كل شيء يبدو لها غير أليف. إنها تشعر بالاغتراب هنا، وكأنما هي فائض. وماذا لو كان فلاديمير يحبها. إنه لا يلتفت إليها ولا يهتم بها. قبلة وضممة ثم ينكفيء ويمضي.

كانت لتتفهم لو مضى إلى اجتماع أو إلى العمل، ولكن لا إلى المسرح. لماذا ذهب إلى المسرح من دونها؟ إنها على يقين أنه حضر ما يكفي من المسرحيات خلال ذلك الشتاء. شعرت قاسيا بأن شيئاً ما يعذبها ولا تتبين له مصدراً. إلا أنه شيء امتص قوتها وتركها تشعر بالتعاسة والقلق.

وقرر قرارها: سوف أمكث أسبوعاً آخرًا، فأرى كيف تتطور أوضاع قولوديا، ثم أرحل.

ولكن ما إن قرر قرارها على هذا حتى خطر ببالها سؤال آخر: إلى أين ستذهب؟ إلى المنزل الجماعي؟ مستحيل، فصديقتها غروشا تقيم الآن في العلية. ثم هناك الزوجان فيودوسيفز ومشاكلها ونزاعاتها معها. ولو عادت إلى المنزل الجماعي لكان عليها أن تناضل في سبيله مما يؤدي إلى نزاعات لا حد لها مع الجميع. ولا طاقة لها على هذا، ولا الثقة في أنها قادرة على التكيف مع هذا الوضع.

إنها تدرك أن ليس لها مكان تلجأ إليه، ومعرفتها بهذه الحقيقة تجلب لها القلق الموجه. بدأت تشعر بالبرد، وكانت ترتعش. أدخلت يديها في

كُمِّيها. وراحت تذرغ الغرف الخالية جيئة وذهاباً. شعرت بأن البؤس يكمن في هذا المنزل غير الودود. ولكنها سرعان ما زجرت نفسها، أي سخف هذا؟ إنما هو ضرب من الهواجس الداخلية. الشيوعيون لا يؤمنون بالهواجس الحدسية القبلية. ما معنى هذه الكآبة الشاحبة؟

عاد فلاديمير إلى منزله مبكراً كما وعد. كانت فاسيا جالسة في السرير تقرأ. جلس إلى جانبها، وسألها عن حالها بحجة. بدا جدياً ومتعباً، وكأنما انتهى لتوه من تجربة حزينة. سألته فاسيا دهشةً:

- ما بك يا فولوديا؟

دفن وجهه في الوسادة وقال بصوت حزين:

- آه يا فاسيا، إن حياتي عسيرة، ليس بوسعك أن تتخيلي كم هي عسيرة. أنت لا ترين إلا جانباً واحداً منها، ولكني لا أحالك راغبة في فهمي فهماً صحيحاً. ليتك تدركين أي معاناة عانيت خلال هذا الشتاء، عندها لن تنتقديني، بل ستشفقين علي. أعرف إن قلبك في موضعه الصحيح يا فاسيا.

مسدت فاسيا رأس فولوديا مواسية وحاولت أن تطيب خاطره. شعرت بالأسى عليه، ولكنها عجزت عن مغالبة شعور بالفرح. في تلك اللحظة أحست بأن السعادة قد وحدثها. قالت مواسية إنه من العسير على المرء أن يكون مديراً وأن يصدر الأوامر للعمال.

اكتفى فولوديا بهز رأسه بحزن. قال:

- لا يا فاسيا، ليس هذا ما يزعجني. إنه أمر آخر. ثمة شيء يزعجني ولا يزاولني.

- ولكن ما الأمر؟ أينخطون لإثارة المشاكل والعقبات في طريقك؟

التزم قولوديا الصمت. بدا وكأنه عاجز عن للممة جرأته والاعتراف لها.

ضمته قاسيا بين ذراعيها.

- أرجوك قل لي يا حبيبي ، ما الذي يسبب لك هذا الإزعاج المتواصل؟  
أراحت رأسها على كتفه ، وفجأة رفعت رأسها وهدقت إليه :

- رائحة عطر تفوح منك . منذ متى بدأت تتعطر؟

ابتعد عنها بارتباك .

- عطر؟ أحسب أن الحلاق عطرنى بعد أن حلق لي اليوم . إنه يستخدم العطر.

انزلق من السرير وراح يركز على سيجارته ويسحب الدخان ببطء شديد . بعد دقائق قليلة غادر الغرفة قائلاً إنه مضطر إلى مراجعة بعض الأوراق المستعجلة قبل الغد .

لم تتحسن صحة قاسيا . ولم يزايل الوجع خاصرتها ولم تنخفض الحرارة المرتفعة . ورغم محاولاتها لإخفاء ومداراة ألمها أمام فلاديمير إلا أنه لاحظ . فقد حال سعالها بينه والنوم فانتقل إلى غرفة الجلوس وبات ينام فيها .

مرت الأيام ببطء وكانت فارغة وبلا حيوية . واكتنفتها الهموم البيتية الصغيرة . فرغم أن فلاديمير يزودها بكمية كافية من المال ، كان يطالبها بأن تدبر شؤون المنزل «بالشكل الصحيح» حسب تعبيره . وبعد أن شاركت قاسيا بنقودها في مصاريف إدارة شؤون المنزل ، لم تعد تتقبل انتقادات فلاديمير منها كانت مداورة .

- ولكن من غير المعقول أن تكوني قد أنفقت كل نقودك في مصاريف إدارة البيت . إن معدل الصرف هذا قمين بأن يجعلنا مفلسين ، إذ علي أن أطعمك وأطعم الآخرين .

وكأنما هي التي تدعو هؤلاء الضيوف وتأمر لهم بثلاثة أصناف من الطعام .

في أية حال ، لم يكن بوسعها أن تتشكى من تصرفات فلاديمير ما دام مهتماً بحالتها الصحية وقلقاً عليها . وقد أرسل فلاديمير وراء الطبيب الذي قال إنها تعاني من الإرهاق ، وأن رثتها اليمنى ضعيفة إلى حد ما ، وأشار عليها أن تضطجع في الشمس ما استطاعت وأن تنظم طعامها وتتجنب ما يسيء إلى صحتها . ناشد فلاديمير فاسيا أن تنفذ وصايا الطبيب وأمر ماريا سيميئوفا أن تعكف على فاسيا فتعتني بها وتراقبها للتأكد من أنها تتناول الطعام في الأوقات المناسبة .

بل إنه جلب لها الكاكاو ومقعداً قابلاً للانشاء لتشمس عليه . كان مهتماً بوضعها اهتماماً شديداً . ولكن رغم أنه كان يسعى لرؤيتها فور عودته من العمل ، فإنها ما كانا يتقابلان كثيراً ، فقد كان فلاديمير مشغولاً . فأعماله متراكمة متزاحمة وكان على علاقة بتبدلات العرض والطلب في السوق ؛ وكل هذا استهلك وقته وجعل الإرهاق ينال منه .

ذات مساء كانت فاسيا راقدة على المقعد المثنى تتشمس تحت الشمس مثل السحلية . فكرت : غريب أن يعيش الإنسان هكذا . دون عمل ولا قلق . لكنها حياة بلا مباهج ، أشبه بحلم غريب . شعرت أنها قد تستفيق في أية لحظة فتجد نفسها في منزلها الحقيقي ، في المنزل الجماعي . تذكرت دائرة الإسكان ، وأصدقاءها واستيين اليكسيفيتش ، وغروشوا وحتى السيدة فيودوسيفا . لا شك في أن تلك الأيام كانت صعبة ، لكنها أكثر بهجة .

كانت فاسيا تنتظر عودة فلاديمير . لقد وعدتها بالعودة مبكراً . واليوم ، شأنها كل يوم ، عازمت فاسيا على أن تتبادل وفلاديمير الحديث عن أوضاعها بصراحة . لكن الأيام توالى ولم تجد فرصة لا نفاذ عزمها على

الحديث . فالضيوف والعمل حالا دونها والحديث معه .

لكن، يبقى أن ساقيليف ما عاد يأتي . إلا أن ثمة ضيوف غيره يترددون باستمرار . معظمهم من رجال الأعمال، وقاسيا لا تلتفت إلى ما يلتفتون فهم يعيشون في عالم يختلف عن عالمها . أحاديثهم تدور حول تحميل الحمولات وانزالها والسلع المرسله والمستلمة والحسومات والريح والعلاوات . ورغم معرفة قاسيا بأن هذه الأمور جوهرية بالنسبة لاقتصاد الجمهورية، وأن الاقتصاد لا يمكن أن يتقدم ويتطور إلا إذا كان ثمة مقايضة، إلا أنها وجدت هذا الحديث مملاً . فإذا ما تحدثت هي عن مسائل حزبية على سبيل المثال أو عن مقال لبوخارين أو تقارير في الصحف عن الحزب الشيوعي الألماني، فإنهم يصغون لوهلة ثم يعودون من فورهم إلى حديثهم عن التحميل والسلع، والمجموع الإجمالي والربح الصافي .

ما كان فلاديمير يمل من هذه الأحاديث، بل كانت الحيوية تدب فيه كلما اجتمع مع هؤلاء الزملاء، فإذا به يجادلهم ويناقشهم ويستشيرهم دونما تعب . ولا يكتب إلا حين يكون وحيداً مع قاسيا، يتهد يربت على يدها ويحديق إليها بعينه الهائلتين الحزینتين، وكأنما يتوسلها أن تساعده، ويعتذر عن شيء ما، رغم أنها لم تعرف ما الذي يعذبه . فهي لم تسمع إشاعة واحدة ولا همساً حوله مؤخراً .

إذن ما الذي جعل فلاديمير بأئساً إلى هذا الحد؟ لعله يعتقد أنها تحتضر، أثارت هذه الفكرة السخيفة البهجة في قلبها . إذن هو يجبها حقاً . صحيح أنه لا يقضي وقتاً طويلاً معها، إلا أنها هي لم تلتفت إليه كثيراً حين عاد ليقيم في عليتها . إذ كانت تقضي النهار كله في عملها، ولم يسعفها الوقت لتهتم بزوجها، وتساءلت إن كان تصرفها ذاك قد جعل حبه لها يتضاءل . وكان هذا الخاطر يثير في نفسها المخاوف .

رنت قاسيا إلى قمة الأشجار الناهضة في السماء الزرقاء الباهرة

تداعبها نسيمات الصيف فتميل برفق وتهتز. الجنادب تسقسق في العشب، ومن مؤخرة الحديقة انطلق تغريد العصافير وكأنها تتنافس في ما بينها. نهضت فاسيا ومشت في المر تجتاز شجيرات تفتتح عليها أزهار الليلك. أية رائحة سماوية! راحت تربط مجموعة من الأزهار المثمرة معاً. وحطت نحلة على زهرة ثم نشرت جناحيها.

ضحكت فاسيا وقالت:

- أيتها النحلة الشجاعة، أنت لا تخافين الإنسان أليس كذلك؟ وفجأة أحست بالنشوة تغمرها حتى أنها التقطت أنفاسها. تلفتت حولها فبدت لها الحديقة فجأة من خلال نور سحري. العشب الأخضر، الشجيرات الليلية الخضبة، البركة ذات الضغادع التي تنفق - كل شيء جميل رائع. ولم تحرك فاسيا ساكناً. إذ خافت أن تتلاشى هذه النشوة فجأة مثلما غمرتها على نحو مفاجئ. في تلك اللحظة شعرت وكأنها لم تعرف معنى الحياة من قبل ولم تفهم معنى أن تكون على قيد الحياة.

فجأة أدركت كل شيء. أن تكون حياً لا يعني أن تكون سعيداً أو شقيماً، عاملاً أو ماضلاً، أن تكون حياً يعني أن تكون مثل هذه النحلة تحوم حول الليلك، مثل الطيور التي تتبادل التغريد من عش إلى عش، مثل الجنادب المسقسقة في العشب. إنها حية. لماذا لا تبقى بين الليلك إلى الأبد؟ لماذا يعجز البشر عن العيش مثل مخلوقات الله؟

ولكن بماذا تفكر؟ كلمة «الله» أغضبتها من نفسها. الله! أي قوة استولت عليها. لا شك في أن عدم النشاط وهذه الحياة المترفة على حساب فلاديمير هي التي دفعتها إلى مثل هذه الأفكار. إذا بقيت هنا فإنها ستتحول إلى سيدة مترفة عارية.

انكفأت نحو البيت مسرعة. لكن مزاجها المنتشي لم يتلاش تماماً. كانت ذاهبة إلى غرفة النوم لتضع ضمة أزهار الليلك في المزهريّة حين

أقبلت سيارة فلاديمير. سعى إلى المنزل من فوره. قال:

- لقد بدأوا. منذ زمن طويل لم يسببوا لي أية مشاكل، ها هم المشاغبون يعمدون الآن إلى الأعيب صبيانية مرة أخرى، إلا أنهم هذه المرة ذهبوا بعيداً. لقد اختلقوا تهمة ضدي كما يبدو، ولقد أرسل في طلبي للوقوف بين يدي لجنة المراقبة. سوف نرى من الذي سيربح في هذه الجولة.

كان فلاديمير يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ويده وراء ظهره - علامة تؤكد اضطرابه.

- لقد دبروا مكائدهم لينبشوا موضوع فوضويتي وعدم انضباطي ولا أدري ماذا يجئون بعد. وأنا الذي أرهق نفسي لأنظم العمل، وبدل أن يساعدني أعضاء اللجنة الحزبية يعمدون إلى وضع العقبات في طريق العمل. إذا عمدوا إلى اضطهادي ثانية فإني لن أجد مفرأً من الانصراف عن الحزب. إنني أعني ما أقول. وسأنصرف دون حاجة لأن يأمروني هم بذلك، لا حاجة بهم لتهديدي بالفصل. هذا قراري النهائي.

لا شك في أن هذه الأزمة حقيقية. غاص قلب قاسيا. إذن هذه هي الكارثة التي كانت تنتظرها. حاولت أن تواري هذه المشاعر وأن تواسي فلاديمير. لكنه كان عصياً على المواساة.

- وماذا عن صاحبك ستين اليكسيقيتش، «سألوه شهادة عن شخصيتي فإذا به يمدح عملي ولكنه شكى غروري وأشار إلى ضعفي الخلقى». أسألك! قد يحسب المرء هؤلاء الأشخاص كهنة. إذ يحكمون على الناس، لا على عملهم أو معتقداتهم السياسية ولكن على أخلاقهم. يبدو أنني لا أحميا مثل شيوعي. وهل يتوقعون أن أتحول إلى كاهن؟ وهل يتصرفون هم بطريقة أفضل في حياتهم الخاصة؟ أراهن أنهم لا يتصرفون بطريقة أفضل. أمثالهم لا يتهمون رئيس دائرة الإعلام رغم أنه هجر

زوجته وأطفاله الثلاثة وتزوج من فتاة أعجبتة . مثل هذا التصرف مقبول كما يبدو . بالنسبة لكم هذه أخلاق شيوعية جيدة . لماذا يتوقعون مني أنا فقط أن أرقد على سرير من المسامير؟ ولماذا يحشرون أنوفهم في حياتي الشخصية؟

في تلك اللحظة شعرت فئاسياً أنه يتوجب عليها معارضته . لقد شعرت أن لجنة المراقبة على حق في أن تقول: لا يسمح للشيوعي بأن يتخذ من البورجوازي مثلاً ونموذجاً يحتذيه . فالشيوعي والمدير ينبغي أن يكون مثلاً للجميع .

قاطعها فلاديمير قائلاً :

- ولكن أي إثم تحسبيني فعلت؟ قولي لي بحق الله لماذا أُعتبر شيوعياً رديئاً؟ الأني لا أعيش في زريبة خنازير؟ أم لأنني مضطر إلى إقامة علاقات صداقة مع الرعاع في سبيل مصالح عملي؟ وإذا كان هذا هو السبب فلماذا لا تكتبون تعليمات تحدد من المسموح له بدخول المنزل، وكم مقعد يُسمح لنا بأن نملك، وكم بنطال يسمح للشيوعي بأن يحتفظ؟

كان فلاديمير قد فقد رشده تماماً وثار غاضباً حين انتقدته فئاسياً . وانتهزت فئاسياً هذه الفرصة لتواجهه بالشكوك التي تراودها منذ زمن طويل . قالت إنها لا تتبين أين الخلل في طريقة حياته بالضبط، ولكن ثمة شعور في أعماقها يجعلها تعتقد أنه لا يحيا ولا يتصرف مثل شيوعي حقيقي . إنه يملك كل ما يتمناه، وهي لا تصدق أن الأعمال سوف تتدهور إن لم يكن بيت المدير مُزوداً بالمرايا والسجاد . ولا هي مقتنعة بأن التعامل غير الواضح مع أمثال ساقيليف من المخادعين وتقبيل أيدي الفتيات، من ضرورات نجاح العمل .

صرخ فلاديمير:

- إذن . أنت أيضاً تهاجميني . كنت أتوقع ذلك . أحسست بأنك إنما جئت لتحكمي عليّ ولم تأت صديقاً . وها أنت تقفين مع أعدائي . حسن ، لقد أدركت الآن أنك تزدربني مثلما يزدرونني . لماذا لا تقولي ذلك صراحة وجهراً بدل أن تتكلفي الوقوف إلى جانبي ، وتزعجيني طوال الوقت .

تحول وجه فلاديمير إلى أبيض شاحب كله غضب وبغض . لم تفهم فاسيا سبب تهجمه عليها . ولكنها لم تر فائدة في الرد عليه وهو في هذا الحال . وتمنت أن يتراجع عن هذا الكلام بعد حين . قال بصوت أكثر هدوءاً .

- لم أتوقع هذا منك بالذات يا فاسيا . ما كنت أعتقد أنك ستتخلين عني حين أكون في مثل هذه الورطة . من الواضح إنني أخطأت في حكمي على الأشياء . في أية حال ليذهب كل شيء إلى الجحيم . إذا انهار كل شيء فأتمنى لهم حظاً سعيداً ، أما بالنسبة لي فأني لن أبالي .

وبينما كان يتكلم قبض على الطاولة ، وقلب المزهريّة فسقطت أزهار الليلك وتناثرت على الأرض ، وانسكب جدول صغير من الماء على السجادة :

هتفت فاسيا :

- انظر ماذا فعلت؟

لوح فلاديمير ذراعه وسعى إلى النافذة وقف هناك وبدا مهدوداً مغتماً . شعرت فاسيا نحوه بالرتاء شأنها دائماً . فحياته ليست يسيرة ، وهي تعرف أن اختيار الحياة الصحيحة هذه الأيام ليس بالأمر الهين .

قالت :

- كفى يا عزيزي فولوديا ، عليك أن لا تكتئب . فلا يزال لديك متسع من الوقت ولا بد أن يجري تحقيق حول القضية . ليس ثمة تهم جنائية ضدك

وهذا يعني أن المشكلة تكمن في عاداتك القديمة: تجاوز القوانين. انتظر  
كي أرى اللجنة الحزبية لأعرف منهم تفاصيل القضية. من يعرف، لعل  
النتائج تكون على ما يرام في النهاية.

كانت تقف إلى جانبه ويدها على كتفه، محاولة أن ترنو إلى وجهه، إلا  
أن فلاديمير لم يلتفت إليها. بقي كئيباً مستغرقاً في أفكاره. شعرت بأنهما باتا  
بعيدين عن بعضهما، لاذت بالصمت. تبدد فرحها من قلبها تاركاً قلقاً  
عنيفاً.

في اليوم التالي سعت قاسيا إلى اللجنة الحزبية. لم تكن البلدة مألوفة إلا أن قاسيا لم تنتبه إليها وقد أصابها ما أصابها من اضطراب، ما كانت تُعنى في تلك اللحظة إلا ببلوغ مقر اللجنة بأسرع ما يمكن. كلما سألت فلاديمير عن قضيته ازداد اضطرابها. فالتهم الموجهة إليه - حتى ولو لم تكن صحيحة - خطيرة كبيرة. ولم تعرف قاسيا كيف يمكن لها أن تخلصه من هذه الورطة.

مكاتب اللجنة الحزبية تقع في منزل مستقل قديم، البيرق الأحمر بالشعار المؤلف يخفق خارج الباب - تماماً مثل العلم والشعار في مسقط رأسها. فجأة شعرت قاسيا بالفرح وأدركت كم هي مشتاقة إلى رفاقها القدامى. لقد عجزت عن اعتبار ضيوف فلاديمير شيوعيين حقيقيين. دلفت إلى الداخل وسألت الفتى الجالس إلى طاولة الاستعلامات عن الطريق المؤدي إلى مكتب الرئيس المحلي.

أجاب الفتى قائلاً:

- عليك أن تكتبي اسمك ومرادك أولاً. قد يراك اليوم، وقد لا يراك قبل يوم الخميس.

كم تبغض قاسيا هذه البيروقراطية. جلست وراحت تملأ القسيمة.

قال الفتى للساعي :

- خذ هذه القسيمة إلى السكرتير:

ثم التفت إلى فاسيا وقال :

- ارتقي الدرج ثم انفتلي نحو اليمين واعبري الممر قاصدة غرفة كتب عليها «الاستقبال». عليك أن تنتظري هناك .

بدا الفتى ضجراً إلى أقصى الدرجات . وفجأة أشرق وجهه حين وقع بصره على فتاة تلبس تنورة قصيرة وقبعة حديثة الطراز . هتف الفتى :

- هيه مانكا، ماذا تفعلين هنا؟

طرفت عينا مانكا وقالت :

- جئت لأرى بعض الأصدقاء . ولماذا لا أزور مكتب لجننتكم؟

تأملت فاسيا الفتاة وتفحصتها بنظرة شاملة فأدركت أنها مومس . اعتصرها انقباض مزعج . في الأيام الخوالي ما كانت مومس لتجرؤ على الاختلاف إلى اللجنة الحزبية لترى أصحابها .

بينما كانت فاسيا تجتاز الممر ذا الأضواء الباهرة مر بها عاملات وعمال يندفعون في شتى الاتجاهات . بدا وكأن الجميع لهم قضايا وأعمال يرغبون في انجازها . فشعرت فاسيا بأنها كسولة متعطلة عن العمل . عندما دلفت إلى غرفة الانتظار سئلت عن اسمها من قبل سكرتير خاص ، وهو شاب ذو وجه ناعم يوحى بالمباهاة بنفسه . سجل اسمها في دفتر التسجيل الذي تحتفظ به فتاة محدودبة الظهر .

- سوف تتأخر مقابلتك قليلاً، فقضيتك ليست مستعجلة طارئة . عليك بالانتظار.

أخذت فاسيا مجلسها وانتظرت مع الآخرين . عمال بوجوه ناحلة

وسترات باهتة كانوا يتباحثون مع بعضهم - لعله وفد عمالي ما - . ثمّة  
رجل مديد القامة أنيق بنظارة يقرأ صحيفة، يبدو أنه خبير ما. وثمة امرأة  
عاملة عجوز تغطي رأسها بمنديل تجلس صامتة ساكنة تتهد بين الحين  
والآخر وكأنما تصلي من أجل أن تُغفر لها خطاياها.

إلى جانبها يجلس جندي ممتلىء من الجيش الأحمر، إلى جانبه تجلس  
امرأة عجوز فلاحه تتدثر بمعطف روسي، إلى جانبها كاهن يرتدي الغفارة .

ما إن تساءلت فاسيا أي شيء دفع هذا الكاهن إلى المجيء هنا،  
هتف السكرتير:

- دورك أيها الأب .

قاد الكاهن إلى مكتب الرئيس والتفت نحو الآخرين قائلاً بثقة :

- إنه رجل ذكي جداً وقد نستفيد منه كثيراً .

بين الحين والآخر كانت فتيات ذوات شعر قصير وفساتين باهتة  
يدخلن بسرعة (لا بد وأنهن شيوعيات) وكن مشغولات وفعالات ويحملن  
تقارير لتوقع أو أسئلة يوجهنها للسكرتير وبعد التباحث معه همساً يهرعن  
إلى الخارج مرة أخرى . دلفت إلى الغرفة امرأة تبدو وكأنها ارستقراطية .  
ورغم أنها ليست عضوة في الحزب، فإن فاسيا عرفت أنها زوجة عامل ذي  
مركز متقدم . طلبت أن تقابل الرئيس فوراً، قالت إنها تحمل رسالة من  
عضو في اللجنة المركزية . إنها جاءت من موسكو وليس لديها وقت  
لانتظار . للوهلة الأولى كان السكرتير صارماً معها، ولكن حين رأى  
رسالة اللجنة المركزية تردد . لكنه قال ليس بوسعه أن يتجاوز القوانين .  
وبما أن هذه القضية شخصية فهل تفضل وتجلس بانتظار دورها .

ثار ساكن السيدة manquee - هكذا أسمتها - فاسيا في نفسها .  
وأوضحت أنها تحتقر هذا النظام هنا في الأقاليم! لو كانت في موسكو

لسمحوا لها بالدخول فوراً. في موسكو الجميع يناضل ضد البيروقراطية. ولكن انظروا إلى هذا المكان. انظروا إلى هؤلاء المسؤولين الصغار، بكل القوانين والتعليمات التي اخترعوها. جلست ممتعضة وسوت كمها بدقة.

ثم اندفع رجل عملاق فظ يعتمر قبعة على مؤخرة رأسه ومعطفاً محلول الأزرار، تأملته فاسيا فقدرت من فورها أنه nepman.

- أيها الرفيق السكرتير، إنني أسألك، أي نظام هذا؟ وقتي ثمين لكل دقيقة ثمنها. ثمة حولة في طريقها الآن إلينا، بينما أنتم لا تقومون إلا بتأخيري هنا ولا تشتغلون إلا بالتوافه وترغموني على ملء القسيمة تلو القسيمة. أرجوك أن تعلن للرئيس عن قدومي الآن. اسمي كوندراشيف.

فكرت فاسيا أن هيئته تنم عن ثقة ورضا أبلهين. وقد يحسب المرء - نتيجة تصرفاته - أنه لينين نفسه. واستولى عليها شعور يبغض البورجوازية الناهضة. خري بهم أن يعتقلوا هذا الرجل بالذات وزجه في السجن، هذا الوجه المتغطرس الممتلىء

اعتذر السكرتير. قال إنه يتقيد بالتعليمات. إلا أن الرجل لم يلتفت إلى هذه الحجة، وواصل الحاحه مطالباً بالدخول. في النهاية نال مراده إذ قام السكرتير وبلغ الرئيس بوجوده. وعاد السكرتير من فوره وبدا مرتبكاً. قال بصوت كسير:

- الرفيق يسألك أن تنتظر. إنه سيرى مراجعيني قبل أن يقابلك كليهما. يحمل قضية طارئة.

- ما معنى هذه التعليمات اللعينة بحق الجحيم؟ حاولوا أن تتعاملوا مع هؤلاء الناس فتروا أنهم لا يقومون بأي شيء سوى توسل مجموعة طلبات سخيفة، ثم يتناولون عليك ويشتموك متهمين إياك بالتخريب. ولكننا نعلم من هم المخربين الحقيقيين، أليس كذلك؟

جفف عرق جبينه بمنديله واتخذ مجلسه متناقضاً. رمقته «السيدة» بنظرة مستحسنة. ورمقه «الخبر» بنظرة انتقادية مراقبة من وراء الصحيفة. أما العمال فقد ظلوا مستغرقين في قضيتهم، وبالتالي غافلين عما يحدث. جاء دورهم.

أحببت فاسيا ضجر الانتظار، فسعت نحو النافذة ورننت إلى الحديقة حيث يلعب طفلان ويلاحقان كلباً. رنت أصواتهم الصبيانية:

- شد ذيل بويكا. سوف ينبح لكنه لن يعرض. اقبض عليه. بسرعة.

أخيراً جاء دور فاسيا فدلقت إلى غرفة الرئيس. وراء مكتب كبير يجلس رجل ملتح الذقن ويضع نظارة طبية على عينيه. بدت عظامه وكأنها ناتئة من كتفيه الناحلين الضامرين. رمق فاسيا بنظرة لا تخلو من فتور، ومد يده مصافحاً دون أن يتكلف الوقوف.

- بماذا أستطيع مساعدتك؟ هل الأمر شخصي؟

سألها بصوت محايد - إذ كانت بالنسبة له مجرد حاملة عريضة أخرى - قالت فاسيا وقد قر قرارها على أن لا تطرح قضية فولوديا من فورها إذ أنها قضية معقدة:

- جئت لأقدم نفسي للجنة. وصلت إلى البلدة منذ زمن قصير.

- نعم، بلغني ذلك. هل ستبقين معنا هنا فترة طويلة؟

- لدي إجازة شهرين. ولكن بما أني مريضة فقد أمكث هنا فترة أطول في الأغلب.

- هل تهلدين إلى الراحة أم ستعملين؟

سألها دون أن ينظر إليها إذ كان يقلب الأوراق أمامه وكأنما يقول ليس لدي الكثير من الوقت لأبدده في أحاديث صغيرة ثانوية مثل هذه.

أجابت فاسيا :

- ليس بوسعي أن أقوم بعمل دائم . لكن بوسعكم الاعتماد علي في الاعلام .

- نعم ، قد نستخدمك . سوف نبدأ الأسبوع القادم حملة حول تحويل نظام الميزانية المحلية . بلغني أنك خبيرة في حقل الإسكان .

رنا إلى فاسيا ثانية ثم غرق في أوراقه مرة أخرى .

أجابت :

- لقد عملت في دائرة الإسكان طوال سنتين . ونظمت منزلاً جماعياً .

- صحيح عظيم . في هذه الحالة . بوسعك أن ترينا كيف نجعل منازلنا الجماعية مشروعات ذات مردود .

قالت فاسيا وهي تهز رأسها سلباً :

- عفواً لكنني عاجزة عن ذلك . إذ أن مشروعنا انهار ما إن أصبح مكتفٍ ذاتياً . أعتقد أن منازلنا الجماعية ينبغي أن تكون أشبه بالمدارس ، أماكن توحى بالروح الشيوعية .

قاطعها قائلاً :

- استمعي إلي ، ليس لدي وقتاً أضيعه على مثل هذه المسائل . ولكن إذا كان بوسعك أن تقترحي علينا كيف نتناول هذه المسألة - فضلاً عن تقدير مادي للتكاليف وغيره - فإن ذلك يساعدنا في تخفيض ميزانية المقاطعة . . . إذن أنت تعتقدين أن الإسكان يمكن أن يستخدم كوسيلة لتثقيف الناس ، أليس كذلك؟ ولكن نحن نملك مدارس لمثل هذا الهدف ، بل وجامعات أيضاً .

أطلق الرئيس ضحكة متعالية من قمم حكيمته . فشعرت فاسيا بالغضب وانتفضت واقفة لتصرف .

- وداعاً يا رفيق .

- إلى اللقاء .

قال ذلك ورمقها بنظرة متفحصة . ردت علي نظرتة هذه بنظرة باردة ثابتة . قال مقترحاً :

- وإذا أردت أن تعلمي في دائرة الدعاية فما عليك إلا أن تذهبي وتسجلي .  
ولماذا لا تذهبي إلى الدائرة النسائية أيضاً؟ إنهن بحاجة إلى مزيد من  
العاملات دليلاً .

قالت فجأة :

- وبما أنني هنا أود أن أسأل عن قضية فلاديمير ايغانوفيتش .

وحدقت إلى الرئيس بنظرة ثابتة لو نطقت لقلت أعرف أنك وراء  
هذه الاتهامات .

- نعم، حسن، آ . . آ . . كيف أفسر لك الأمر؟

قطب الرئيس ونحى سيجارته إلى زاوية فمه المائل واتخذت ملامحه  
فجأة هيئة الجد :

- اسمعي ، لقد سمعت عنك ، أنت رفيقة حزبية وكادر متقدم . وليس من  
اللياقة أن أبحث معك قضية فلاديمير ايغانوفيتش .

- ولكن ما هي التهم التي وجهتها إليه؟ لا يمكن لفلاديمير ايغانوفيتش القيام  
بأي عمل إجرامي .

- حسناً، أعتقد أن ذلك يعتمد على مرادك من معنى إجرامي ، أليس  
كذلك؟ في أية حال، لا يسعني أن أبحث القضية معك . عليك أن  
تبحثي عن المعلومات في لجنة المراقبة .

هز رأسه لها ثم دفن نفسه مرة أخرى في الأوراق . ولاحظت فاسيا أن  
ملامحه لو نطقت لقلت : لا تزعجيني الآن، إنني مشغول .

انصرفت فاسيا والغضب والخيبة يملآن نفسها. لا يُستقبل الناس في مسقط رأسها بهذه الطريقة، ولا حتى غير الحزبي. لقد مضت إلى هناك لتتحدث مع رفاقها فإذا بهم يعاملونها وكأنها غريبة.

كان فلاديمير على حق حين قال إنهم تحولوا إلى موظفين صغار يتصرفون مثل حكام العهد البائد. كانت فاسيا تمشي مستغرقة في أفكارها حتى إنها اصطدمت بشخص يمشي في الاتجاه المضاد. وإذا به صديقها القديم ميخائيلو بافلوفيتش، العامل في قسم الآلات التابعة للمصنع حيث كانت تعمل فاسيا أيضاً.

هتف:

- لا أصدق عيني. قالسا عزيزتي.

قالت:

- ميخائيلو بافلوفيتش، صديقي العزيز.

تبادلا القبل وتعانقا:

- إذن أتيت لتقيمي مع زوجك، أليس كذلك؟

- وماذا تفعل أنت هنا؟

قال ضاحكاً:

- جئت لكي أظهر الحزب. إنني عضو في لجنة المراقبة. إنه عمل يستغرق وقتي كله، فثمة أوضاع مشبوهة علينا معالجتها.

كان له لحية حمراء ووجه رقيق وحماسته لم تفتر منذ عرفته فاسيا. تبادلا الأخبار والأسئلة فرحين باللقاء.

أصر ميخائيلو بافلوفيتش أن تصحبه فاسيا إلى منزله. وهو غرفة بواب يقيم في بيتٍ كان ملكاً لأسرة أرستقراطية. كانت الغرفة متواضعة تحتوي على سرير وسلّة إلى جواره تتضمن أشياءه، ومقعدين وطاولة مجللة بصفحات الجرائد، وبضعة كؤوس وتبع. لقد كان ينوي أن يقيم هنا

مؤقتاً وإذا بالمؤقت يتحول إلى دائم .

استحضرا ذكريات أصدقاء ورفاق قدامى ، وتذكرا بلدتهم ، تحدثا عن القيم التي ازدهرت وتطورت والقيم التي هوت إلى الحضيض . ثم دار الحديث حول الخطة الاقتصادية الجديدة . فامتعض ميخائيلو من الاسم وأخبرها أنه هو أيضاً لا يميل لرئيس اللجنة المحلية . قال :

- إنه من الذين وثبوا فجأة إلى السطح . إنه مجرد مدعٍ صغير . لكنه يعمل بجدية ونشاط ، وهو ذكي واع . لكنه يحصر المسؤوليات في شخصه . وكأنما يرغب في تسليط الأضواء على اسمه ليثبت للجميع أنه الرئيس . والعمال يعرضون عن تصرفه . ويقولون : «المؤتمر قرر على المزيد من الديمقراطية ، فإذا بنا إزاء مزيد من البيروقراطية وكلف واحترام مفرطين للرتب . ثمة كثير من التآمر والخداع والمكائد تجري في الخفاء هذه الأيام . وهذا يعني وجود تكتلات وتجمعات جديدة ، وبالتالي يتأخر العمل وسلطة الحزب تتعرض للتقويض والاستهتار . موقع الرئيس يفرض عليه أن يوحد الجميع ، عليه أن يكون محايداً وموضوعياً مثل أب . ولكنه بدلاً من ذلك يضطهد الناس ويقمعهم» .

- اسمع يا عزيزي ميخائيلو بافلوفيتش ، أي مسار تأخذه قضية فلاديمير؟ بوسعك أن تخبرني كصديق .

مرر ميخائيلو بافلوفيتش أصابعه في لحيته وأطرق متفكراً ثم أنبأ فاسيا أن القضية بحد ذاتها لا تساوي كوبيكاً واحداً . ولو أن الشيوعيين يُدفعون إلى المحاكمة نتيجة تهم شبيهة بالتهم الموجهة لنشاطات فلاديمير لما ظل شيوعي واحد بلا محاكمة .

لقد بدأ كل شيء منذ وصل فلاديمير إلى هنا . فقد ساءت العلاقة بينه وبين الرئيس الذي راح يأمره بطريقة منفرة منذ البداية . إذ إن فلاديمير رفض هذه الأوامر . فقد قال فلاديمير : لا شأن لي بقوانينك . قد يكون

هذا خط الحزب، لكنني لست تابعاً لك. لن أتعامل إلا مع السلطات الصناعية. فليحكموا هم على عملي.

ولقد بلغت التقارير التي تناول هذا الخلاف إلى موسكو وعمدت لجنة موسكو الحزبية إلى حماية المدير وتكلف الوقوف إلى جانب الرئيس وبالتالي لم تحسم القضية. . وبدوا كأن كليهما على حق.

ولكن ما لبثت نتائج الخلاف أن تفاقمت وتمسك كل بموقفه بعناد. وكان كل منهما يلجأ إلى كتابة تقرير في الآخر وارساله إلى موسكو ما إن يحدث أي خلاف مهما كان بسيطاً.

وأخيراً عمدت موسكو إلى إرسال وفد لحسم المسألة. واتخذت قرارات حازمة ذات لهجة قاسية. ولكن ما إن انصرف الوفد مغادراً حتى عاد النزاع على أشده. عند ذلك دُعيت لجنة المراقبة للتحقيق في هذه المسألة. وقد عزم ميخائيلو بافلوفيتش على تسوية القضية سلمياً. قال إن المدير يدير الأمور حسب ما يرتئي هو. وهذا صحيح في حقل الصناعة، وأن اللجنة المركزية للحزب راضية عن عمله.

لم تكن هناك اتهامات مباشرة ضد فلاديمير. ورأى ميخائيلو بافلوفيتش أن قذف فلاديمير بالتهم أمر مستبعد. وقال للجنة إنه شخصياً يعرف هذا «الأمريكي الفوضوي»، وإنه عاش معه في نفس البلدة في العام ١٩١٧ حيث كانا يعملان سوياً. فحتى لو كان يجيا حياة مترفة إلى حد ما في هذه الأيام، وحتى لو كان تواصله غير معتدل وتصرفاته «غير رفاقية»، حسناً، من يستطيع أن يزعم أنه لا يعاني من هذه التهم في هذه الأيام؟.

إلا أن الرئيس وبعض أعضاء اللجنة الحزبية أصروا على أن تحال هذه القضية على جهة تناولها بجدية، وعلى أن يجعلوا من هذه القضية عبرة لمن يعتبر. فهم لا يرغبون في أن يصفح الحزب عن مثل هذه التصرفات.

سألته قاسياً بذهول:

- ولكن ما هذه «النشاطات» التي أشرت إليها أكثر من مرة.

أعرف أنه يملك شقة فاخرة، ولكن هذا ما يحصل عليه أي مدير على حساب الدولة.

- المسألة لا تتعلق بشقته، الناس يتساءلون من أين له المال ليقوم مؤسستين مختلفتين.

سألت قاسيا مغضبة:

- ماذا تعني بمؤسستين مختلفتين؟ هل تعتقد أن فلاديمير إيفانوفيتش يعيلني أيضاً؟ أية فكرة هذه! لتعلم إذن أنني كنت أنفق من نقودي على شؤون المنزل. وذلك لأن فلاديمير يعوزه المال الكافي. وهو إنما يقيم كل هذه الولايم في سبيل مصلحة عمله.

أصغى ميخائيلو باقلوفيتش لحديثها وهو يرمقها بنظرة مشفقة مما ضاعف من غضب قاسيا. لماذا يرثي ووقوفها مع زوجها الفوضوي؟ كانت تعرف أنه لم يوافق في البداية حين بدأت تحيا مع فلاديمير.

- لماذا تحددق إلي بهذه النظرة؟ ألا تصدقني؟ كيف تظن أنني أنفق من ماله؟

أجاب برفق:

- ولكننا لا نتحدث عنك يا عزيزتي. المشكلة الأساسية تكمن في أصدقائه غير المناسبين.

وحددق إليها كأنما يريد أن يجس ردة فعلها. سألت:

- هل تعني ساقيليف؟

- ساقيليف وغيره أيضاً.

- لكن ساقيليف ما عاد يختلف إلى منزلنا الآن، وقد وعدني فلاديمير أن

يقطع علاقته معه - بإستثناء العلاقة التي يفرضها عمله . ووعدني ايضاً أن لا يستقبل الآخرين إلا بشأن العمل فقط . ثمة كثير من الناس الذين لا يميل إليهم والذين يعيشون في عالم مختلف تماماً عن عالمنا . ولكن ما العمل وكيف يتحاشى هؤلاء المساهمين والتقنيين وهم جزء من عمله؟

غمغم ميخائلو بأقلوقيتش بشرود وهو يمسّد لحيته :

- صحيح يا عزيزتي ، صحيح .

وراحت قاسيا تحدّثه عن الأمور التي تجد أنه من العسير عليها التكيف معها هذه الأيام . لقد تغير الناس ، وكذلك العمل . وأحياناً تشعر بالحيرة ولا تكاد تميز أين الخطأ وأين الصواب ، فيما يتعلق بالطريقة التي ينبغي على الشيوعي أن يتصرف بوحياها وما ينبغي أن يعرض عنه . . . ولكانت جلست إليه وناقشت معه هذه الأمور لفترة أطول لولا أن جاء صديق ليصطحبه إلى لجنة المراقبة .

قبل أن ينصرف قال ميخائيل بأقلوقيتش أنه سيعرّف قاسيا إلى بعض «الرفاق» في أحد المصانع وأنه سيفكر في قضية فلاديمير بشكل جدي .

كان فلاديمير ينتظرها بفارغ الصبر قرب النافذة ، إذ ما أن عادت حتى سعى إلى الرواق ليستقبلها .

- أخيراً عدت يا قاسيا المتمرّدة! أين كنت تكافحين؟ عند اللجنة الحزبية؟ ماذا قالوا لك إذن؟

أثناء حديثها راح هو يذرع الغرفة قلقاً يدخن .

- إذن يتهمونني بالحياة في مؤسستين ، أليس كذلك؟ يا لهم من منافقين ومحتالين . وما شأنهم هم - لو عشت في خمس مؤسسات؟ ما شأنهم ما دامت حساباتي صحيحة وطلما أنني لا أسرق البضائع أو أرتشي .

هذا الحديث عن مؤسستين أزعج قاسيا إزعاجاً شديداً . ولكنها كانت

تشدد على سافيليف. على العلاقة أن تقطع فوراً وبطريقة حاسمة. فإذا ما جاء إلى مكتب فلاديمير كان عليه أن ينصرف في اللحظة التي ينتهيان فيها من مناقشة الأمور المتعلقة بالعمل. ثم سألت فلاديمير عن عماله. هل صحيح أنه يشتمهم ويصرخ في وجوههم؟

صرخ:

- إشاعات تافهة. قدرة. طبعاً. في بعض الأحيان أصرخ في وجوههم، ولكن لأسباب وجيهة. فلا فائدة في معاملة بعض هؤلاء معاملة مسرفة في اللين والمرونة، وخاصة الحمالين. انهم مجموعة من الكسالى والطائشين.

لم تنبئه قاسيا بأن الحزب يفكر بفصله. بدلاً من ذلك، عازمت على أن تبادر فتقوم ببعض التغييرات في البيت. منذ الآن لن يكون ثمة ضيوف يترددون إلى البيت، وسوف يأكلان ببساطة، إلى ذلك سوف تبيع الجواد الذي اشتراه فلاديمير. إذ ما فائدة الجياد ما دام المرء يملك سيارة؟ حين اقترحت هذا الاقتراح على فلاديمير إستشاط دمه وقال إنه جواد جيد وأنه مروض لحمل سرج سيدة أيضاً. من النادر العثور على جواد مثله هذه الأيام. لقد عثر عليه صدفة ولحسن حظه. وما كان باهظ الثمن. الجواد يعني رأسمال هذه الأيام.

- رأسمال! هل تنوي أن تنطلق في العمل كرأسمالي. عليك أن تتخلى عن عادات التبذير يا عزيزي، وإلا ندمت فيما بعد.

- إذن أنت تعتقدين أنهم سيفصلوني من الحزب، أليس كذلك؟ ماذا حل بالحزب حتى يبدأ بفصل الناس بسبب أخلاقهم؟ فليفصلوا، إنني لا أكثر. سوف أقصر عملي على مؤسسات الدولة.

لم تحاول قاسيا أن تنقض أقواله. ولكنها ألحت على تغيير أسلوب حياتها - ينبغي أن يعيشا بطريقة أكثر تواضعاً. وعليه أن يقطع علاقاته مع أصحابه غير المناسبين وهذا هو الأهم. وعدته أن تناقش موضوعه مع

ميخائيلو باقلوفيتش مرة أخرى، بل والسعي إلى موسكو إذا إقتضى الأمر  
وبحث المسألة مع توربوركوف، وهو الذي ساعد على تبرئته من التهمة  
السابقة .

رنا فلاديمير إلى قاسيا الجالسة على حافة النافذة، وكانت شاحبة وناحلة  
ووجهها ضعيف وعينيها الواسعتين حزيتين .لقى سيجارته على الأرض،  
ودنا منها فقبلها ضاغطاً بوجهه على وجهها .

- قاسيا يا حبيبتى، لا تتخلي عني . ارجوك أن تساعديني، قولي لي ماذا  
أفعل . أعرف أني كنت مخطئاً . ولكنني أخطأت بحقك لا بحقهم .

- ولكن ماذا فعلت يا فولوديا؟

- آه يا قاسيا، ألا تفهمين حقاً؟ ألم تعرفي حتى الآن؟

- إذا كنت تتكلم عن خيانتك لنفيسك ولطبقتك، فلا داعي للتبرير .

تنهد وابتعد عنها متفطر القلب . ثم انثنى عن الموضوع فجأة وسأل :

- لماذا لم يُعدّ طعام العشاء حتى الآن؟ إنني جائع . لم أحب طعاماً منذ  
الصباح .

عمد ميخائيلو باقلوفيتش بعد اللقاء الأول إلى المعارفة ما بين قاسيا  
ومجموعة من النساء اللواتي يعملن في صنع الحصير ومهد لإتصالها بهن .  
فبدأت تختلف إلى المصنع لمساعدتهن في تحسين أوضاعهن . كانت العودة  
للعمل بين الناس بهجة حقيقية بالنسبة لها . كأنها الآن في مسقط رأسها .  
والتقت ميخائيلو باقلوفيتش ونشأت بينها وبين أصدقائه علاقات حسنة  
ورأت أنها تشترك معهم في الآراء . كان هؤلاء الرجال متفقيين - دون أن  
يتكلموا - على مهاجمة رئيس اللجنة وما كانوا يحترمون مديريهم . ولكنهم  
يحترمون عاملاً قديماً لم يفقد صلته بالجماهير ولم يعمد إلى التصرف كرب  
عمل . وكانوا قد انتخبوه مديراً لصناعة صب الحديد .

قضية قلاديمير لم تحل بعد، وحسب ميخائيلو بافلوفيتش فان إثباتات جديدة قد أنكشفت. ونبه قاسيا إلى أنها إثباتات ليست في مصلحة قلاديمير.

منذ الآن، على قلاديمير أن يكون حذراً وأن يتحاشى أي تعامل مع ساقيليف خاصة وأن الأخير متورط في قضايا قدرّة. ومهما احتجت مؤسسات الدولة، فمن الواضح ان الـ GPU عازمة على معاقبة هذا الرجل هذه المرة.

امتلأت نفس قاسيا بالقلق خوفاً على قلاديمير. بدت لها الأمور غير عادلة، خاصة وأنه قد بدأ يعمل منذ الصباح حتى الليل. وفي اللحظة التي يعود فيها إلى البيت يجلس إلى دفاتره. لقد تلقى تعليمات من المركز الحزبي تطالبه بإعادة تنظيم عملية مسك دفاتر حسابات المؤسسة.. فأرسل في طلب موظف في البنك ليساعده في هذه المهمة. فكانا يجلسان إلى الملفات حتى الساعة الثالثة صباحاً. وبدأ نومه يضطرب ووزنه يتضاءل وما هذا بالأمر المستغرب إذ تضاعف حملة وكثرت مسؤولياته. فإلى هذه المهمات الجديدة الهامة، كان عليه أن يتحمل كل هذه المكائد الغادرة. نرف قلب قاسيا من أجله، ولم تملك إلا أن تشعر بالغطف نحوزوجها الضحية المسكين.

ما عادا يستقبلان الضيوف، وتوقفا عن ذكر ساقيليف وعلما أنه قد غادر هذه المنطقة. كف قلاديمير عن الاختلاف إلى المسرح والتردد على الأصدقاء واكتفى بالبقاء مساء في البيت مغتماً منشغلاً. وجهدت قاسيا في محاولة انتشاله من مزاجه الكئيب هذا والتخفيف من عبء مهماته. ولم تنجح في إبعاده عن بالها إلا حين كانت تجتمع بنساء مصنع الحُصر. كانت حيواتهن عسيرة صعبة. رواتبهن خفيضة متدنية، ونتيجة لعدم وجود وقت كاف لم تُراجع رواتبهن رغم انهن يستحقنّ الزيادة. ولم يزد تدخل الادارة لمصلحتهن الأمور إلا سوءاً مما أثار حنق قاسيا. فراحت تضغط على السلطات وتناضل في سبيل مصلحة النساء. فضلاً عن أنها ساعدت في دفع نقابة النساء إلى الأمام كي تقوى على رفع قضيتها إلى لجنة التحكيم. عندما تكون قاسيا في المصنع فإنها تندفع هنا وهناك ناسية العالم الخارجي تماماً، إلى

أن يحين وقت العودة إلى المنزل .

وكانت تتمشي مع ليزا سوروكينا . (المنظمة) وهي فتاة شديدة الذكاء - وقد أقامت قاسيا معها علاقة صداقة حميمة . كانتا تتبادلان الحديث أثناء تسيارهما، فتفرضان خطة تحركهما وتتناقشان في أيهن الفضلى لعرض قضيتهن أمام لجنة التحكيم . والوقت يمر بسرعة حتى أنهما كانتا تبلغان بيت قاسيا دون أن تلاحظ هي ذلك .

ذات يوم عادت من اجتماع فاستقبلها فلاديمير . بدا وكأنه شخص مختلف، يتوهج بالسعادة ضمها وقال :

- عليك أن تهنيئي يا قاسيا . إستلمت لتوي رسالة من موسكو تعلمني بأني عُينت في مركز جديد . بكلمة أخرى لقد رُفعت . سوف أكون مديراً مسؤولاً عن منطقة كاملة منذ الآن . ما عليّ سوى البقاء هنا لشهرين ثم أمضي . سنسخر من لجنة المراقبة الآن، تُرى بماذا سيعلق الرئيس الآن؟

لكن قاسيا حذرتة :

- لا تبتهج منذ الآن . لعل التهم تحول بينك وبين الترقية .

- كلام فارغ ستكف اللجنة الآن عن مضايقتي . اتضح انهم بحاجة إلي للعمل .

كان جذلاً كصبي صغير . أضاف وهو يعانقها :

لقد احضرت لك هدية صغيرة احتفالاً بهذه المناسبة .

قاد قاسيا إلى غرفة النوم، وإذا بقطعة من الحرير الأزرق على السرير وإلى جوارها بعض الشاش .

- انظري، بوسعك أن تخيطي من هذا الحرير ثوباً جميلاً يا حبيبتي، بوسعك الآن أن تتأنقي . إن هذا اللون الأزرق - الرمادي يناسبك . أما هذا الشاش فتخيطينه قمصاناً .

تعجبت قاسيا وقالت ضاحكة :

- قمصاناً! من هذا القماش؟

ألح قائلاً:

- هذا أفضل شاش نسائي . أعرف أنه يستخدم كملابس داخلية، ولكني أتمنى عن إرتداء هذه القمصان الشعرية أنها تذكرني بالبالونات .

- ولكن لا بد أننا نستطيع أن نخيط منها شيئاً أفضل من القمصان .

أما بشأن الحرير فصحيح أنه جميل ولكن حرّي بك أن لا تشتريه . هل دفعت ثمنه نقداً؟ كيف تنفق نقودك على مثل هذه الأشياء؟

هزت رأسها، إذ لم تثر هدايا قولوديا في نفسها بهجة ولا سعادة . لقد أزعجها تبذيره . لكنها رغبت عن جرح مشاعره .

سأل قولوديا :

- ألم تعجبك إذن؟

- إنها قطعة جميلة . ولكن يا قولوديا عليك أن ترى أنها لا تناسبني .

- ولكن ماذا سترتدين إذن عند ذهابنا إلى المسرح؟

- إذن هذا ما ينبغي أن ترتديه زوجة المدير إذا ما قصدت المسرح، أليس كذلك؟

تصورت نفسها مرتدية هذا الثوب فانفجرت ضاحكة :

- شكراً يا جيببي على لطفك .

وقفت على اصابع قدميها وعانقت قولوديا وقبلته .

- إذن لم تنسي كيف تقبلين يا قاسيا . اعتقدت أنك ما عدت تحبين زوجك المسكين . بعد أن صرفتني من الغرفة وانقطعت عن تقبيلي .

- ولكنك تعلم يا قولوديا أن كلينا كان يفتقر الى الوقت - كنت مشغولاً بإستمرار.

سأل:

- إذن لا تزالين تحبيني؟

- كيف لي أن اتوقف عن حبك؟

- هل تريدان أن أذكرك كيف كنا نمارس الحب؟

سألها، فانفجرا ضاحكين وكأنهما التقيا أخيراً بعد فراق طويل.

في اليوم التالي وبينما كانت قاسيا على وشك المضي الى المصنع تذكرت كتاب بوخارين الف باء الشيوعية والذي كانت قررت أن تأخذه معها. كان على رف كتب قولوديا، فهرعت عائدة إلى غرفة المطالعة لتأخذه. عندما فتحت الدولاب سقطت علبة على الأرض. انحنت قاسيا لتلتقطها وإذا بقلبها يخفق خفقاً متداركاً. فقد وقع بصرها على قطعة قماش من الحرير الأزرق مطابقة تماماً للقطعة التي اشتراها فلاديمير لها، ومع نفس الشاش أيضاً. راودتها أفكار قاتمة باهتة: «إنه يحيا في مؤسستين» أيعقل أن يكون ذلك صحيحاً؟ فزعت من مجرد التفكير في هذا الأمر. غمرتها موجة من الشكوك والغيرة. «إنه يحيا في مؤسستين...» من الواضح انه بات غريب الأطوار مؤخراً، فهو يتصرف كأنه غريب عنها حيناً فلا يكاد يتعرف إليها، ويبالغ في التودد اليها تارة أخرى. وكأنما يشعر بالذنب تجاه شيء ما.

وبدأت تتذكر كيف كان يفوح بالعطر كلما عاد من المسرح، وكيف يتألق أمام المرآة كلما همَّ بالخروج في المساء. وفجأة تذكرت ايضاً تلك الممرضة ذات الشفتين المكتنزتين، وبقعة الدم على الغطاء.

غام كل شيء أمام عينيها، شعرت بالخدر في يديها، وقبض وجع لا يوصف على قلبها. كيف يسعه أن يخدعها، وهي أعز أصدقائه! زوجها الذي تعبد ورفيقها، كيف يمارس الحب مع امرأة أخرى من وراء ظهرها بينما هي

هنا إلى جانبه . لو كانت تعيش بعيدة عنه لربما اختلف الأمر، إذ أنها لم تتوقع أن يُخلص الرجل لها دائماً. ولكن الآن، وبينما هي تمنحه كل حبها، كل حنانها، كل شيء، كيف يفعل ذلك؟

لعله توقف عن محبتها. عجزت عن مجرد التفكير في هذا الخاطر الذي لا يحتمل. وراحت تشد على القش بضراوة ناشدة شيئاً من العزاء. لو كان قد توقف عن حبها فعلاً فلم يعاملها إذن بكل هذا الإحترام والحب؟ ولماذا أرسل في طلبها أساساً؟ مستحيل - إنها صديقان وحبيبان وقد عانا الكثير معاً حتى باتا كائناً واحداً. ولكن هل هذا صحيح؟ أهي كارثة أخرى؟ إنها عاجزة عن تصديق ذلك بل هي ترفض التصديق.

ورغم ذلك.. لماذا لا يقضي إلا وقتاً نزيراً في البيت؟ ولم هو دائماً معذب مكتئب؟ لماذا فقد بهجته لرؤيتها؟ لماذا ينتهز أي فرصة، مثل سعالها على سبيل المثال، لينام منفصلاً عنها؟ رغبت في البكاء وهي تفكر في مثل هذه الخواطر. لكنها كانت مروعة إلى حد حال دونها وإدراك معاني هذه الخواطر إدراكاً كلياً. قالت لنفسها: كل هذا كذب، كذب. إنه يجبني، لا بد أن يجبني. ألم يمارس أمس الحب معي. لعل قطعة الحرير هذه ملك شخص آخر، لعله يريد أن يوصلها إلى شخص.. لماذا قفزت إلى إستنتاج قد يكون غير صحيح أي أن قطعة الحرير هذه له؟ حتى اسمه غير مكتوب عليها. لعل خيالها ابتدع القضية كلها.

وبدأت تشعر بالخجل من شكوكها فيه. فهي تشبه امرأة عجوز تراقب زوجها طيلة الوقت. ولكن رغم كل محاولاتها في بث مشاعر الطمأنينة في نفسها فإن ثعبان الغيرة واصل إزعاجه لها، ورغم كل محاولاتها فإنه لم ينصرف عنها. لا بد من تفسير بسيط. حين يعود فلاديمير سوف نسأله عن كل شيء، سوف يناقشان هذه المسألة، وستمنحه فرصة ليفسر الأمر. عند ذاك ستعرف الحقيقة. تناولت الكتاب ومضت إلى المصنع. وكانت قد تأخرت كثيراً.

بعد العمل سعت إلى البيت مسرعة، راغبة في عدم التأخر عن العشاء. وإذا كانت منشغلة في المصنع فإن الغيرة قد عاودتها ثانية ما أن وطأت قدمها الشارع. مؤسستان، قطعتان من الحرير، قطعتان من القماش. . . وكيف تسنى لفلاديمير أن يعرف أن النساء يلبسن ملابس داخلية من هذا النوع؟ لا شك في أنه استقى معلوماته هذه من العاهرات والسيدات اللواتي يملكن مالا يبذرنه.

وما الذي قاله عن قمصانها؟ قمصان تذكره بالبالونات. هل يكره قمصانها فعلاً؟ في الأيام الغابرة كان يجب أن تلبس هذه القمصان. ولكن في تلك الأيام ما كان ليمضي خارج البيت تاركاً إياها وحيدة رغم أنها قد جاءت للتو. ولو كان ذاهباً إلى إجتماع بالفعل كما يزعم فلماذا يتأنق هكذا أمام المرأة؟ ولماذا يعود والعطر يفوح منه؟ لماذا لم يعد يرنو إليها بنظراته البهجة القديمة المميزة؟

كانت تنشد جواباً، لمن قطعة القماش تلك؟ لماذا واراها في رف الكتب؟ لماذا لم يتركها على الطاولة؟ لو حاول أن يتحاشى أسئلتها أو عمد إلى الكذب فإنها لن تغفر له أبداً. ارتقت الدرجات بسرعة وقرعت الجرس. كانت السيارة تقف في الخارج - لا بد وأن فلاديمير قد عاد.

عليه أن يفسر لها هذه الأمور ما أن تراه. إذا كان يخدعها ويذلها كما يفعل أي زوج يذل زوجته التي لا يجب. . . مجرد التفكير بهذا الخاطر جعلها تتأجج بالغضب والإضطراب. آوه، لماذا تأخر في فتح الباب.

أخيراً صر المزلاج ثم فتحت ماريا سيمينوفا الباب. قالت لفاسيا:

- لدينا ضيوف من موسكو. ستة أشخاص. ست أفواه تتطلب طعاماً، أي إزعاج.

لم يسع فاسيا أن تتخمن من يكون هؤلاء الضيوف. ترامت أصوات إلى مسمعها من الصالة. كان فلاديمير يقوم بدور المضيف. فعارف ما بين

الضيوف وزوجته . وكان الضيوف من النقابة حضروا ومعهم خطط لبرنامج العمل الجديد . وتلهفت قاسيا لسماع آخر الأخبار من موسكو حول التطورات السياسية الأخيرة التي تشغل الجميع .

لكنها رأت ماريا سيمينوفا تقف بالباب تومىء لها خلسة . كانت بحاجة لمساعدة في المطبخ ، لقد أرسل قاسيا الساعي ليحصر نبذاً ، ومضى ايثنان ايثنان ليتش ليحضر المشهيات ، بينما حملت ماريا سيمينوفا المسكينة العبء كله . فهي تشرف على الشواء في المطبخ وتعد المائدة في آن معاً . وكان فلاديمير قد أمرها أن تعد كل شيء حسب الأصول . على قاسيا أن تساعدنا إذن . فهرعتا إلى العمل . وعاد إيثنان ايثنان ليتش فساعدهما . في هذه الأثناء تناست قاسيا مسألة التحرير الأزرق . ولم تركز سوى على أن لا تخذل قولوديا . فلا يسعه أن يُخرج أمام رجال النقابة الآن بعد أن أصبح مديراً . وسرعان ما هرعت قاسيا الأخرى إلى الداخل حاملة الخمرة ، ففتح إيثنان ايثنان ليتش الزجاجات .

بدأت المائدة وكأنها معدة لوليمة عيد الفصح . فقد ازدحمت فيها المشهيات والخمرة والزهور ومناديل موروزوف وأجود انواع السكاكين الفضية . دعوا الضيوف ليجلسوا إلى المائدة . رمق فلاديمير المائدة بنظرة متفحصة قلقة . ثم بدا مرتاحاً مطمئناً .

كان بوسعه أن يرنو إلى قاسيا بنظرة إمتنان خاطفة لإجهاذ نفسها في سبيل سعادته ورضاه . ولكنه لم يفعل ، مما بعث قلقها مجدداً . شعرت بأنها مرفوضة معزولة . تبادلت مع الضيوف أحاديث عادية ، لكن ذهنها لم يخل للحظة من قطعة التحرير الزرقاء . لمن هي يا ترى؟ بدأت ترى قولوديا بعينين جديدتين - وبدا لها كأنه غريب . فمن يخذعها هكذا ويكذب عليها . ويسمح لثعبان جحيمي أن يلج قلبها لا يمكن أن يكون إلا غريباً .

شُغلت قاسيا طوال ذلك المساء ، وأرسل الساعي ليجلب مزيداً من

الوسائد ليرتاح الضيوف في نومهم. وقضت معظم الوقت في ترتيب الأسرة في غرفة المكتبة وعيناها على رف الكتب المشؤوم. كانت قطعة الحرير الأزرق في مكانها وفاسيا لا تعرف من صاحبها. كانت مرهقة.

أعدت الشاي للضيوف الذين ما تحدثوا إلا عن قضاياهم الشخصية ومراتب السلع، وطرق رزم البضائع ومواصفاتها والتقدير المتعلقة بها. إنه عالم التجارة مرة أخرى. كل هؤلاء الرجال هم من التجار القدامى بما فيهم الشيوعيين اللذين أصبحا «تاجرين أحرين حقيقيين»، كان فلاديمير منتشياً في هذه الجلسة. تكلم بمباهاة عن عمله الذي فاق أعمال الآخرين نجاحاً والذي تزداد أرباحه شهرياً. وكان من الواضح أن التجار يخصصونه باحترام كبير، ويصغون باهتمام إلى كل كلمة يقولها غير ملتفت إلى ما يقوله المدراء الآخرون.

ولورأت فاسيا هذا الاعجاب في وقت آخر لفرحت لفلاديمير، لكنها اليوم بالذات لم تكثرث. ها هو يتحدث عن العمل، العمل متجاهلاً إياها تماماً. ألا يسعه أن يرى كم هي مرهقة، وكم تعذبها الغيرة؟

لم تستطع أن تقرر إذا ما كان قادراً على خداعها. لعله يخدعها في مجال العمل أيضاً. لعل اللجنة الحزبية على حق في محاكمته. أوه عم يتحدث هؤلاء النقابيون الآن؟ لم يتوقفوا عن الكلام طوال النهار. ليتهم ينصرفوا ويتركوها وحدها مع فلاديمير، فتسأله على قطعة القماش.

بدأت فاسيا تتهيأ للنوم. سينام فلاديمير معها إذ سيحتل الضيوف الغرف الأخرى. كانت بانتظاره، تصغي لوقع خطواته. وكان قد تمنى لضيوفه نوماً سعيداً وها هو يلقي أوامر اليوم التالي على إيغان ايغانوفيتش. حين سمعته يدنو من الباب راح قلبها يخفق خفقاً متداركاً واحست بركبتها تتخاذلان فجلست على السرير. عازمت على استجوابه فور دخوله إلى الغرفة.

لكن فلاديمير كان متشاغلاً بنفسه حتى أنه لم يمنحها الفرصة لتسأل.  
سألها هو رأياً في كيفية إعادة تنظيم البيروقراطية من أجل تقوية مواقع  
الشيوعيين ولسيطرة الحزب على النقابات البورجوازية.  
توسلها قائلاً:

- أشيري علي يا قاسيا فأنت خبيرة في هذه المسائل. هلا فكرت في الأمر؟  
غداً سوف أذهب معهم للبحث في العقد الجديد. أريدك أن تقرئيه بانتباه  
وتمعن. إن البورجوازيين يفعلون المستحيل في سبيل إنتهاك سلطة العمال  
وتخطيها. لكن لا أمل لهم فلا تقلقي. سوف نقضي على محاولاتهم هذه.  
ما علينا سوى إعادة تنظيم البيروقراطية حتى تعجز عن التحرك شبراً  
واحداً دون التعرض لعقوبة الحزب والشيوعيين الحقيقيين.  
تساءلت قاسيا:

- ولكن كيف تقول ذلك وأنت نفسك لا تنفذ تعليمات الحزب. ألم تقل من  
قبل أن فصلك من الحزب ليس بالكارثة وأنت لا تكترث.  
تضاحك فلاديمير وقال:

- لا عليك بما قلته، فقد قلته بعد أن فقدت أعصابي.

أنت تعرفين حقيقة مشاعري. كيف لي أن أعيش دون الحزب؟ هل  
تعتقدين حقاً أنني قادر على العزوف عنه؟

راح يخلع نعليه وهو يفكر بصوت مرتفع:

- حين تجاوز هذه القضية السخيفة سوف نعيش معاً بطريقة مناسبة.  
وسوف ترين بنفسك اني سأصبح شيوعياً نموذجياً بعدما ينقلوني إلى  
المقاطعة الجديدة. ولن تتكرر مجاهاتي مع الرئيس. بل وإنني سوف اصبح  
في «بانتيون» الحزب.

كان سعيداً، عيناه مضيئتان، وكأنه ليس نفس الشخص صاحب المزاج  
الناري . قال :

- لناوي إلى الفراش .

كان على وشك إطفاء النور حين استوقفته قاسيا .

- لا أرجوك انتظر لحظة، إنني . . ثمة ما أريد أن أسألك عنه . .

تلعثمت وهي تنهض وتتكىء على مرفقها لترى وجه فولوديا بطريقة  
أفضل كان قلبها يخفق بعنفٍ وبدا صوتها غريباً . مما أثار حذر فلاديمير  
وقلقه .

قال مشيحاً بوجهه نحو الحائط :

- حسناً، قولي ما عندك .

- أريد أن أعرف لماذا تحتفظ بتلك القطعة بين كتبك، قطعة الحرير والشاش  
تلك؟

- أي حرير؟ آه لا بد أنك تتحدثين عن مسطرة القماش .

- لا . لا أعني مسطرة القماش . أني أسألك عن قطعة القماش كلها،

المشابهة لقطعتي . اريد أن أعرف لمن هي ! اخبرني، لمن؟

تأملت وجه فلاديمير بإمعان .

- حسناً، هل ترغبين فعلاً بمعرفة صاحب هذه القطعة؛ ألم تخمّني بعد؟

- لا .

قال ببساطة ودون عجالة :

- لقد طلب إيقان إيقانوفيتش مني أن أحضر له قطعة من القماش نفسه

ليهدئها إلى خطيبته . إنه يزعجني دائماً بطلباته . فكلما اقتنيت شيئاً رغب في

إقتناء مثله . أنه يقلد كل ما أقوم به .

تضرجت وجنتي فاسيا خجلاً من نفسها :

- إيقان إيقانوفيتش؟ لخطيبته؟ أوه . . وأنا التي ظننت . .

ضحك فلاديمير والتفت نحوها قائلاً :

- ماذا ظننت؟

قالت فاسيا وهي تقبله وقد غمرها شعور بالخجل :

- أوه فاسيا • حبيبي .

كيف تخاطر مثل هذه الإتهامات ضده على بالها فتشك بصديقتها هكذا؟

- هيا قولي لي ماذا ظننت؟ أنك تتصرفين كتحري ممتاز أحياناً . لقد تحولت إلى محقق دائم .

ضم فاسيا، ولكن لاح في عينيه أثر من قلق .

- دعينا ننام الآن . ولنكف عن تبادل القبلات . علينا أن نقوم بواجبنا تجاه ضيوفنا غداً . علي أن استيقظ باكراً وإلا عجزنا عن الانتهاء من أعمالنا .

أطفأ الضوء . شعرت بالراحة وكانت توشك أن تغفو حين لسعها ثعبان الشك مرة أخرى . فجأة أحست بأنها يقظة إلى اقصى حدود اليقظة .

لماذا قال أنني كالتحري؟ هذا يعني أن ثمة ما يدعو إلى التجسس عليه . كان فلاديمير قد نام نوماً عميقاً . إلا أن فاسيا تترقد إلى جانبه يقظة كل اليقظة ، ترتعش وتحذق إلى العتمة . هل تصدقه أم لا؟ طوال الليل الذي لم يغمض فيه جفنيها ظل هذا السؤال يلح على بالها . ولا جواب .

بعدما انصرف رجال النقابة ، ازداد عمل فلاديمير الذي بدأ يعيد تنظيم العمل . وكأنه ليس غارقاً أصلاً بالمشاكل المقلقة . ولكن لم يخل الأمر من نتائج عوضت هذا العمل الشاق .

ذات يوم دعا ميخائيلو بافلوفيتش قاسيا إلى غرفته ليطلعها على قرار خاص جاءه من مركز الحزب. لقد الغيت الاتهامات المدبرة والأهم من ذلك أن الاشاعات حول عناده وأطواره المتقلبة قد تبددت. لقد طويت القضية، وبوسعها الآن أن تتنفس الصعداء.

أخذت قاسيا نفساً عميقاً وتنهدت بارتياح وكادت أن تذعن للعادات القديمة وتقول: شكراً لله. ميخائيلو بافلوفيتش نفسه سرٌ للنتيجة ايضاً. فهو معجب بقاسيا ويتعاطف معها.

لكن قاسيا سرعان ما عانت من ضربة قاسية. عندما وضعت النسوة قضيتهن بين يدي لجنة التحكيم، صدر قرار يؤيد وجهة نظر الإدارة. تسخّطت النساء وتحدث البعض عن اللجوء إلى إضراب. وعمد المناشفة، الذين كانوا يعملون تحت ستار اللامنحازين والعمال غير الأعضاء في الحزب، إلى إذكاء نار الغضب في النفوس والحض على الاضراب. كانت قاسيا تعاني من حرارة مرتفعة وسعال حاد. ورغم ذلك قضت معظم وقتها في المصنع تجادل الإدارة في حمية وغضب. تطالب بالتنازلات، وفي الوقت نفسه كانت تحاول تهدئة النساء وتحثهن على إتباع المنطق.

كانت مستغرقة في عملها إلى حد نسيت معه قصة الحرير الأزرق. ولكنها عادت وتذكرت على نحو مفاجيء ومنذ ذلك الوقت وثعبان القلق يزايها.

حدث كل شيء بسبب كلب. ففي أحد الأيام جاء الساعي حاملاً كلب (بودل) (\*). وثمة وشاح معقود بين أذنيه.

سألت قاسيا:

- لمن هذا الكلب؟ من أين جئت به؟ لماذا احضرته إلى هنا؟

---

(\*). البودل كلب ذكي كثيف الشعر أجعده.

قال الصبي أن ثلاديمير أمره بحمل البودل الى البيت . أما صاحبه ساقيليف . وعندما سافر هذا الأخير نحل الكلب وهزل . اهتمام ثلاديمير المفاجيء بهذا الكلب أثار دهشة قاسيا . من المؤكد أنه لم يفعل ذلك لإرضاء ساقيليف . عاودها بغضها القديم لساقيليف ، وثار سخطها لدى معرفتها بأن علاقة ثلاديمير بهذا الرجل السيء الصيت لم تنقطع . حين عاد ثلاديمير إلى المنزل اندفع الكلب نحوه وكأنما يرحب بسيده . ربت ثلاديمير عليه وحادثه .

سألته قاسيا :

- من اين جاء هذا الكلب يا قولوديا؟ هل هو ملك ساقيليف؟

أجاب :

- لا . إنه ملك خطيبة إيفان ايقانوفيتش . سافرت ، فطلب مني إيفان إيقانوفيتش أن احتفظ به إلى أن تعود .

- لكن الصبي الساعي قال انه ملك ساقيليف .

- إنه مخطيء . كان الكلب عند ساقيليف لأيام معدودة ، حين احضره قاسيا من عنده . لهذا التبس عليه الأمر .

رغم بساطة هذا التفسير فإنه لم يقنع قاسيا . مرة أخرى لم تعرف أتصدقه أم لا حين جاء إيفان ايقانوفيتش سأله عن صاحب الكلب . فحكى لها قصة الكلب بالتفصيل . لقد سأله خطيبته أن يعتني بالكلب ، ولكن لا متسع للكلب عنده . فأرسله الى ساقيليف ، ولكن لم يكن عند الأخير سوى خادم واحدة وكانت تقضي معظم أوقاتها خارج المنزل فتضطر إلى حبس الكلب في المنزل وتركه وحيداً . . إلى آخر . لكن أياً كانت القصة الحقيقة فإن قاسيا احست ببغض تجاه الكلب .

بعد هذه الحادثة بوقت قصير ، سافر ثلاديمير فغاب عدة أيام ، ليحضر

مؤتمر النقابة. وظنت قاسيا انها ستعاني من الوحدة والكآبة بدونه. لكنها شعرت فجأة بأنها تحررت من ثقل القلق الذي كانت تحمل عبئه حين تكون معه. وتبددت تلك المشاعر الصامتة التي كان يثيرها إهماله لها. بدونه سارت الأمور بطريقة أفضل. فخلال وجوده إلى جانبها كان قلبها الانثوي الأحمق يتوق إلى آيات تنبىء عن حبه لها، رغم انها تدرك أنه مشغول وغارق في مشاكل العمل. وبدونه، ما عاد ثمة إنتظار، ولا إصغاء، ولا مغالبة لمشاعر الامتعاض.

دعت قاسيا أصحابها من المصنع إلى العشاء. فجاء ميخائيلو بافلوفيتش وليزا سوروكينا. إنها تحب استضافة أصحابها. بعد الانتهاء من وجبة الطعام، راحوا يناقشون أموراً حزبية. وتمشوا في الحديقة. غنوا الأغاني وكانوا سعداء. خاصة قاسيا، كم يختلف هذا عن إجراء مناقشة سياسية في الصالة مع رجال من أمثال ساڤيليف أو النقابيين. مر الوقت بسرعة.

عاد فلاديمير ذات صباح بقطار مبكر فألفاها تحتي الشاي. هبت لاستقباله، لكنه اكتفى بالضغط على يدها ثم رفعها إلى شفتيه فترة طويلة. حين رفع رأسه رأته عينيه طافحتين بالدموع.

سألته متوجسة:

- ما الأمر يا فولوديا؟ هل هناك مزيداً من المشاكل؟

- لا يا قاسيا، ليست مشاكل، إنما الحياة عسيرة، هذا كل شيء.. لقد مللتها.

جلس إلى المائدة، دفن وجهه بين يديه وانسكبت الدموع على وجنتيه.

- قل لي يا فولوديا ما الذي يزعجك. قل لي يا حبيبي فذلك سهل الأمور في النهاية.

سألها بصوت حزين :

- أعتقد ذلك يا قاسياك؟ فكرت في الأمر ملياً، استنزفت عقلي، لن  
تتصوري أية معاناة عانيت يا قاسيا. لا أعتقد أن الحديث حولها سيسهل  
الأمر. إنني عاجز عن إيجاد حل .

هذا الغمز في حديثه جعل قلب قاسيا يتوقف عن الوجيب وهلة .

- قولوديا، ينبغي أن تكف عن تعذيبي هكذا. ما الذي تتحدث عنه؟ قل  
لي الحقيقة • أتوسلك. ليس بوسعي أن أتحمل أكثر. لقد هديني القلق  
وأعياني. ما عدت أعرف للراحة طعاماً.

وبينما هي تتحدث بدت وكأنها تحتنق ثم جعلت تسعل .

- أترين؟ ها قد بدأت تسعين. كيف لي أن أحدثك الآن .

في صوته عتاب وحزن، وحين واصلت سعالها عبس وأشعل لفافة  
تبغ. ثم قال :

- لماذا لا تحسني الشاي؟ ربما أوقف سعالك .

قالت :

- سوف أتناول المعينة<sup>(١)</sup> .

خفت حدة سعالها وسكبت الشاي لقلاديمير. وبدأ يحدثها عن مشاكل  
العمل بطريقته المميزة. لقد أنبأه إيقان ايثانوفيتش بهذه المشكلات ما إن  
غادر القطار. الحمالون يسببون الكثير من الاضطرابات، يطالبون برفع  
الرواتب وخفض الإنتاج. ولهذا الأسباب خسرت المؤسسة خسارة باهظة .  
وها هم الحمالون يهددون باللجوء إلى الإضراب إن لم تدفع لهم المؤسسة  
فوراً. ويعتقد فلاديمير أن ثمة مخربين بين العمال يجرسونهم: وليس بوسعه

---

(١) المعينة: قطعة حلوى صغيرة مشتملة عادة على مادة طبية: Lozeng.

أن يراقبهم جميعاً. أي وضع هذا! لم يغب سوى بضعة أيام ليعود فيجد هذه الأزمة. ما الذي يفعله غيره من المدراء؟ يبدو أنهم لا يريدون صب الزيت على النار. وبالنتيجة سوف يمنحون الرئيس مزيداً من الذخيرة. . .

سألته قاسيا فجأة:

- هل هذا ما دفعك إلى القول بأن الحياة صعبة وأن ليس ثمة حل؟ كل هذا بسبب الحمالين؟

- طبعاً. ماذا حسبت إذن؟

نفث فلاديمير دخان سيجارته وحرك الشاي ببطء وأناة ثم تابع حديثه عن المشكلة، وأنجح الطرق لحلها دون فضائح وضجة إعلامية.

لكن قاسيا استقبلت حديثه بأذنٍ نصف معرضة. عادت الشكوك تراودها. هل يبكي حقاً لمجرد وجود مشاكل بينه وبين الحمالين؟ ليس هذا فلاديمير الذي تعرف. لا بد من وجود شيء آخر ينهش باله - مثل الحرير الأزرق على سبيل المثال. . .

لكنها غالبت مشاعر الغيرة، لن تدعن لها الآن. لا بد أن فلاديمير متعب مجهد. لقد نال منه الإعياء بسبب تعامله مع لجنة المراقبة حتى بات قابلاً للإثارة لقاء أي سبب مهما كان تافهاً.

رغم ذلك كانت قاسيا تواقفة لمزيد من التأكيدات والتطمينات. كانت ترغب رغبة عارمة في أن تؤمن فعلاً بأن هموم فلاديمير ليست سوى هموم العمل.

أخيراً رُبِحَت قاسيا قضية المصنِع لقد أقنعت الإدارة بالقيام بالتنازلات، بعد ذلك حملتها النسوة المبتهجات على الأكتاف وهلن لها. أدركت قاسيا أنه لولا الرئيس لما ربحت القضية. إذ أنها تحدثت إليه مطولاً وتبين لها أنه شخص لا يساوم ويرفض مداراة الإدارة أو مسيرتها.

هرعت بعد هذا النصر إلى البيت. حين دنت من المنزل رأت الباحة تزدهم بالحمالين. كانوا يتجادلون بحدة. بعض الغاضبين هتفوا: «ارفعوا الرواتب وإلا توقفنا عن العمل، وليُحمَل المدراء والموظفون بدلاً منا.

اندست قاسيا بين العمال وأخذت تضغي لأحاديثهم. ثم راحت توجه إليهم الأسئلة. فشرعوا جميعاً يتحدثون بصخب ويشرحون لها أسباب نقيمتهم: الإدارة تدفع لهم مبالغ زهيدة، لا يتمتعون بنظام «الوقت الإضافي»، وثمة تلاعب في الحسابات. تحلق الرجال حولها، وهددوا الإدارة وطلبوا منها أن تنقل قضيتهم إلى زوجها.

أصغت لكل ما طرحوه وواصلت استجوابهم. كانت شكواهم مألوفة بالنسبة لها، ومطاليبيهم معقولة. وتبين لها أن الحمالين غاضبون من المدراء والمسؤولين والموظفين لأنهم يعيشون حياة امتيازات على حساب الحمالين الذين يعجزون عن شراء حتى الطعام والملابس لأطفالهم.

أدركت قاسيا أنهم بحاجة إلى مساعدة حتى تُسمع قضيتهم. ينبغي

أن يضغطوا على الإدارة من خلال نقابتهم . لن يصلوا إلى أية نتيجة بلا تنظيم صحيح ومخططات ملموسة . وافق أقطابهم على أقوالها . قر قرارهم على صياغة مطالبهم ، فإن استقبلتها الإدارة بأذان معرضة حملوها إلى لجنة التحكيم . تحمست لقضيتهم ناسية وضعها كزوجة المدير . ليس لها خيار ، عليها أن تنصح هؤلاء الأصدقاء الذين تنقصهم الخبرة والقيادة المناسبة .

دعت زعماء العمال إلى المنزل كي يصوغوا مطالبهم . وبينما كانوا يجتازون غرف الاستقبال متوجهين إلى غرفة نوم قاسيا ، اختلسوا النظر إلى أثاث المدير . في تلك اللحظة فقط أدركت قاسيا أن دعوتهم إلى المنزل أمر غير مألوف . لكن الأوان قد فات . جلس الرجال إلى طاولتها وبدأوا يصوغون مطالبهم ويكتبونها .

هدأ الصخب في الخارج . انقسم العمال إلى مجموعات صغيرة ينتظرون ، يتحادثون ، يدخنون . فجأة بدأوا يغمغمون - اقتربت سيارة المدير وترجل فلاديمير منها .

سمعته قاسيا يصرخ مغضباً :

- ماذا يحدث هنا؟ هل قررتم أن تعقدوا الاجتماعات هنا؟ هل جئتم إلى هنا لكي تهددوني بشكاويكم؟ حسناً، إنني على غير استعداد لمناقشتها هنا، هل تفهمون؟ هذا بيتي الخاص . عليكم أن تذهبوا إلى مكتب المدير . وإذا كنتم تشكون الرواتب فاذهبوا إلى النقابة ، لأن هذه المسألة لا علاقة لها بالإدارة . فمتاعبهم كثيرة أصلاً . إذا قررتم الإضراب فهذا شأنكم . إذا وافقت نقابتكم فاسعوا إلى الإضراب . ولكن انصرفوا الآن في هذه اللحظة . إنني أرفض الإصغاء نهائياً . سوف نبحث الموضوع في المكتب .

صفق الباب ورائه . وقصد غرفة النوم من فوره . حين فتح الباب الفى قاسيا تجلس إلى الطاولة وتتحدث إلى الحمالين . جمد في مكانه .

- ما الذي يجري هنا؟ كيف دخلتم أيها الرجال إلى هنا. كيف تجرؤون على اقتحام منزلي دون إذني؟ انصرفوا، هيا.

احتج الحمالون قائلين:

- ولكننا، لم نأت إلى هنا بـ... إنها زوجتك.

- اغربوا عن وجهي، وإلا... .

كان فلاديمير قد ابيضّ غضباً. وبدا وكأنه يوشك على فقدان السيطرة على نفسه والإنقضاض عليهم. ولكن بينما كان الحمالون يسعون إلى الباب تدخلت قاسيا.

- هل جنت يا فلاديمير؟ كيف تجرؤ؟ أنا التي دعوتهم. يا رفاق، أرجوكم أن تنتظروا، لا تنصرفوا!

هرعت لتوقفهم. إلا أن فلاديمير أمسك بها واعتصر مرفقها بقبضته حتى صرخت من الوجع.

- إذن أنت التي دعوتهم أليس كذلك؟ ومن الذي سألك تدخلًا في شؤني أريد أن أعرف؟ ليس عليك أن تجيبي المؤسسة. لماذا لا تنصرفين إلى مصنع الحصير إذا كنت مغرمة بتنظيم الاضرابات. أيتها الفضولية الحشرية.

- إذن أنت تحاول أن تتخلص مني، أليس كذلك؛ أحسب أنني إذا كنت على علاقة حسنة بأصدقائي هؤلاء فإنني لن أصون مصالحك مديراً وأخفض بالتالي أسهمك.

صرخ في وجهها:

- منافقة حقيرة.

شعرت قاسيا كأنه جلدها بسوط. حقيرة؟ هي، حقيرة! واجه كل منها الآخر بعداء كلي، كأنهما من ألد الأعداء. وملاً حزن صامت قلبها.

شعرت بقلق أسود بدا أنه سحرٌ ينهي كل سعادتها .

عندما انصرف الحمالون قصد فلاديمير من فوره مكتب الإدارة، تاركاً قاسيا تتقلب على الفراش ووجهها مدفون في اللحاف الحريري الذي تبلل بدموعها. لكن البكاء لا يبدد مثل هذا الحزن. إنها حقيرة في نظر فلاديمير، لقد أصبحت غريبين، عدوِّين في حرب .

كانت الأيام التالية رمادية وبلا بهجة . يقضي فلاديمير معظم وقته في المنزل، ولكن بلا جدوى إذ أن الغربة كانت تترسخ بينهما وباتا لا يتبادلان الحديث إلا عند الضرورة القصوى، وبدأ كلاهما يحيا حياته الخاصة كل على طريقته . عندما مرضت قاسيا مرة أخرى عمد ايقان ايقانوفيتش نفسه إلى استدعاء الطبيب الذي أنبأها أنها بحاجة إلى مزيد من الراحة . كان فلاديمير وايقان ايقانوفيتش غارقين في ضبط حسابات الدائرة . فيجلسان في المكتبة حتى ساعة متقدمة من الليل، لا يخرجان إلا ليصيبا شيئاً من الطعام، كلاهما صامت وسيء المزاج .

أقبلت ليزا سوروكينا لزيارة قاسيا حاملة أنباء عن المصنع ورسائل الحب والتعاطف من النسوة هناك لها . إلا أن شقاء قاسيا الذي سببته تلك الحادثة مع فلاديمير كان يستولي عليها فهي لا تكثر بمرضاها . كانت تعرف إن كلاً منهما عاجز عن نسيان تلك المجاهدة بشأن الحمالين، وأن كلاً منهما عاجز عن أن يغفر من أعماق قلبه للآخر .

فكرت قاسيا بالعودة إلى مسقط رأسها . شعرت بالشوق إلى موطنها الذي كانت تسكنه، لكنها بلا مسكن . فلا يسعها أن تسكن مع أبويها إذ أنها سوف يمعان في الشكوى من حياتها وسوف يلعانان البلاشفة . ليس ثمة مكان تأوي إليه . كتبت إلى غروشا تسألها أن تجد لها غرفة، وإلى ستيبان اليكسييفيتش تتوسله أن يجد لها عملاً حزبياً في مصنع : إنها مصممة على الرحيل حالما تسمع منها . فما جدوى البقاء ما دام أحد لا يحتاج إليها بعد الآن؟ فلاديمير قادر على أن يعيش بدونها .

مرت الأيام ببطء كثيبة ومضجرة .

إنه منتصف الصيف . الكرز ينضج في الحديقة وأشجار البرقوق تتحول إلى زرقاء داكنة . تفتحت زنابق بيضاء رقيقة تتمايل على سيقان مديدة ناحلة . لكن أياً من هذه الأشياء لم يعد جلاباً للبهجة في نفس قاسيا حين كانت تتمشى في الحديقة . تذكرت كم كانت سعيدة في الربيع السابق حين كانت ترقد على مقعدها ، فشعرت بمزيد من الأسى . أحست أنها كانت شخصاً مختلفاً تماماً آنذاك ، أكثر براءة ، أكثر ثقة . لقد فقدت شيئاً لا تتبينه ولا تستطيع أن تخلع عليه اسماً محددًا . ولكنها تعرف أنها فقدته إلى الأبد .

بين الحين والآخر كان فلاديمير يدنو من النافذة ويرنو إلى قاسيا بقلق بينما هي تزرع الحديقة في خطوات لا نهائية . يقف هناك عابساً ثم ما يلبث أن ينكفىء إلى عمله مع إيقان ايقانوفيتش . فترسل قاسيا تهيدة تنم عن خيبة عميقة . إذ هي تأمل دائماً في أنه قد يقبل إلى الحديقة ليراها ، ولكنه لم يفعل ذلك أبداً . لا وقت لديه لها . من الواضح تماماً أن عمله أكثر أهمية من شقائها .

ذات صباح استيقظت قاسيا على صوت خشخشة فرأت فلاديمير يفتش عن شيء في الخزانة .

- ماذا تفعل في مثل هذه الساعة المبكرة يا قولوديا؟

أجاب :

- ذاهب لاستلام بضاعة برسم الأمانة من القطار .

سألته :

- وحدك؟

قال :

- نعم . علي أن أستلم البضاعة .

بينما كانت تتأمله وهو يجهد في محاولة عقد ربطة العنق أمام المرأة دفق كل حبها القديم له من جديد .

قالت :

- تعال إلى هنا يا فولوديا دعني أساعدك في عقد الربطة .

دنا منها مدعناً وجلس على السرير بينما جعلت تعقد ربطته . تبادلنا نظرات ذات مغزى وتعانقا بصمت .

- أوه يا حبيبي فاسيك ، من المؤلم أن نصبح غريبين هكذا . لا يمكن لهذا الوضع أن يستمر بهذه الطريقة ، أليس كذلك ؟

سألها بحزن وهو يضم رأسها الجعدي الشعر إلى صدره . قالت :

- أعتقد أنني لا أتألم أيضاً؟ الحياة غير جديرة بالعيش إذا استمر هذا الوضع .

- لماذا أخفقنا هكذا يا فاسيا؟

- لا أدري . . . ثمة ما هو مرعب وقع بيننا . . . !

قاطعها قائلاً :

- لا يا فاسيا . لا يمكن لأي حائل أن يحول بيننا . إنني أنتمي لك .

- إذن فأنت لا تزال تحبني؟

قال وهو يقبلها :

- لا تقولي ذلك . لنضع حداً لخلافاتنا الآن . فليس الأمر سوى حماقة

تسبب لكلينا الشقاء . لو فقدتك لتحطمت يا فاسيا ، أنت تعرفين إنني عاجز عن العيش بدونك . فلتتوقف عن الاختلاف من الآن فصاعداً .

- حسناً . ولكن عليك أن تقلع عن القاء الأوامر علي .

- وعليك أن تقلعي عن تحريض الحمالين ضدي .

انفجرا يضحكان .

- عودي إلى النوم الآن يا قاسيا. وإلا عاودك المرض ثانية اليوم إن لم تأخذي قسطك من الراحة والنوم. سوف أعود بعد ساعة أو ساعتين.

ضمها وقبل عينيها ثم غادر الغرفة تاركاً قاسيا مبتهجة مطمئنة حتى أنها نامت من فورها نوماً عميقاً لطيفاً. عادت السعادة القديمة، وتبددت جميع مخاوفها.

لم يعد فلاديمير مباشرة بعد تفريغ البضاعة، ولكنه اتصل قائلاً إنه سيضطر إلى الذهاب إلى مكتبه وأنه سيعود عند الغداء.

أحست قاسيا يتحسن كبير لكنها لم تمض إلى المصنع. فمكثت في البيت تساعد ماريا سيمينوفا في العمل المنزلي فنظفت البيت كله.

قبل الغداء بقليل رن الهاتف وردت قاسيا. سألها صوت أنثوي:

- هللو، هل فلاديمير ايغانوڤيتش موجود؟

- لا لم يعد بعد. من يتكلم؟

- إنني أتكلم من مكتبه.

- إذن لماذا تتصلي بالبيت؟ لا بد وأن يكون في المكتب الآن.

قالت المرأة:

- لا، إنه ليس في المكتب، لقد غادره. آسفة للازعاج.

كانت قاسيا تعرف هذا الصوت. تعرفه ولا تحبه. تذكرت عند ذاك أن هذه المرأة اتصلت عدة مرات عندما وصلت قاسيا إلى هنا لأول مرة. ثم توقفت عن الاتصال فجأة.

سعت قاسيا من فورها لتسأل ايغان ايغانوڤيتش عن هذه التي تتصل كل هذه المرات من المكتب. وخلال ساعات الدوام. قال ايغان ايغانوڤيتش إنها لا بد وأن تكون إحدى السكرتيرات. ولماذا تتصل به سكرتيرة؟ مرة أخرى غمرتها الشكوك المألوفة وتحركت الأفعى البائسة.

عاد فلاديمير ومعه ضيفين إلى الغداء. دار الحديث كله حول البضاعة التي استلمت ذلك الصباح، إلا أن فلاديمير وجد الوقت الكافي ليسأل قاسيا عن صحتها وإذا ما كانت تأخذ حمامات شمس كما أشار عليها الطبيب.

قالت قاسيا ببرود:

- لا، لم آخذ حمام شمس.

وقبل أن تعي ماذا تقول أضافت:

- تلك السيدة اتصلت مرة أخرى. السيدة التي تتصل دائماً من المكتب.

قال فلاديمير وقد اتسعت عيناه دهشة:

- سيدة؟ ترى من تكون؟ من المكتب، تقولين؟ إذن لا بد وأنها شيلفونوفا - سيدة بلا شك! إنها سيدة وربة عائلة ولها أطفال. سوف أخبرك في أية حال. لقد رأيتها يا قاسيا. تلك المرأة البدينة ذات الوجه المليء بالنتوء.

تكلم بلا تكلف، إلا أن قلق قاسيا لم يكن من النوع الذي يسكن بيسر. بدا لها كلام زوجها ذا رنين كاذب.

بعد الغداء انصرف المديران، وفكرت قاسيا مبهتة بقضاء بقية النهار مع فلاديمير. إذا بقي معها فإنه التعويض الذي منت النفس به بعد حديثهما في الصباح. ولكن ما إن ودع فلاديمير المديرين حتى ترامى صوت رنين الهاتف من غرفة المكتبة. سارع فلاديمير برفع السماعه.

قال بفضاظة:

- نعم، نعم، أنا أتحدث...

- ولكنني قلت لك أن لا تتصل بي...

- نعم، طبعاً، إذا سمحت لي الظروف العائلية.

ضحكا .

- لا ، لا ، مستحيل . أرفض ذلك رفضاً باتاً نهائياً . . . حسن ، حسن .  
أذعن .

- ولكن لوقت قصير جداً . مع السلامة .

وقفت قاسيا في الغرفة المجاورة تصغي . ترى ، إلى من يتحدث؟ ومن  
ذا الذي وعده بمقابلته لفترة قصيرة من يمنع ويرفض بهذه الطريقة؟  
خرج فلاديمير من غرفة المكتبة إلى غرفة النوم ، متجاهلاً قاسيا رغم  
أنه مر بجوارها . لحقته . كان يقف إزاء المرأة يسرح شعره . . سألته :

- إلى من كنت تتحدث بالهاتف يا فولوديا؟

أجاب :

- ساقيليق .

- اذن فقد عاد ، أليس كذلك؟

- نعم . عاد هذا الصباح .

- هل قابلته؟

قال بامتعاض :

- هل لك أن تخبريني لماذا كل هذه الأسئلة؟ أتستجوبيني؟ تعرفين جيداً أن  
البضاعة وصلت هذا الصباح .

- إذن فأنت تهم بالسعي لمقابلته؟ هل وعدته؟

- نعم ، سأذهب لأقبله .

التزما الصمت . قلب قاسيا ينبض بقوة وكأنما سينفجر ، لكنها لم تعد  
تكترث لأي شيء . عذاب الشك هذا لا يطاق . سعت إلى فولوديا ،  
تناولت يده وقالت بحجة :

- قولوديا، أرجوك، أتوسل إليك أن لا تذهب! أرجوك لا تعود إلى سابق عهدك.

سأل:

- ماذا تعنين بسابق عهدك، عم تتحدثين؟

- تعرف جيداً ماذا أعني - علاقتك مع هذا الطفيلي المضارب. لقد عرفت من مصادر مطلعة أن التهمة الأساسية ضدك هي أصحابك غير المناسبين.

- آه، إذن فأنت تهمين بإثارة هذا الموضوع ثانية، أليس كذلك؟ ترددتين ببغاوية ما يصرخه زعماء الحزب في وجهي؟ هل ترغبين في التسبب بانهياري؟ في تحطيم إرادتي حتى تقيديني بأسلاك مآزرِك؟  
انتزع فلاديمير يده من يدها بعنف.

- توقف يا فلاديمير، توقف. ما الذي تعنيه - أنا لا أرغب في تقييدك بأسلاك مآزري. كن متعقلاً. إننا نتحدث عنك، لا عني. يجب أن لا تحفر قبرك بيدك بهذه الطريقة. لديك أعداء بما فيه الكفاية، من دون عودتك لوصل ما انقطع من علاقتك بساقيليف.

- وما علاقة ساقيليف بالأمر؟

- لكنك ذاهب لرؤية ساقيليف، أليس كذلك؟

حدقت قاسيا إليه باضطراب.

- نعم، طبعاً. ولكن ما الخلل في ذلك؟ إنها زيارة عمل. ألا تفهمين؟  
ليس في وسعي أن أتخلص منها الآن.

قالت بقوة:

- لا أصدقك. إني على يقين من أنك قادر على تأجيل الزيارة حتى الغد.  
كل ما عليك أن تفعل هو الاتصال بالمكتب وأن تخبرهم...

قال وقد رق قليلاً :

- أوه يا قاسيا، أية طفلة أنت. حسن، ما دمت مصرة على معرفة الحقيقة فإني سأقولها لك. ساقيليف لم يتصل بشأن العمل. لقد صفينا أعمالنا في المكتب. ولكن ثمة حفلة صغيرة يقيمها أصدقاء حميمون في منزل ساقيليف ولقد دعاني للعب الورق. لم أطأ أرض منزله منذ شهر، فأنا غارق هنا في العمل طوال الوقت. عليك أن تسمح لي بين الحين والآخر بأن أفعل ما أشاء يا قاسيا. لا زلت شاباً، أريد أن أمتع بحياتي قليلاً. لا يسعك أن تتوقعي مني أن أعيش دائماً مثل ناسك.

قالت قاسيا باكتئاب :

- نعم، إنني أفهمك يا فولوديا. بالطبع، أنت على حق يا عزيزي، إنني لا أود أن أحول بينك وبين الترفيه عن نفسك. ولكني أتوسلك أن لا تعاود سيرتك الماضية مع ساقيليف - إنه محتمل محاتل وأنت تعرف ذلك. حتى إنك لا تحترمه. ماذا يعني بالنسبة إليك في أية حال؟ سينتشر الخبر بين الناس وسيقولون: عادت علاقة الصداقة بين فلاديمير ايغانوڤيتش وساقيليف مرة أخرى. فما الذي ستفعله عند ذلك؟ فولوديا يا حبيبي. أناشذك أن لا تذهب اليوم إلى هناك. بوسعك أن تتصل به مرة أخرى وتجبره أنك ترفض...

قال وقد نفذ صبره :

- هذا محال، إذا كان الرئيس يريد حقاً أن يقضي وقته بإقامة الدعاوى المستندة إلى صداقات الناس، فإنه كومة زباله أكثر منه رئيس في رأيي. وأنت يا قاسيا تبالغين بهذا الموضوع بصورة سخيفة..

- ولكن ماذا عني؟ ماذا لو كنت راغبة عن الذهاب إلى هناك يا فولوديا؟ أعرف أنه يبغضني، وإنني على يقين من أنه دعاك نكايه بي. لقد سمعتك وأنت تقول له على الهاتف أنك غير قادر على الذهاب بسبب «ظروف عائلية» وضحكتما. أوه يا فولوديا (قالت كاليائسة) إنني أشعر بكآبة

شديدة حين تضحك مني هكذا وخاصة إذا شاركك في ذلك شخص  
مثل سافيليف. أنت تعرف أنني لا يمكن أن أمنعك من الذهاب.  
- ولكن هذا بالضبط ما تفعلينه الآن.

- إذا كنت تعتقد ذلك، فلماذا لا تذهب. اذهب لرؤيته، ولكن شيئاً  
واحداً. (توقدت عيناها) تذكر أن ثمة حدوداً لطاقتي على الاحتمال.  
لقد ساعدتك في الخلاص من متاعبك، إن هملي يكاد يبھظني. إمضِ  
إن شئت، ولكنني أعرف ماذا أنا فاعلة...  
اختنق صوتها.

- اسمعي، لقد ضقت ذرعاً بنوباتك الهستيرية الأنثوية. قال وقد فقد  
أعصابه وأضاف:

- ماذا حدث لك؟ ماذا تريد مني؟

بدأت تبكي قالت:

- أوه قولوديا، لم أطلب منك أي شيء تقريباً طوال حياتنا، ولكنني الآن  
أناشدك البقاء هنا، من أجلك ومن أجلي.

- آه يا الله من النساء. كلهن متشابهات. كل واحدة من جنسكن اللعين.  
لقد طفح كيلى. اندفع متجاوزاً قاسيا وسعى بسرعة إلى الصالة، ووقف  
الباب بعنف وراءه. وترامى صوت محرك السيارة.

ولولت قاسيا مثل حيوان متوجع.

- ليزا، إنني بحاجة لمساعدتك . هل تستطيعين إيوائي ؟ لقد هجرته نهائياً .  
اختنق صوت قاسيا إلا أنها لم تستدمع . فتعاستها أعمق من أن تواسيها  
الدموع .

- إذن انفصلت عنه أخيراً . لقد آن الأوان لذلك . كنا جميعاً مذهولين  
بصبرك عليه كل هذه المدة .

قالت قاسيا :

- الذي ما عدت أقوى على احتمالته هو أننا بتنا غرباء تماماً عن بعض يا  
ليزا .

- سوف أدهش إن لم يحدث هذا . ما الذي دفعك إلى حبه من البداية؟

لم تنبس قاسيا . ثم بدأت تفسر مشاعرها . لا تزال عاجزة عن تصديق  
ما جرى ، كل ما تعرفه هو أنها غير قادرة على أن تنسى الإهانة الأخيرة . في  
المررة الأولى كانت على إستعداد لأن تغفر له . إلا أنها تشعر الآن وكأنه وطأ  
جثتها ، وهي عاجزة عن تبين السبب ، من المؤكد أن السبب لا يعود ببساطة  
إلى رغبته في لعب الورق مع وغد مثل ساقيليف وشلته من القدرين .

لم يكثرث فلاديمير بما يسببه لها من شقاء ، كل ما يلتفت إليه هو أن  
يروح عن نفسه . أهذا ما يسمى حباً؟ كيف يتأتى لمن كان رفيقها وصديقها -

فضلاً عن كونه شيوعياً - أن يتصرف بهذه الطريقة؟

تحدثت قاسيا على نحو غير مترابط. ووجدت ليزا صعوبة في تصور الذي حدث بينهما، فما بالك بعلاقة ساقيليف بالأمر.

- ولكن ألا ترين يا ليزا أن ساقيليف هو السبب. إذ كان فلاديمير يهم بالمضي لرؤيته . . .

قاطعته ليزا قائلة:

- وهل تصدقين فعلاً أنه كان في طريقه لرؤية ساقيليف؟

- هل تعتقدين أنه لم يكن في طريقه لرؤية ساقيليف؟ إلى أين كان متوجهاً إذن؟

قالت ليزا معترضة:

- المسألة ليست مسألة اعتقاد، يا الهي، البلدة كلها تعرف بالأمر، الوحيد الذي لا يعرف بالأمر هو انت. فإما أنك تتعامين عن رؤية ما يجري أو أنك لا ترغبين في معرفته.

- رؤية ماذا يا ليزا؟ قولي لي.

- الحقيقة أن لعزيرك فلاديمير صديقة.

عجزت قاسيا عن إستيعاب ما سمعت مباشرة فحدقت إلى ليزا بعينين متسعيتين لا تلوح منها نظرة خوف أو حزن ولكن دهشة خالصة.

- صديقة؟ هل قلت صديقة؟ ولكن من هي؟

- ليست واحدة منا، ليست عاملة. إنها سكرتيرة.

- إذن فأنت تعرفينها.

- حسناً. لقد رأيتها. البلدة كلها تعرفها.

- كيف؟

- لتباهيها بثيابها الباذخة . لهذا ثار غضب اصحابنا على فلاديمير . ولكن ألم يخطر هذا على بالك رغم كل الذي قاله ميخائيلو بافلوفيتش لك عن أصدقائه؟ أنظري إلى نفسك ، لست بلهاء عادة ، ولكنك تصرفت كبلهاء حقيقية في هذه المسألة .

ولكن شيئاً آخر كان يلح على خاطر قاسيا في تلك اللحظة ويزعجها:

- هل يجبها؟

- المرء لا يدري الحقيقة في مثل هذه الحالات . ولكني أحسب أنه لا بد مغرم بها ما دامت العلاقة بينهما قد استمرت طوال هذه الشهور . لقد اعتقد الجميع أنه سيضع حداً لهذه العلاقة حين تأتين . ولكن هذا الاعتقاد لم يكن في محله . لا زال يختلف اليها في شقتها بسيارته الفارهة .

- إذن ، هي تملك شقة أليس كذلك؟

قالت ليزا:

- نعم ، وهي أفخم من منزلك ايضاً .

إذن هذا ما رموا إليه حين تحدثوا عن المؤسستين . الآن أدركت قاسيا

كل شيء . بإستثناء مسألة واحدة . لماذا كذب عليها قولوديا وعذبها هكذا؟

- ولكن ماذا تنتظرين؟ ماذا تتوقعين منه . . أن يحضرها لرؤيتك؟ أو أن يسألك إذناً بالاختلاف إليها؟ كان أمر إدراك ما يجري مرهوناً بك ، ولكن لم تري لأنك حمقاء ، فلا تلومي إلا نفسك .

- أرجوك يا ليزا . لا حاجة بك إلى تذكيري المتواصل بأنني تصرفت كحمقاء . في أية حال ، ليس هذا المهم في الأمر . الأمر المهم هو ما إذا كان يجبها فعلاً أو أنها مجرد شيء من هذه الأشياء .

- ماذا تقصدين بـ «شيء من هذه الأشياء»؟ لا شك في أنه متيم بها ما دام ينفق كل هذا المال عليها ، انه يهديها هدايا ثمينة . . .

- هل تعتقدين ذلك؟ لست واثقة من ذلك . . ف . .

- اسمعي ، ألا زلت تعتقدين أنه يجبك؟ فاسيا يا عزيزتي عليك أن تقلقي عن خداع نفسك، وإلا إزداد أملك. لا شك في أنه كلف بك، فانت زوجته وصديقه أيضاً. أما بالنسبة للحب، فصدقيني يا فاسيا، لقد كف عن حبك منذ زمن بعيد.

هزت فاسيا رأسها سلباً وقالت:

- لا أصدقك.

أزعج موقف فاسيا ليزا التي رآته حماقة لا غير. فراحت تصف لها صديقة فولوديا بنعوت تقصدت فيها المبالغة بإطرائها. فقالت إنها رائعة الجمال، رائعة الإناقة. ترتدي الحرير دائماً ويتحلق حولها المعجبون. ويتراخضون ليؤدوا لها الخدمات، ومن بينهم ساقيليف فهو صديقها الحميم. انهم يقضون ليالٍ حمراء وتقول الشائعات أن فلاديمير وساقيليف يقتسمان مصاريفها في ما بينهما. مجرد التفكير بأن فلاديمير متورط في مثل هذه الأجواء أثار في نفس فاسيا مشاعر الأسى والألم. أيسعه أن يجب هذه العاهرة فعلاً؟ ليس بوسعها أن تصدق. مهما حكى الناس، إنها لا تصدق. فالقصة غير منطقية.

زحجرت ليزا بغضب:

- حسناً. إذا كنت تأبين التصديق فهذا شأنك. ولكن اسألي من أردت وستلقين نفس الجواب. كانت سكرتيرة ساقيليف الشخصية ثم بدأت «تزور» المدراء والله أعلم من أيضاً، وذلك من اجل تحصيل مزيد من المال. ثمة إشاعات تقول بأن إيقان إيقانوفيتش وبعض المدراء مختلفون إليها. ومهما أسرفت في عهرها فإنها لا تملك تذكرة - وبوسعها أن تشكر الحكومة السوفيتية على هذا.

اعترضت فاسيا قائلة:

- لكن فلاديمير لا يمكن أن يجب امرأة من هذا الصنف.

- ما الذي يجعلك متيقنة إلى هذا الحد؟ الرجال قادرون على الوقوع في حب النساء بيسر. خاصة من كان من مثل حبيبك فلاديمير. وكلما كانت النساء محرومات - بالنسبة له - كلما إزداد رغبة فيهن . .

- اسكتي يا ليزا. كيف تجرئين على هذا القول. أنت لا تعرفينه حتى. ما الذي يجعلك تعتقدين أنك خليقة بالحكم عليه بهذه الطريقة.

- ولكن لماذا تدافعين عنه بينما هو يلحق بك الهوان تحت سمع وبصر البلدة كلها؟ بالنسبة لها الأمر مختلف، صدقيني، أنه يقف إلى جانبها في السراء والضراء، صدقيني.

- ماذا تعنين «بيلحق بي الهوان»؟ لقد اخترعت هذه القصة اختراعاً. في أية حال، تصرفات فلاديمير ليست من شأني. لست مسؤولة عنه. أنت لا تفهمين يا ليزا، إنني لا التفت إلى هذا، ما أحفل به هو شيء آخر مختلف تماماً.

- نعم، أعرف، كل ما يهمك هو أنه أقلع عن حبك.

- لا، ولا هذا، رغم أنه من المؤلم أن يواجه المرء هذه الحقيقة. الجوهري هو أنني أعرف ما الذي أحسه لكنني لسبب غيريين عاجزة عن التعبير عنه، ولا أعرف كيف حدث هذا. كنا حميمين قبل أن يبدأ هو بالكذب علي وإخفاء الحقيقة عني. ثم بدأ يخافني. أنا، من بين كل الناس - يبدو لي الأمر مستحيلاً. هل كان يظن أنني سأقف عائقاً في طريقه أو أنني سأدخل في علاقته الغرامية؟ محال أن يفكر اني قد أفعل ذلك. إنني عاجزة عن فهم الذي جرى. محال أن يحب تلك المرأة كل هذا الحب . .

قالت ليزا بصوت يشي بنفاذ الصبر:

- في أية حال، لقد أثارت فضيحة كبيرة. ولكن ليست هناك طريقة لإقناعك بالصواب يا قاسيا. من الواضح انك لا زلت تحت تأثير حبيبك

قولودكا. «أضربني، دوسني، لست آبه. فما أنا سوى زوجتك الذليلة المتواضعة». لعل مثل هذا الموقف يناسبك أما أنا فلا. لو كنت مكانك لجعلته يدفع ثمن كل ما فعله بي.

تمنعت قاسيا عن المحاججة، ولكن كلما قست ليزا في تهجمها على فلاديمير، كلما هبت قاسيا للدفاع عنه. كانت تنشد إقناع ليزا بأنها لا تلوم فلاديمير لكونه على علاقة بامرأة بل وربما لكونه يحبها ولكنها عاتبة عليه لأنه يخفي عنها الحقيقة كما قد يخفيها عن غريب.

وهو لا يعاملها على أنها غريبة وحسب، بل وعلى انها شخص غير جدير بالثقة. كان تصرفه يشي بأنه خائف منها. خائف من أن تلح على حقوقها الزوجية.

صرخت ليزا:

- هذا ما كان ينبغي عليك أن تفعله. وعليك أن تفعله الآن. كيف يجروء على إهانتك هكذا. ينبغي أن تهجره كلياً. انه ليس خليقاً بك يا قاسيا، إنه لا يساوي إصبعك الصغير.

تجادلت قاسيا معها بحدة. كانت دائماً هكذا. فمهما اسرفت في نقد فلاديمير، فإنها لا تسمح للآخرين بالتهجم عليه. بل وتحتد لأن الناس سيئون فهمه. كانت الشخص الوحيد الذي يفهم «الأمريكي». وحين ذكرت هذه الكلمة الأخيرة راحت تنحب بشدة. تدفقت ذكرياتها مع فلاديمير الذي أحبت، الرجل الذي قاد التعاونية. ودافع عن السوفييت. غمرها شعور عارم بالشقاء. التصقت بليزا تنسج. تلاشت خواطرها المتعلقة بفلاديمير المدير. كل ما تشعر به الآن هو حنين لفلاديمير الذي أحبته.

- الوضع كله مريع يا لزينكا، انه يُثقل عليّ.

أعرف ذلك يا عزيزتي الغالية. أتعرفين؟ لقد مررت بنفس التجربة

السنة الماضية . ولقد زودتني بالقوة لمواجهة اي شيء . غمامة صيف سوف  
تعبر، وستنتهي يا عزيزي .

ربت ليزا على رأس صديقتها تواسيها ما استطاعت إلى ذلك سبيلا .  
ثم جعلتها تأوي إلى سريرها، وجعلت من المقاعد سريراً تنام هي عليه .  
وكانت مرهقة فسارع النوم إليها .

أما قاسيا فلم تنم . تقلبت، استدارت، استوت جالسة، رقدت ثانية  
وقد أجهدها القلق والهواجس المتداخلة المضطربة التي عذبتها ومزقتها  
مزقاً . تراءت لها تلك الليلة الرهيبة حين اكتشفت بقع الدماء على السرير  
وحين جاؤوا ليعتقلوا فلاديمير . لكن ما يؤرقها ويستولي على كيانها لا يتعلق  
بالغيرة بقدر ما يتعلق بعدم ثقة فلاديمير بها .

- بوسعها أن تغفر له كل شيء إلا هذا . للقلب قوانين ذاتية خاصة به، إلا  
أنها عاجزة تماماً عن إدراك سبب عدم ثقته بها لدرجة حالت بينه وبين  
الاعتراف لها بأنه يجب امرأة أخرى .

الأمر بسيط . كان يحيا وحيداً طيلة شهور . وبدأ لتوه يقيم علاقة  
غرامية . وهو رجل عاطفي في اية حال . تذكرت ستيشكا . افترضت أنه  
طارحها الحب مرة وانتهت العلاقة عند هذا الحد . لكن من الواضح أن هذه  
المرأة لن تتخلى عنه بهذه السهولة . قالت ليزا أنها تضغط عليه - إذن فهي  
عاجزة عن حبه، لا بد وأنها تستغله . وقاسيا تعرف أن هذا الصنف من  
النساء مخادع ماكر . إنها لن تتخلى عن شخص مثل فلاديمير مهما رغب هو في  
قطع صلته بها .

تذكرت مرة أخرى كم كان كثيباً تعيساً في الفترة الأخيرة، وكيف كان  
متقلب الأطوار - فهو حميم متأجج العاطفة نحوها حيناً ثم فجأة يصير منعزلاً  
نائباً حيناً آخر دون سبب بين . الآن أدركت كم كان يعاني . أي عذاب  
تعذب . أن يعيش مع الشخص الذي يجب بينها هذه المرأة القاسية تشحذ

مخالبةا خلف ظهره .

تذكرت قاسيا كيف كان فلاديمير - وفي أكثر من مناسبة - على وشك توسل الغفران منها ثم يعدل فجأة . . مثل ذلك الصباح عندما بدأت متاعبه مع الحمالين . لقد شعرت قاسيا بالقلق آنذاك . لكن فلاديمير اثنى عن الموضوع حين جعلت تسعل بقدرة قادر . هل عدل عن إعترافه بسبب من عطفه عليها؟ وإذا كان ذلك صحيحاً . . أتراه دليل على انه يجبها؟

ثم تذكرت قاسيا قطع الحزير الأزرق قطعتان متشابهتان للثنتين ، فأدركت أن لا شيء يدفع على الاعتقاد بأنه يجبها . كل ما كان يقوله هو: «خذي ، هذه القطعة لك ، لأنك زوجتي رغم أنك منفرة . لقد اشترت لعشيقتي هدية ، لكنني لم أنسك . فخذي حريك واصمتي» .  
اللعنة عليه . اللعنة عليه . كورت قاسيا قبضتها ، وقد غمرتها رغبة لا تؤجل بضرب فلاديمير . طوقتها سلاسل سموم الغيرة . وشعرت بأن التعاسة تخنقها .

راحة البال ضائعة فهي لا تجدها . هل مضى فعلاً الى ساقيليف أمس؟ ولكنها سرعان ما تذكرت : ساقيليف لا يحل ولا يربط . فهو ليس سوى عذر وغطاء اتخذه فلاديمير ليحول دون معرفة الناس لحقيقة ما يجري . لو كان ساقيليف سبب كل شيء لما صفحت عنه أبداً . «إنني لا أبالي سواء غفرتي لي أم لم تغفري ، فأنا ماض في هذا الطريق الذي يمت . موتي بحزنك ، إنني أريد أن أفوز بكل ما يمكن أن أفوز به . ولن اضحي «بكيويك» واحد من أجلك ، لأنك تنفريني . . لو داس مشاعرها هكذا في الأمس في سبيل عصابة المبتزين ومن أجل لعبة ورق سخيفة فإنها لن تغفر له ذلك أبداً .

لقد كانت حوادث الأمس وراء شقائها واكتئابها ، وهي التي دفعتها الى الرحيل . لو كانت تعرف عند ذاك انه على علاقة بامرأة أخرى وانه يعاني من عذابات الحب لكتمت غيظها وثورتها . صحيح أنها قد تبكي وتكتئب لكنها ستفهم .

قد تتفهم علاقته بالفتاة ولكن هل كانت لتغفر له؟ لقد غفرت له علاقته بستيشكا وكانت صديقتة. أيعقل أن تصيح كلفة بالكلب «البودل» أيضاً، أو تغض النظر عن قطعة الحرير تلك نهائياً؟ ولكن ليس هذا الوقت وقت تفكير بهذه المسائل. الجوهرى الآن هو: أليكون بوسعها أن يعيشا معاً كصديقين حقيقيين. فلا يخبيء أحدهما شيئاً عن الآخر. في السابق كانا يلجان المعركة يداً بيد، لكن ها هما اليوم كل في طريق منفصل تماماً، ما الذي تبقى ليربطهما معاً؟ القلب؟ ولكن ماذا لو ابتعد فلاديمير بقلبه بعيداً عنها، ماذا يتبقى؟ لا شيء.

وليس من مصلح بينهما. لا شيء إلا الشقاء. لم يعرف أحد في هذا العالم شقاء مثل هذا الشقاء.

في صباح اليوم التالي، وما أن مضت ليزا إلى عملها حتى جاءت ماريا سيمينوفا. يغطي وجهها وشاح مخرم. كان الطقس في هذا اليوم الصيفي حاراً، وكانت ماريا تلهث ووجهها محتقن. قالت:

- نهار سعيد يا قاسيليسا ديمنتيئنا. إنني احمل رسالة من زوجك. امرني بأن استقل سيارة وآتيك بأسرع ما يمكن، ولكن اين يجد المرء سيارة اجرة هذه الأيام، أود أن أعرف؟ لقد انقطع نفسي.

كان المظروف مظروفاً حكومياً - فتحتة قاسيا بأصابع خدرة تحركها بصعوبة. راحت تقرأ.

قاسيا. ماذا حدث؟ ما الذي تفعلينه بي؟ لماذا تعذبيني بهذه القسوة؟ هل ترغيبين في نشر هذه الفضيحة في المنطقة كلها حتى يجد اعدائي ذخيرة جديدة يطلقونها علي؟ هل تنشدين تحطيمي كلياً؟ لقد قلت انك صديقتي. فكيف يسعك الوقوف إلى جانب أعدائي هكذا؟ إنك تمزقيني. لا يسعني أن أحيا هكذا أكثر. إن كان قرارك قد قر على انك ما عدت تحبيني فأخبريني بصراحة، ولكن لا تهاجميني من الخلف بهذه الطريقة. انت تعرفين أنني

احبك - قد يشاغب الناس علي، ولكن ليس ثمة أي شيء سوى حماقتي سريعة الزوال. أصغي إلي، لم أذهب إلى منزل سافيليف أمس ولكنني أقسم لك أنني لم أخنك حيث كنت. فحيثما كنت سيبقى قلبي معك. ما عدت احتمل. اتوسل اليك يا فاساي أن تشفقي علي وتعودي إلى البيت حتى أنظر إلى عينيك الرائعتين واعترف لك بالحقيقة كلها. إذا كنت صديقة حقيقية لي فإنني أعلم أنك ستأتين. وإن لم تأت فذلك يعني الوداع. صدقيني حين أقول لك أنني عاجز عن الحياة بدونك.

فولوديا ذو القلب المحطم.

قرأت فاسيا الرسالة مرتين وامتلاً قلبها ببهجة حلوة حتى أن الدموع انهمرت من عينيها. «زائلة» قال «احبك ولا أحب غيرك». وفجأة هاج ساكنها فدهمها غضب عارم. من الذي «مزق» الآخر؟ وهل هي التي يجب أن تشفق عليه؟ ولكن لماذا لا يشفق عليها هو ويكف عن تعذيبها؟ جفت دموعها وزمت شفيتها الشاحبتين. إذن يعتقد أنه تعيس. وهو الذي قضى الليلة بين ذراعي امرأة أخرى ومنحها قطعة من الحرير.

تبدد كل العطف عليه. أمس توسلته أن يبقى، كلماتها، عيناها، تتضرع لكنه دفعها وصرخ بتلك الاهانات «الرجالية» النمطية - ومضى.

وها هو الآن يكتب: «لا أحب إلا أنت». أي سخافة. إنه لا يحبها أبداً. ولنفترض أنه يحبها، فأني ضرب من الحب هذا، إهانات ونزاعات وقلق. بوسعها أن تستغني عن مثل هذا الحب. ثم لماذا كتب «وداعاً». فقط صدقيني حين أقول أنني عاجز عن الحياة بدونك» ماذا يعني بذلك؟ إنه لا يعني أي شيء على الاطلاق، إنه يهدد تهديداً أجوف. مخططاً لإثارة شفقتها حتى تسعى إليه راكضة كالحمقاء. قرأت فاسيا رسالته للمرة الثالثة.

في هذه الأثناء جلست ماريما سيمينوفا تمسح العرق عن وجهها اللامبالي الرائق وتهز مندليها طلباً للهواء. قالت:

- لقد عاد فلاديمير ايغانوفيتش ساعة غادرت المنزل . سألني إلى أين ذهبت فقلت وكيف لي أن أعرف؟ ثم سعى إلى مكتبه وجلس إلى أوراقه . ثم اتصل بايقان ايغانوفيتش وسأله أن يأتي . فجلّسنا في غرفة المكتبة فترة . عند منتصف الليل جاء إلى المطبخ وسألني إن كنت قد رجعت . وحين جاء جوابي سلباً انصرف مرة أخرى . بعد أن ودع ايقان ايغانوفيتش قصد إلى غرفة النوم حيث وجد رسالتك . أعتقد ذلك لأنني سمعته ينتحب . كان يحطم نفسه حزناً كطفل . ثم راح يذرع الغرفة طوال الليل ، ورفض أن يحتمي هلهائي هذا الصباح - قال لي : «لا أرغب في أي شيء . اذهبي وابحثي عن قاساليسا ديمنتيقتنا واعثري عليها . طوفي بكل اصحابها حتى تجديها ، ولا تعودي إلى البيت من دونها» .

هذه الكلمات جعلت قلب قاسيا يؤلمها . إلا أن مشاعر المحبة القديمة التي كانت تكنها لفلاديمير ما عادت سوى مصدر إزعاج يثير فيها مشاعر اليأس . إذن فقد قضى الليلة وحيداً ، ينتظرها بشوق ، ينتحب من أجلها ، ويرسل في طلبها . شعرت بالشوق اليه وبالغيرة . من الواضح أن العلاقة بينهما لم تنكسر تماماً وأنها مفعمين بالمشاعر العميقة المتبادلة . ولكن لماذا إطالة هذا العذاب؟ لماذا تعود فقط لتشرح وتفهم وتمر ثانية بنفس التجارب المرة؟

سألت ماريا سيمونوفا :

- ماذا فعل فلاديمير ايغانوفيتش حين انصرفت؟ هل سعى إلى المكتب؟

- حين انصرفت؟ اتصل بفتاته ، ربما ليقول لها على الأغلب كم هو تعيس أو ربما كم هو سعيد . لا يمكن للمرء أن يعرف حقيقة تصرفات الرجال؟ إنهم لا يباليون ما داموا غير معرضين لفضيحة .

إذن فقد اتصل بصديقه هذا الصباح . بعد كتابة الرسالة إليها . لعل ليزا على حق . لعله فعلاً لا يرغب من التمسك بها سوى تجنب الفضيحة . لو لم تكن زوجته لتركها تنصرف دون أن يبالي . لقد أرسل في طلبها الآن

ليستبد بها مرة أخرى . لكنها ما عادت تحتمل . عليها أن تسيطر بطريقة أو بأخرى على قلبها الأحمق . فهي لن تعود إليه ، لن تمشي نحو الفخ الذي نصبه لها كالعمياء .

شعرت بالدوار .

- قولي لقلاديمير ان لا جواب مني له . هذا كل شيء . والآن اذهبي بسرعة ارجوك . هيا .

غمغمت ماريا سيمينوفا :

- ليس بوسعي أن أمضي بسرعة تفوق سرعة قدمي أليس كذلك؟ ثم أنك تتسرعين يا فاسيليسا ديميتييفنا . لو كنت مكانك لفكرت وأطلت التفكير بالأمر . صحيح أنه أساء إليك ، صحيح أنك زوجته ، ولكنك أسأت اليه ايضاً . كان عليك أن لا تتركي زوجك الشاب هذا وحيداً طوال تلك الأشهر . وانت تعرفين انه زوج رائع ، إنه يُعنى بك . ألم يحضر لك الكاكاو حين كنت مريضة؟ ألم يقل لي أن أشتري لك بيضاً طازجاً؟ إنه يُعنى بك أكثر مما تعتنين بنفسك . وما كان يرفض لك طلباً . أما بالنسبة للمرأة الأخرى . . فإنني ارغب في أن أعرف أي رجل ليس مذنباً في هذا المضمار؟ أنت زوجته ، أنت التي يحترم ، أما الأخرى فإنه يوجد بالمال والهدايا فقط .

إن ماريا سيمينوفا لا ولن تفهم . إنها لن تفهم أنه إن لم يعد قلاديمير صديقاً حقيقياً فإن ثقتها به سوف تتلاشى ، وإذا كانت الثقة بينهما مبددة فإنهما سيعجزان عن العيش معاً .

- لماذا لا تنتظرين حتى هذا المساء يا فاسيليسا ديميتييفنا؟ بوسعي أن أذهب الآن وأخبر زوجك بأنك تفكرين في الأمر ملياً وأنك سترسلين له جواباً هذا المساء . ذلك اكثر واقعية . وإلا اضطرت إلى اخباره بأنك قررت ما قررت وأنت في عجلة من أمرك . إنك بصقت الكلمات بصقاً وأشرت

علي بالإنصراف . حين يكون المرء متسخطاً هكذا فإنه يعمد إلى إرتكاب  
أخطاء يندم عليها طوال حياته . وعندها سيكون أسفاً حقاً .

- لا يا ماريما سيمينوفانا، ارجوك لا تحاولي تغيير رأيي . إنني أعني ما أقول .  
لن أعود إليه أبداً . لقد انتهى كل شيء .

ارتعشت شفتاها، وانسكبت دموع كبيرة على وجنتيها .

- حسن، هذا راجع إليك . لقد نصحتك، والقرار قرارك .

إنصرف ماريما سيمينوفانا . وودت فاسيا لو تعود مثل حيوان، لو تعوي  
عواءً طويلاً يسمعه الشارع كله . لقد انتهى كل شيء، ولن تعود إليه .  
الواداع يا فولوديا، الوداع ايها الحبيب . مدت ذراعيها الدقيقين إلى فولوديا  
وكلها شوق إليه بينما انهمرت الدموع على خديها الشاحبين . وضوء العقل  
البارد يقول لها طوال الوقت: «كفى، توقفي عن ذلك . لن تعودي إليه .  
انتهى كل شيء إنها النهاية» انتحبت طويلاً . ثم دفنت وجهها في وسادة ليزا  
ونامت وقد هدها الإعياء .

استيقظت على صوت صياح مرتفع وسمعت صوت سيارة تقترب من  
النافذة . من هذا؟ تطاول رأسها . لعل فلاديمير قد جاء ليراها . هرعت تفتح  
ستائر النافذة وقد امتلأت بالأمل والبهجة . لكنها رأت الصبي الساعي يقف  
بالباب .

قال وهو يلتقط أنفاسه :

- وقعت كارثة رهيبية يا فاسيليسا ديميتيفنا، لقد حاول فلاديمير ايفانوفيتش  
الانتحار . لقد تناول السم .

- ماذا قلت؟ ماذا قلت؟

اندفعت فاسيا نحوه، وقبضت على يده :

- هل مات؟

- لا ، ليس بعد . انه لا يزال حياً ، لكنه يهذي ويتوجع وجعاً عظيماً . إنه يناديك ، لقد ارسلوني لأعود بك في السيارة .

هرعت قاسيا إلى السيارة كما هي دون أن تضع معطفاً . اسنانها تصطك وجسدها يرتعش . لقد قتلت حبيبها . دمرته ، خذلته حين ناداها نداء من أعماق قلبه . اتسعت عيناها ، ولاحت فيهما نظرة ذاهلة ، لا من حزن بقدر ما هي من شيء كانت عاجزة عن السيطرة عليه كما الموت نفسه .

راح قاسيا - الساعي - الذي لم يلحظ تعابيرها يتحدث بدقة عن الذي جرى . كانت الدراما الجديدة قد أثارته . لقد ترك فلاديمير المكتب هذا الصباح ، حيث بقي هناك ساعة ثم عاد إلى المنزل . فسعى إلى غرفة المكتبة . ورآه قاسيا الذي كان يمسح الأرض في الخارج يسعى إلى الخزانة حاملاً زجاجة تحتوي على مادة تستخدم في تجريب الألوان . بعد ذلك دلف قاسيا إلى الصالة وسمع أنيناً رهيباً . دلف إلى غرفة المكتبة فألقى فلاديمير ايثانوفيتش راقداً على الكتبة . عيناه منقلبتان الى أعلى ، فمه فاغر وثمة رغبة على شفتيه . اعتقد قاسيا أنه ميت .

ثم دبت الفوضى . هرع قاسيا لاستدعاء الطبيب الذي كان يهم بتناول طعام العشاء . صرخ قاسيا :

- إسمع ثمة رجل يموت ، ستجد وقتاً كافياً لتناول العشاء فيما بعد . ثم أرسل قاسيا إلى صيدلية بينا سارع إيقان ايثانوفيتش إلى المنزل . وهذا يركض هنا وذاك يركض هناك . فقد عم الاضطراب .

حاولت قاسيا أن تصغي لما يقوله لكنها عجزت عن التركيز . شعرت في تلك اللحظة وكأنها لم تعد موجودة . بات قولوديا ومعاناته الحقيقة الوحيدة ، وشعرت بنفسها تندمج فيه . إن لم ينج قولوديا فإن حياتها ايضاً سوف تنتهي ، لن يبقى أمامها سوى الفراغ ، أقفر من قبر .

دلفت قاسيا إلى الصالة بينما كان ايقان ايقانوفيتش يودع الطبيب .  
أوقفته :

- ألا يزال حياً؟

قال الطبيب :

- إننا نفعل كل ما بطاقتنا، لكننا لا نستطيع أن نجزم قبل الصباح .

سعت صوب غرفة النوم على رؤوس اصابعها . الأنين يرتفع . شعرت  
وقد غمرها الألم أنها هي فلاديمير وأن هذا الانين انينها .

كانت الغرفة غارقة في فوضى غير عادية . البساط ملتف على بعضه .  
السرير في موقع آخر - ولكن أين قولوديا؟ رأت شيئاً أبيض على الأريكة .  
وجهه رمادي ، عيناه مغمضتان وأنيبه توقف . أوه ، لا ، من المؤكد أنه لم  
يمت . هتفت :

- قولوديا ، قولوديا .

التفت الطبيب نحوها ورمقها بنظرة مغضبة :

- هُش ، أتوسل اليك . . لا تكوني هستيرية . . ارجوك .

كان يعالج فلاديمير تساعده ممرضة بمنديل ابيض . بدت على وجهها  
هيئة الجد والقسوة ومنعا قاسيا من الاقتراب منه . فتح قولوديا عينيه وجعل  
يتنفس باطراد . إنه حي يرزق !

همست فاسيا:

دكتور. . أرجوك، أخبرني الحقيقة. هل هناك أمل؟

قال:

- ما دام القلب يعمل فثمة أمل.

تساءلت ما معنى هذا «ما دام القلب يعمل»؟ وماذا لو توقف. لكنها لم تجرؤ على سؤال الطبيب مرة ثانية. كان يرفع رأس فلاديمير بمساعدة الممرضة ويسكبان شيئاً في فمه. بدأ يئن مرة ثانية. أنيناً متشنجاً حيوانياً. وما زالت فاسيا تسمع هذا الأنين وهي في حالة من الخدر والذهول حتى بهظها حملها فلم تقو على تجمل المزيد.

خيم الليل فأشعل الضوء في غرفة النوم. أقبل المزيد من الأطباء. وبعد التشاور أرسلوا الساعي إلى دائرة الصحة كي يحصل على إذن لإحضار دواء خاص. لم يسمحوا لفاسيا أن تجلس إلى فلاديمير الذي كف عن مناداتها. وكان يغمى عليه تارة ثم يرسل هذا الأنين المعذب تارة أخرى. وبدا لفاسيا أن الحياة تخرج من جسده مع هذا الأنين المرسل. وخيل اليها أن روحه تنازع الجسد، والجسد متشبث بالروح لا يخلي سبيلها. شعرت بأنها عديمة الجدوى، فالطبيب يبعتها وهي عاجزة تماماً.

ثم خطرت لها فكرة ملحة استولت على بالها استيلاءً. لا شك في ان شائعات محاولة الانتحار هذه قد بدأت تنتشر. سيقول الناس: «تصوروا شيوعي ويحاول قتل نفسه بهذه الطريقة! ترى لماذا أقدم على ارتكاب مثل هذا الفعل. عندها تنتشر القصة كلها. عليها أن تفكر بعذر مقبول منذ الآن.

فكرت بسرعة - لقد أكل فطراً مسموماً. نعم، تناول الفطر على الغداء، وها هو الآن في حالة الخطر. تذكرت أن ذلك حدث مرة حين كانت تقيم مع جدتها في الريف. فقد جاء خياط من البلدة ليقيم مع شقيقه

وقد قطف بعض الفطر المسمم . طبخه فأكله ثم توفي .

قامت قاسيا باتصالات متعددة . اتصلت أولاً بميخائيلو باقلوقيتش وقالت له أنها ستشرح له الأمر بالتفصيل حين تراه، لكنها تريد الآن أن تنبهه بالكارثة الرهيبة . لقد تناول فلاديمير ايفانوقيتش فطراً مسموماً وأنه الآن على وشك الموت . ثم اتصلت بالرئيس وبععض الأصدقاء . ثم نبهت إيفان ايفانوقيتش طالبة منه أن يروي نفس القصة للمديرين والموظفين .

وأضمت هرة طويلة وهي تلقن ماريا سيمينوفا وقاسيا الصبي الساعي ما ينبغي أن يُقال . كان الساعي صبيّاً ماكراً وكان يعرف الحقيقة . هز منكبيه ونفخ ثم وافق على رواية هذه القصة . أي اضطراب! ولكن الأمر عنده سيان . فليكن الفطر المسمم هو السبب .

إلا أن ماريا سيمينوفا شبكت ذراعيها على بطنها، زمت شفيتها ورفضت هذا المبرر . إذ وقع في نفسها موقعاً جارحاً قالت معترضة :

- كيف يمكن للمرء أن يتسمم هكذا بواسطة الفطر . سوف يشك الناس بي إذ أنني المسؤولة عن الطبخ .

لكن قاسيا ألحت قائلة أنها أخبرت الجميع بهذه القصة الملفقة .

- كما تريدين . لكنها قصة سخيفة . لو فكرت بأي سبب آخر لكان ذلك أفضل . ومن تراه يطبخ فطراً مسموماً إلا مجنون .

غادرت قاسيا المطبخ . بينما ظلت ماريا سيمينوفا نائرة مرتبكة وراحت تحرك الطعام بغضب . «إنهم يخلقون الفضيحة تلو الفضيحة، اضطراباً تلو اضطراب، وها هم يريدونني أنا أن أتحمل اللوم، انهم يتكتمون، حتى أن الشيطان نفسه لا يجرؤ على ما يجرؤون . . وها هم يطالبونني بتسوية ما أفسدوا نيابة عنهم . سوف يوجه الناس اصابع الاتهام إلي . وكأنني لا أميز بين الفطر المسموم من الفطر غير المسموم . وكأنني قد أضع فعلاً فطراً

مسموماً في صحنه . منذ عشرين سنة وأنا أعمل طاهية، ولست طاهية عادية، ولا خادمة . حتى أنني أملك أكثر من شهادة توصية وحسن سلوك . زوجة الجنرال غولوبوف نفسها - وهي سيدة ذات شأن - ما كانت تناديني إلا ماريًا سيمينوفنا . ثم هناك آل بوكاتيلوف وقد كانوا من أصحاب الملايين، لقد منحوني في عيد الميلاد مرة ساعة ذهبية وسلسلة استحساناً منهم للصلصات التي كنت أعدها . وها أنا آتي إلى هنا . . فماذا ألقى؟ «ماريا سيمينوفنا تضع فطراً مسموماً في طعام المدير» ما كنت احسب أنني سأعيش لأرى يوماً أهان فيه هكذا . وأنا التي خدمته بكل طاقتي . ولطالما أسفت لحال قاسيليسا ايضاً . لقد تكتمت والتزمت الصمت أكثر من مرة بشأن زوجها في حضورها . . وهذا كل ما ألقاه من إمتنان . أية فضيحة هذه؟ ويقولون رغم ذلك أنهم شيوعيون .

قاطعها الساعي قائلاً بلا مبالاة وهو يحرك الشوربة باستمتاع :

- ما بإلك نائرة غاضبة؟ وكان ما نروييه للناس يحمل أية أهمية! إنهم لن يتمكنوا من التكتم على هذه القصة في أية حال . عليك أن لا تعرضي نفسك للوم . لقد اختلقوا قصة الفطر هذه ليتجنبوا الفضيحة . في أية حال هذه القصة تروق لي . فهي رواية متقنة تراجيدية تماماً كما في السينما . إنها كوميديا حقيقية .

- لعلك تجدها كوميديا أيها الصبي الأحمق، لكن ثمة رجل يحتضر وكل ما يسعلك أن تقوله هو أن الأمر مضحك . ماذا حل بكم جميعاً؟ لم يعد ثمة من يحترم الحياة الآن، إنهم يطلقون النار ويقتلون المرء هذه الأيام لمجرد أنه ارتكب إثماً تافهاً . بانغ . . هكذا . ما عاد المرء يحتفل حتى بحياته هو . سجل علي ما أقول . السبب كله عائد إلى أنكم تخلتتم عن الله .

قال قاسيا بنفاذ صبر :

- لا تبدئي بإدارة هذه الأسطوانة مرة أخرى. صحيح أني لست شيوعياً، إلا أنني لا أوّمن بالله.

- وهذا شيء منكر أيها الشاب إن كنت تريد معرفة رأيي. وبالمناسبة.. لماذا تتسكع هنا مدلياً لسانك الأبله بدلاً من أن تنجز أعمالك؟ بوسعك أن تساعدني في تنظيف الصحنون. آه من هؤلاء الأطباء المشيطنين. أنظر إلى كل هذه الصحنون التي استعملوا. إنهم لا يكفون عن طلب الشاي والمشروبات المنعشة، لكن كل هذا لا يفيد، إنهم عاجزون عن فعل أي شيء. لن يحصل إلا ما قدره الله. قلت ذلك لتلك الفاجرة التي تنتظر أرسلتها عشيقة فلاديمير ايغانوفيتش. كنت أقدم طعام العشاء للأطباء حين تسللت من المدخل الخلفي، تهفهف تنورتها وتحشخش مريبتها. كانت تضع عقدة مثل فراشة بيضاء مربوطة حول رأسها قالت: «سيدتي أرسلتني لأسأل عن حال فلاديمير ايغانوفيتش الصحية.

فقلت:

- قد يلقي وجه ربه في أي لحظة، فالله يعاقب كل واحد منا على خطاياها وبوسعك أن تقولي لسيدتك الفاجرة الوقحة التي تخدمين أنه من الأفضل لها أن تسعى إلى الكنيسة لتتوب. لأنها هي ولا أحد غيرها مسؤولة عن دمار هذا الرجل وحق السماء.

قد تكون ماريا سيمينوفا صموتة أمام فاسيليسا، لكنها لا تكف عن الكلام إذا ما وجدت من يصغي.

في الأيام التالية ازدحم البيت بزملاء فلاديمير الذين أقبلوا ليعودوه وغص المنزل أيضاً بالأطباء الذين كانوا يتشاورون في حالته. جاءت ليزا ولازمت فاسيا ليلة تلو أخرى حتى تحول دونها والتشكي المعذب من حالة قولوديا. وكانت تشعر أن اللوم يقع عليها بسبب اذكاء عداة فاسيا لفلاديمير، وكان شعوراً لا يطاق.

إلا أن قاسيا قالت لها مؤكدة :

- ولكنك لست السبب يا ليزا. أنا التي أطلقت عنان العداء نحوه. ولم أدرك أنه أغلى الناس إلى قلبي إلا حين شعبرت أنه قد يفارق الحياة. كيف لي أن أعيش بدونه الآن... وأنا التي كنت سبب كل هذا؟

في صباح اليوم التالي كان الصمت يخيم على المنزل. وكانت قاسيا تجلس على الفراش قرب فلاديمير وحيدة ورأسها على ذراعه. تساءلت ماذا يا ترى يحصل إذا مات فلاديمير تاركاً إياها بلا هدف تحيا من أجله؟ ما الذي سيعنيه لها الحزب أو الثورة؟ الحزب يحتاج إلى أناس لا تثقل الجرائم ضمائرهم. ولكنها ستظل تعيش كابوس معرفة إنها قاتلة فلاديمير. لا شيء إلا الغيرة النسائية.

لو كان فولوديا متورطاً بالسر في صفقات غير شرعية مع ساقيليف وأصحابه من المحتالين على حساب الوطن لكان تصرفها مبرراً، لكن واقع الأمر إنها دفعت صديقها إلى الانتحار لمجرد كونه على علاقة بامرأة أخرى. وقد أثبت أنه صديق حساس. وهي كانت تعتقد أنه أقلع عن حبها. ولكن أنى لها أن تفكر أنه قد يذهب هذا المذهب ويحاول الانتحار من أجلها؟ لا بد وأنه شعر أن الحياة بدونها قفراء بلا بهجة ولا فرح. ورغم تعاستها فإن هذه الحقيقة جعلتها ترغب في البكاء لا من مرارة ولكن من ندم رقيق.

رنت إلى فولوديا وهمنت برقة :

- هل ستسامحني يا حبيبي؟ هل ستغفر لي أيها الغالي؟

حذق فلاديمير وهو يهز رأسه باضطراب غمغم :

- ماء، ماء.

- خذ يا حبيبي، إشرب.

ورفعت رأسه من على الوسادة بعناية كما علمتها الممرضة وساعدته

على احتساء الماء . فتح عينيه ونظر إليها كما لو أنه لا يبصرها . سألته وهي تميل نحوه :

هل تشعر بتحسن يا فولوديتشكا .

طرفت عيناه لكنه لم يتكلم . ثم سأل بصوت ضعيف :

- هل ايقان ايقانوفيتش هنا؟

- لا ، ذهب إلى منزله . لماذا ، هل تحتاج إليه؟

هز رأسه بلا إيجاب . قال :

- اتصلي به وأشيري عليه بأن يأتي إلى هنا .

قالت برقة :

- لكن الطبيب أشار عليك بالراحة وعدم العمل .

لاحظت ملامح نفاذ صبر ومعاناة على وجهه .

- أرجوك لا تناكديني الآن . اتصلي به . .

وأغمض عينيه مرة أخرى .

أجفل قلب قاسيا . لماذا قال «لا تناكديني الآن»؟ إذن فهو لم يغفر لها

إنها سبب معاناته هذه . اتصلت بإيقان ايقانوفيتش ببلادة وحين وصل

طلب منها فلاديمير أن تغادر الغرفة لأنه يرغب في أن يختلي به .

غادرت قاسيا الغرفة وسعت إلى الحديقة .

لم تضمها الشمس كما فعلت في ذلك الربيع . كانت ملتهبة حتى أنها

حرقت رأسها وكتفيها وذراعيها . وكان ثمة أزهار قرمزية ممتحة وكانت

الأضاليا مزهرة . الحديقة نامية بجموح ، حيث الشجيرات المزهرة ذات

الرحيق تتماوج مع الليلك المزركش بالبلاب . وفي هذا القيظ كان للسماء

لون النحاس المصهور . راحت قاسيا تذرع الممرات الملتهبة . لن يغفر

فلاديمير لها أبداً . لو عادت له في ذلك الصباح حين أرسل في طلبها لما

حدث ما حدث . لكنها الآن فقدته إلى الأبد . لم تفقد زوجها وحببها  
وحسب ولكن أعز أصدقائها أيضاً . لن يثق بها بعد اليوم أبداً . ولن  
يلتمس مساعدتها بعد .

استندت قاسيا إلى شجرة أفاقيا - الشجرة نفسها التي أزهرت ذلك  
الربيع وأرسلت رائحة عذبة - وأغمضت عينيها . ليتها تسم نفسها . ليتها  
تموت . .

ترامى إلى مسمعها صوت ايقان ايقانوفيتش :

- قاسيليسا ديميتيشنا ، فلاديمير يناديك .

أدار محرك سيارته وانطلق . تساءلت قاسيا : ترى إلى أين يذهب؟ ربما  
إلى صديقة فلاديمير حاملاً رسالة منه . لكنها ما كانت لتبالي فقد قضي  
الأمر . كانت شمس الصيف حارقة ملتهبة . وكانت الستائر المعدنية في  
الداخل مسدلة وقلاديمير يغفو . جثت قاسيا عند مقدمة السرير وطردت  
الذباب . فكرت : دعوه ينام مرتاحاً لقد تألم بما فيه الكفاية .

كانت ماريا سيمينوفا قد ذهبت لتسوق ، أما قاسيا الساعي فقد ذهب  
هو الآخر إلى مكان ما ، فبقي فلاديمير وقاسيا وحيدين . شعرت بالسعادة  
لبقائهما وحيدين هكذا إذ أنها شعرت للمرة الأولى أنه لها لا لغيرها .  
وتأملته وهو يرقد هناك عاجزاً ضعيفاً وتمنت لو يتفهمها لو يرى إلى قلبها  
ويحس بأية عاطفة جياشة تحبه . لو يعرف كم أن التماس حبه قاس وعسير  
خاصة حين يكون صموتاً متجهماً معها ، وحين يتجاهلها . حتى إنها إذا  
رتبت وسائده بطريقة لا تعجبه سارع إلى القول بامتعاض :

- أنت مزعجة مثل الممرضة . أليس بوسعك أن ترتبها بطريقة صحيحة .

طبعاً هذا منتظر ومتوقع من مريض ، إلا أنها رغم ذلك تتمنى لو  
يكف عن معاملتها بهذه الطريقة .

أمن الممكن أن لا يغفر لها أبداً؟ وأن تستمر حياتها باردة نائية؟ تأملت وجه فلاديمير الأليف اللطيف ورموشه الرائعة التي أحببتها منذ أن وقع بصرها عليها. أما هو فقد أحب ضفيرتها. لكنها ما عادت تضفر شعرها، وكأن ضفيرتها جزء من قصة خرافية. لقد سحرت حببها بصفيرتها ولما قصتها هجرها الحبيب.

كم كانا يجبان بعضهما في ١٩١٧. وبعدها أيضاً: تذكرت تلك الليلة التي جرى فيها الهجوم الأبيض حيث ذهبا لاعتقال المتآمرين. قال لها:

- قد يقتلونني يا قاسيا، ولكن عليك أن تعديني أن لا يمنعك ذلك عن القيام بما ينبغي القيام به. سوف يتاح لك في المستقبل متسع من الوقت للبكاء.

أجابت:

- كذلك بالنسبة لك يا قولوديا، لنعاهد أنفسنا بمواصلة المسيرة مهما حدث.

احتبكت يدهما وتبادلا نظرات ذات مغزى ثم انطلقا لا يلويان على شيء. كانت ليلة باردة والصقيع يجلل الأشياء، وكانت خطواتهما تنسحق في الثلج الصلد.

انهمرت دموع الحنين على خديها لدى استحضارها ذكريات الماضي السعيدة. حتى الآن لم تذرف دموعاً على هذه الكارثة، لقد حاولت جهدها أن تتخذ هيئة الصابر متناسبة مشاعرهما الشخصية، لكنها الآن تبكي الأيام القديمة.

- لماذا يا قاسيا، ما الأمر؟

قال قولوديا وهو يرفع رأسه عن الوسادة ويرنو إليها - لا بعيني الغريب الباردتين - ولكن بنظرته المحبة القديمة. مفعمة بالحب والحزن.

- ما الأمر يا قاسيك، لماذا تبكين يا حبيبتى المسكينة؟

حطت يده برفق على شعرها الجعدي .

- فولوديا يا أيها الغالي، هلا غفرت لي ما فعلت؟

- هراء، وهل فعلت ما يستحق الغفران؟ أرجوك كفي عن البكاء هكذا وسوف نتحدث في الأمر. تعالي واجلسي هنا بقربي. عظيم حديثنا سيهون الأمر على كلينا أليس كذلك يا قاسيا؟

- ولكنني أخشى أن يسبب لك حديثنا حول الموضوع الازعاج يا حبيبي .  
لنؤجل الأمر إلى يوم آخر.

- لا، لن يكون بوسعنا أن نقول ما نريد أن نقول فيما بعد. إن الحديث حول الموضوع يريحني. لقد كنت أتعذب يا قاسيا، ولهذا حاولت وضع حد لحياتي، ورغم أنني الآن أملك إرادة راغبة في الحياة مرة أخرى، إلا أنني لا أكاد أرى مخرجاً يا قاسيا.

- ولكنني على يقين يا فولوديا من أننا سنجد حلاً. لا يسعني أن أصدق أنني بت نائية عنك إلى درجة تحول دون استمرارنا معاً.

- إذن فأنت قد عرفت كل شيء يا قاسيا.

هزت رأسها بالاجاب :

- نعم، عرفت كل شيء.

- وأدركت لماذا كنت كئيباً وقلقاً إلى هذه الدرجة، وكنت أنت تنتقدين طوال الوقت فلا تتركين صغيرة ولا أمراً سخيفاً إلا وتشكين منه. ورحت تتدمرين من ساقيليف...

- نعم يا فولوديا، أعرف.

- وثمة موضوع آخر أخطأت فيه أيضاً. ظننت أنني أحبها، إلا أنني لم أحبها أبداً يا قاسيا. إنما أحبك أنت يا ملاكي الحارس، يا أعز وأخلص

أصدقائي . أما هي فشيء مختلف تماماً، سمي هذه الحالة افتتان إن شئت، أي نعت إلا الحب . ولقد استولت عليك الغيرة منها، وكنت مستريبة طوال الوقت وتجسست علي .

قالت فاسيا معترضة :

- لكنني لم أفعل هذا أبداً يا قولوديا .

- ماذا تعنين؟ ألا تذكرين حادثة قطعة الحرير؟ ألا تذكرين كيف أزعجتني ازعاجاً متواصلاً وأنت تتسائلين عن مصدر رائحة العطر التي تفوح مني أو عن المكان الذي يقيم به ساقيليف؟ كنت تبحثين دائماً عن اثباتات قاطعة تؤيد شكوكك .

- صحيح، لكنني لم أتجسس عليك يا قولوديا، هذا ليس صحيحاً . لقد دفعته مخاوفي إلى الجنون . وجهدت في مغالبة هذه المخاوف حرصاً على ثقتي بك .

- إلى جانب مخاوفك كنت غيورة، اعترفي بذلك . لم تبوحي بذلك مباشرة، لكن اضطهادك لي جعل الحياة لا تطاق . ماذا أقول بعد؟ المسؤولية تقع علينا نحن الاثنين :

لاذا بالصمت . ثم سألته فاسيا بصوت قاتم معذب :

- هل ستظل حياتنا هكذا دائماً يا قولوديا؟

- لسبت أدري يا فاسيا، لا أعرف ماذا يسعنا أن نفعل . أشعر بالعجز .

ران الصمت مرة أخرى .

قالت فاسيا أخيراً :

- هل تعتقد أنك قد تكون أسعد حالاً معها يا قولوديا؟

ودهشت لأنها سألت ما سألت بيسر ودون ألم .

- أوه يا قاسيا، لماذا لا تثقي بي؟ كنت على استعداد لقتل نفسي حين أدركت أنني فقدتك. أليس في هذا دليل كاف على أنني لا أحب إلا أنت.

صوته وعيناه يشيان بالعتاب. وبدأ قلب قاسيا يرتعش وومضت عيناها البنيتان بسعادة مفاجئة.

- فولوديا يا حبيبي، يا زوجي.

ضمت جسدها إلى جسده وطوقت عنقه بذراعيها والتمست شفاتها شفتيه.

- لا يا قاسيا، ليس الآن، إهدئي يا قاسيك كما ترين إنني لا أزال ضعيفاً عاجزاً عن تقبيلك.

ابتسم ومسد شعرها، لكن ملامحه وشتت بحزن عميق. بدا وكأن لا مجال لتخطي الحاجز الذي يفصل بينهما، وسياج الاغتراب بينهما مسدود.

عاد فلاديمير إلى عمله . في ذلك الصباح بعد أن مضى إلى المكتب ، لم يكن بوسع قاسيا مداراة فرحها بعودة حررتها . فسعت من فورها إلى اللجنة الحزبية . ومن هناك عازمت على المضي إلى مصنع الحصائر حيث تنتظر ليزا مساعدتها بالإعداد لمؤتمر النقابة .

كانت قاسيا تتبسم وهي تسعى في سرعة إلى اللجنة . شعرت وكأنها كانت حبيسة قفص فأطلق سراحها فجأة . وغمرها شعور بأنها متصالحة مع العالم . منذ مدة طويلة لم تر أصدقاءها ، ومن الواضح أنهم افتقدوها . إذ إنهم يقدرونها ويحترمونها وكفاءتها وعملها من أجل حل مشاكل الآخرين وهدوئها .

أسندوا إليها مهمة التعليق على حواشي النصوص وإعداد المواد والخطابات . مر الوقت بسرعة . وإذا بعقرب الساعة يشير إلى الثامنة . لا شك في أن فلاديمير سيتعب من انتظارها ، وهي تخشى أن لا يتناول من الطعام ما أشار عليه الطبيب بتناوله خاصة وأنها ليست هناك .

تمشت عائدة بصحبة ليزا وناقشتا أنباء حملها لهما صديق أقبل من موسكو . ثمة أشياء كثيرة تحدث في الحزب وتثير ذهولهما . لم تتفق ليزا مع الخط الحزبي الجديد . وتشيعت لعمال المصنع الذين كانوا يختارون مرشحيهم هم لمؤتمر الحزب ، وهذا يعني صراعات جديدة مع الرئيس :

شعرت قاسيا بأنها تغبط ليزا، إذ رغم اختلافها إلى المصنع فإنها تحس أنها لا تزال غير فعالة. بدأت تشعر أنها لا تلعب الدور المطلوب وإنما ليست سوى عابر سبيل.

علقت ليزا قائلة:

- سبب هذا الشعور يعود إلى كونك تحولت إلى زوجة مدير. سوف تستعيدين فعاليتك لو تستردين حريتك.

تهددت قاسيا. ليست بحاجة إلى من يذكرها بذلك. لكن هذا ليس أوان التفكير بمثل هذه الأمور. سوف تترك فلاديمير حالما يسترد عافيته وتعود إلى بلدتها الأصلية.

قالت ليزا:

- لا لن تفعلي ذلك. أنت متعلقة ومقيدة بفلاديمير ايقانوفيتش كليا. أنت لست في حقيقة الأمر سوى زوجة صغيرة متواضعة خنوعة.

لاذت قاسيا بالصمت. وماذا تقول؟ إنها تعرف جيدا أن ليزا على حق، ولكن لا يسعها أن تتشكى بعد كل الذي حصل. فولوديا حي يرزق وقد تخلص من الألم وهذا ما يهمها الآن.

حين عادت إلى المنزل لم تجد فولوديا. سألت ماريا سيمينوفا:

- أين فلاديمير ايقانوفيتش؟ ألم يعد إلى البيت بعد؟

قالت ماريا سيمينوفا:

- نعم، لقد عاد في الساعة الثالثة وانتظرك. انتظر وانتظر، ثم تناول الطعام مع ايقان ايقانوفيتش، ثم ذهب كليهما في السيارة. آه... وهناك رسالة لك على الطاولة.

تناولت قاسيا الرسالة وراحت تقرأ:

عزيزتي قاسيا:

لقد اتفقنا على أن لا نخفي أسرارنا عن بعضنا البعض منذ الآن وقلت أنك دائماً ستفهمين. من الضروري أن أمضي إليها الليلة. سوف أنبئك بالأسباب لاحقاً وأعرف أنك ستفهمين. أرجو أن تتذكري أننا اتفقنا على ذلك فلا تتضايقي.

مع حبي، فولوديا.

سقطت يداها على جنبها. ها هو يعود إليها مرة أخرى. لم يتغير أي شيء. ولكن لماذا تصورت أن الوضع سيتغير؟ فهي تعرف أن ايقان ايقانوفيتش لعب دور الوسيط بين فولوديا والمرأة، أما فولوديا فقد قام بما طلبته هي منه فاعترف لها بالحقيقة بكل شرف. فلماذا إذن ثار العذاب القديم مرة أخرى، لماذا غمرها الغضب كما لو كان يخذعها؟

كانت ماريما سيمينوفا تعد المائدة. سألت وهي ترمق قاسيا بنظرة إنكار:

- هل ستأكلين شيئاً؟ أم أنك ستعودين إلى مزاوله أحابيلك القديمة، لا أدري، في البداية يتأبى أحدكما تناول الطعام ثم ينضم إليه الآخر، ولا تفكران أبداً بالطبخ. ثم مزيداً من المشاجرات والدموع إلى أن تنتهيا بدفع بعضكما إلى القبر. بوسعك أن تفعلي ما تشائين يا قاسيليسا ديمينتوفنا، بوسعك أن تغضبي مني، لكنني سأقول لك الحقيقة. أنت لست بزوجة خليقة بقلاديمير ايقانوفيتش. انظري إلى نفسك، تتأكلين داخلياً من جراء قراءتك رسالته، وتنتحيين لمجرد أنه مضى ليرى عشيقته. إنني أرى أنك سبب كل هذا. فالرجل ما كاد ينهض من سرير الموت بعد أن سمم نفسه بسببك. وما إن يخرج من هنا حتى تهربين. طبعاً لو كان لديك وظيفة تختلفين إليها لكانت المسألة مختلفة ولذهبت إلى عمالك. ولكن لا، كل ما تفعلينه هو المشاركة في اجتماعاتك التي

تحاولين من خلالها توعية مجموعة من النسوة الغيبات . ولو سألتيني رأيي لقلت لك أنه الأجدربك أن تنظمي أوضاع بيتك قبل أن تعلمي الآخرين، وبوسعي أن أقول لك إنني أخجل من كوني خادمة لك . هذا ليس بيت، إنه ليس سوى زقاق من أزقة الفقراء .

قالت ماريا سيمينوفنا كل ذلك وانصرفت إلى المطبخ صافقة الباب خلفها .

عادت تطل بعد لحظات وقد هدأت ثورتها حاملة عجة بيض وكوب كوكا لقاسياً .

- هاك يا عزيزتي قاسيليسا ديمينتوفنا، تناولي هذا وكفي عن تمزيق بالك بالتفكير .

جلست إلى الطاولة قرب قاسيا وراحت تستحضر ذكريات حوادث مشابهة وقعت في منزل زوجة الجنرال غولولوبوف الأخيرة، إلا أن هذه الأحداث تدور حول المريية الفرنسية . وبعد أن انطوت صفحة تلك الحوادث عاد الجنرال وزوجته يعيشان بسلام ووثام إلى أن ماتت الزوجة .

كانت قاسيا تستقبل ثرثرة ماريا سيمينوفنا بأذن نصف مسدودة . إلا أنها لم تقاطعها إذ أنها تحولتا إلى صديقتين أثناء مرض قلاديمير . كانت ماريا سيمينوفنا تتألم من أجل قاسيا، وشاركتها تضايقها من الأطباء والأخصائيين وزملاء قلاديمير - كلهم بورجوازيون .

وهكذا كانت قاسيا مضطرة إلى الإصغاء لحكايات ماريا سيمينوفنا التي لا تنتهي عن آل بوكاتيلوف ذوي الملايين وكيف أن زوجة الجنرال الأخيرة كانت شغفة بها . . . على الرغم من طبعها الحاد كانت ماريا سيمينوفنا طيبة . ولكن قاسيا تمنى لو تُترك وحيدة فتفكر وتتدبر . أخيراً قالت :

- أشكرك يا ماريا سيمينوفنا على هذه الوجبة . علي أن أسعى لترتيب أوراقى الآن .

- أهذا كل ما ستأكلين؟ ما كنت لأطهو كل هذا الوعرفت . سوف ينال الوهن منك يا قاسيا إن بقيت هكذا . إن عشيقه فلاديمير ايقانوفيتش لا تساوي كوبكاً واحداً . إنها لا تساوي إصبعك الصغير .

هذا ما قالته ليزا بالضبط . سألتها قاسيا :

- لماذا، ما الذي يجعلك مقتنعة بذلك يا ماريما سيميوتوفا؟ الجميع يتحدث عن جمالها .

- وما علاقة منظرها بذلك؟ إنها تتغندر وتطلي نفسها بالمساحيق مثل مهرج . وثمة هاجس واحد يستولي على عقلها : أناقه متكلفة وكيف تعتصر الرجال إلى أقصى حدود .

- هل تعرفينها إذن؟ هل رأيتها؟

- أوه، أنت تتوقين إلى معرفتها! لقد باتت هذا عدة ليال قبل أن تأتي . إنها امرأة متكلفة، كان علي أن أسخن لها الماء في الليل وهي لا تكف عن إصدار الأوامر: «أعطني هذا، احضري ذاك» تتكلف دور سيدة محترمة، تزعم أنها من أصول ارستقراطية . كذب . الارستقراطيون الحقيقيون ليسوا من أمثالها، إنهم مهذبون دائماً ويقولون للخدم «من فضلك» و«شكراً» . أما هذه الساقطة فهي لا تكف عن إصدار الأوامر: «ناولني هذا، افعل ذاك، خذ ذلك» . لا أعرف . . .

قاطعتها قاسيا قائلة :

- ما اسمها؟

- نينا كونستانتينوفا . ولها لقب غريب لا أذكره، ولكن سكان البلدة ينادونها نينا كونستانتينوفا .

قالت قاسيا وهي تقلب رسالة فولوديا في يديها :

- أود لو أراها ولو مرة واحدة .

قالت ماريا سيمينوفنا:

- هذا ليس بالأمر العسير. إنها تتمشى في الحديقة العامة في الأيام التي تُعزف فيها الموسيقى على المنصة. بوسعنا أن نذهب غداً، وبوسعك أن تبصري أميرتنا بعينيك. إنها من ذلك الصنف من النساء اللواتي كن يجبن شوارع موسكو ويتسكنن فيها. . صدقيني .

- إذن هي تذهب لسماع الموسيقى . فلنذهب إذاً يا ماريا سيمينوفنا. لعلني أشعر بالراحة إذا ما وقع عليها بصري .

هزت ماريا سيمينوفا رأسها كالمترددة، إلا أنها لم تعارض قاسيا. إذ أنها تتطلع إلى رؤية المواجهة بين المتنافستين.

غادرت قاسيا الغرفة وراحت تدرع المنزل المقفر المعتم. العتمة تبت السكينة في بالها القلق. كل شيء بدا جيداً ذلك الصباح. تحسن قولوديا ومضى إلى العمل. وقاسيا عادت إلى عملها ثانية وعزمت على العودة إلى مسقط رأسها. فقد قر قرارها على أنها لا ترغب في أن تكون «زوجة مدير». لقد شعرت بالسكينة منذ تحدثت هي وقلاديمير بصراحة.

ورغم كل ذلك ها هي مرة أخرى تشعر بالاضطراب والحيرة. لماذا يستولي عليها هاجس الغيرة رغم أن قلاديمير قد حافظ من جهته على الاتفاق، وانبأها بالحقيقة كصديق؟ لماذا تشعر بكل هذه التعاسة؟ لا بد أن خطيئتها تكمن في أنها تريد الكثير. ما كان عليها أن تحسب أن قلاديمير سوف يعود إليها ويقطع علاقته مع الأخرى بسهولة. لفتها تعاستها ومهما قالت لنفسها فقد أدركت أنها لا تزال تتأمل يائسة أنه سيفعل ذلك.

المشكلة تعيد نفسها. ها هو قلاديمير يقضي المساء مرة أخرى مع امرأة أخرى تاركاً قاسيا وحيدة في المنزل. ألم يتبق لديه أية مشاعر نحوها؟ ليست تدري أنه كان يجبها أو يجب عشيقته الجميلة. قد يقول أنه يجب

فاسيا الآن، لكن أفعاله تناقض كلماته، وكأبتها تزداد إلى حد لم تعد تطيقه.

من الأفضل أن تقبل حقيقة كونه لا يجبها... فترحل. ولكن كيف يمكنها أن ترحل عنه؟ قد تدرك بعد فوات الأوان أنها ارتكبت غلطة مرة أخرى. وقد يحاول الانتحار مرة أخرى... لا، من المستحيل أن تتركه الآن. ثم إنها عاجزة عن تركه الآن وهي في مثل هذه الحال من القلق والاضطراب. من الأسهل عليها أن تتكيف مع الوضع وهي إلى جانبه. كل ما تعرفه هو أنها لا تزال تحب قلاديمير، وأنها لولا هذا الحب العميق لما عانت هذه المعاناة الرهيبة.

إلا أنها كلما أحبته أكثر، كلما تعذر عليها فهمه. فكأنها يسيران في غابة على ممرين يفترقان أكثر فأكثر كلما أمعنا في التوغل. ورغم كل حبها له فإنها لا تستطيع مداراة إدانتها لسلوكه.

لماذا تورط مع امرأة من هذا النوع أصلاً؟ ولو كانت واحدة منهم، رفيقة شيوعية، لكان ذلك أقل هواناً. لكن هذه المرأة تبدو وكأنها سيده من الطراز القديم. حتى قولوديا نفسه اعترف بأنها «مختلفة» وبأنها سيده مدللة. وحسب الوصف الذي رسمه هو لها فإنها بلا شك ليست من أنصار البلاشفة أو الشيوعيين وتتوق إلى عودة «الأيام الخالية».

كانت تحيا حياة مرفهة، وأسرتها تستخدم سبع عشرة خادمة. كان لها جواد ذا سرج نسائي. حين قامت الثورة انضم والدها إلى البيض. توفيت والدتها في هذه الأثناء وبات شقيقها ضابطاً في الجيش الأبيض وقتل في الميدان. حين وجدت نفسها وحيدة راحت تبحث عن عمل وبما أنها تتقن عدة لغات أجنبية فقد عملت سكرتيرة في مكتب المدير وهناك تعرف قولوديا عليها.

أحبته وراحت تكتب له - لم تكن فاسيا هناك في ذلك الوقت. كان

فلاديمير وحيداً فأقام علاقة حب معها. ذاع صيت هذه العلاقة في المكتب وبدأ الناس يرمقون نينا كونستانتينوفنا بنظرة عيابة. لم تطق تحمل ذلك فتركت وظيفتها. عندها عملت سكرتيرة عند ساقيليف.

راحت فاسيا تدرع الغرفة وهي تتذكر الحديث المتبادل بينها وبين قولوديا..

سألته فاسيا وقد عجزت عن مغالبة فضولها:

- فقط سكرتيرته؟

كانت راغبة في ازعاج قولوديا مثلما كانت راغبة في معرفة كل شيء عنها.

صاح فلاديمير وقد احتقن وجهه:

- أين سمعت هذه الشائعة الوضيعة، ألا تخجلين من ترديد مثل هذه القذارة يا فاسيا. كنت أخالك متسامية عن مثل هذا. لم أتصور أبداً أنك ستتصرفين مثل امرأة عجوز تجر شخصاً نحو الحضيض. كيف ترددين مثل هذه الأقاويل يا فاسيا؟

شرح لها أن ساقيليف يعتبر نفسه ولي أمر نينا كونستانتينوفنا وحاميها. كان صديقاً لأسرتها وحين فقدت نينا كونستانتينوفنا أسرتها عني بها ومنحها النقود والنصائح ووجد لها وظيفة في مكتب الإدارة، وحين تركت المكتب هب وأجارها مرة أخرى. لم يكن لديها أي مكان تلجأ إليه وطبعاً كان من المستحيل أن تأوي إلى منزل فلاديمير. ولما اقترح ساقيليف أن تنتقل إلى بيته، رفضت قائلة إنها تفضل اللجوء إلى الشارع. في النهاية وجد لها ساقيليف شقة مستقلة حيث أقام مكتبه واقترح أن تقيم هي هناك. لقد تصرف كوصي لا يقوم إلا بما تمليه مصلحتها.

ثار سخط فاسيا لدى سماعها قولوديا يتحدث عن تلك المرأة بمحبة

ولم تتمكن من السيطرة على نفسها. قالت:

- وأراهن أنه يغويها أيضاً.

ما كانت تتصور أبداً أن فولوديا يمكن أن يكون ساذجاً إلى هذا الحد.

لم تثق قاسيا بتلك المرأة البتة - الجميع يقول إنها ليست سوى عاهرة.

هاج ساكن فلاديمير مرة أخرى. صرخ:

- أكاذيب. أكاذيب. وشائعات. لماذا تصرين على نشر المخازي وترديد

أحاديث الإفك؟ إذ كنت مُصرة على معرفة حقيقتها فاسأليني أنا. إن نينا

كونستانتينوفنا لا تحب إلإي. إنها امرأة جميلة وساقيليف ليس الوحيد

الذي حاول غوايتها. فهناك ماكليتسوف، تعرفينه، الزجل الذي يعمل

في دائرة التجارة الخارجية - لقد عرض عليها الماس وكل ثمين يمكن

للمال أن يبتاعه، فما كان من نينا إلا أن طردته. طبعاً لا أدعي أن

ساقيليف لا يميل إليها، ولا أزعم أنه يحبها حباً أبويّاً بريئاً صرفاً، لكن

نينا لا تميل إليه جنسياً. أوكد لك أنه لا يمكن لأي علاقة من هذا النوع

أن تنشأ بينهما، مستحيل. إنني أعرف الناس.

من الواضح أنه يجهد في إقناع نفسه بهذا. أدركت ذلك، لكن ما زاد

من كآبتها هو تشويش ساقيليف لكل ما يفعله فولوديا. لا شك في أنها تمقت

الرجل لسبب مبرر. ولنفس السبب عمدت لجنة التنظيم إلى تحذير فلاديمير

من مغبة صداقة ساقيليف.

قالت:

- في أية حال علاقة ساقيليف بها ليست ذات أهمية. المشكلة هي كل هذه

الشائعات المنتشرة والتي تفيد بأنك تشارك ساقيليف في إعالتها.

قال فلاديمير:

- حسناً. بوسعك أن تذهبي وتبصقي في عيني كل من يجروء على ادعاء

ذلك. لا أتوقع منك أن تتفهمي ذلك يا قاسيا، لكن مصدر تعاستي النابعة من هذا الموضوع هو أنني حين ضاجعت نينا لأول مرة كانت عذراء، لم يمسه أحد.

شك هذا الاعتراف قلب قاسيا كأنما هو إبرة حادة. تذكرت ليلة ١٩١٧، كانا يحتسيان الشاي في غرفتها عندما قال: «لن امنح قلبي إلا لعذراء» ثم تذكرت كيف مسد شعرها بعد أن طارحها الحب وقال: «ليس هناك من هو أكثر طهارة منك في هذا العالم يا قاسيا».

ردت بنزق:

- عذراء! أي هراء. ما هذا الهديان. هل تعني يا فلاديمير أن طهارة المرأة تكمن في عذريتها؟ إذا كان هذا ما تعتقده فإنك قد بدأت تفكر مثل محافظ متعصب.

كانت نائرة مغضبة.

- لكن يا قاسيا عليك أن تدركي أنها هي التي تفكر بهذه الطريقة لا أنا. فمطارحتي الغرام دون الزواج هي كارثة بالنسبة لها. أنها تنظر إلى نفسها الآن على أنها «امرأة ساقطة» وهذا ما يسبب لها ألماً عظيماً. ألا تفهمين يا قاسيا؟ ليس بوسعك تخيل مدى معاناتها. إنها لا تفكر مثلنا نحن البروليتاريين. فهي ترى أن أول رجل يطارحها الغرام يجب أن يكون زوجها.

- لماذا لم تخبرني بكل هذا منذ البداية إذن؟ ماذا يمنعك من الزواج منها؟ لن أحول أنا بينك وبين الزواج منها.

- أوه يا قاسيا، صحيح أنك ذكية، لكنك تعودين مجرد فلاحه حين يتعلق الأمر بمسائل الحب. كيف لي أن اتزوجها يا قاسيا؟ نحن مختلفان تماماً. إننا غير متجانسين على الإطلاق. إنني لا أحبها حقاً، لكنني اشعر بالشفقة عليها. كيف لي أن اتزوجها اخبريني.

شعور بالشفقة فقط، هل يعني ذلك فعلاً؟ بدأت قاسيا ترتعش فرحاً، كانت ترغب رغبة عارمة في تصديق ما قاله .

سألت:

- ولكن لماذا تستمر في الاختلاف إليها إن لم يكن بينكما حب حقيقي ولا تفاهم، وما دامت هذه العلاقة جلابة لشقائكما.

- هل تحسبن أنني قادر على هجرها يا قاسيا؟ الأمور ليست بهذه السهولة علي أن أفكر بما قد يجري لها إن تركتها. من يدري، لعلها تقبل بالبقاء مع ساقيليف ولعلها تصبح مومساً.

- ولماذا إعالتها؟ لماذا لا تبحث لنفسها عن عمل؟

- قول ذلك أسهل من تطبيقه هذه الأيام. حاولي أن تجدي عملاً هذه الأيام. فثمة فائض كبير في مجال الأيدي العاملة هذه الأيام. ولا أعرف أي نوع من الأعمال تجيد في أية حال. فوظيفة عادية في مصنع لا تناسب نينا.

ودت قاسيا لو تصرخ: «ولماذا لا يُناسبها العمل في مصنع؟ ماذا يميزها عن الأخريات؟» لكنها دارت مشاعر فلاديمير، فهو لم يشف تماماً بعد. وقد حذرها الطبيب من إثارته. وقد ازعجه هذا الحديث بما فيه الكفاية.

ولكن الآن وبعد أن ظلت وحيدة ساهرة في المنزل المعتم، ندمت قاسيا لأنها لم تصرخ جاهرة بالحقيقة ولأنها لم تقل لفلاديمير رأيا الحقيقي بحيل هذه المرأة.

لم تصدق تأكيدات نينا كوستانتينوفنا المتكررة بأنها تحب فلاديمير. لا شك في أنها تخدعه لتعتصر ما وسعها اعتصاره من الرجلين. وقاسيا لا تبغضها لكونها عاهرة، وإنما لكونها عديمة الضمير. العاهرات قد يكن أفضل بكثير من سيدات المجتمع. فهناك زينكا ذات الشعر الجعدي مثلاً -

لقد قتلها البيض، ولكن قبل أن تموت بلحظات تمكنت من أن تهتف: عاشت الحكومة السوفيتية. عاشت الثورة - صحيح أنها كانت مومساً إلا أنها انطلقت إنطلاقة حياتية جديدة ما إن قامت الثورة. وراحت تعمل مع البوليس السياسي بحماسة، ونفذت مهمات مخوفة بالمخاطر.

لو أن فلاديمير وقع في غرام امرأة مثلها لثفهمت قاسيا الأمر. لكن نينا سيدة بوجوازية، عدو طبقي وهي امرأة قاسية تدفع فلاديمير بطريقة تضمن مصالحها الخاصة. ترى ما سر سيطرتها عليه؟ لا شك في أن مصدر قوتها يكمن في شفقتة عليها «انني ضعيفة وعاجزة وكنت عذراء». . فكرت قاسيا: نعم، كنت عذراء منذ تركت علامة بيضاء على عذريتك الوهمية. من المؤكد أن عذريتك قد توزعت على كل اولئك الرجال الذين يوجدون عليك بالهدايا مقابلها. ورغم كل هذا يصدقك فلاديمير ويعطف عليك. كانت قاسيا قد خرجت عن طورها واثارت في نفسها مشاعر الغضب من هذه المرأة.

قطع صوت ماريما سيمينوفا البرم افكار قاسيا:

- قانسيليسا ديميتيتشنا، بحق العذراء، هل تعزمين أن توأصلي اضطرابك جيئة وذهاباً إلى ما لا نهاية؟ أفضل لك أن توفرني قواك يا عزيزتي إذ أنك ستحتاجينها في اجتماعاتك الكثيرة. لماذا لا تكوني صبية عاقلة فتأوين إلى السرير وتنامين ولا تسهرين بانتظار زوجك هذا. ليس هناك ما يبرر إنتظاره وفتح الباب له عندعودته ما دام قد قضى مع امرأة أخرى. بوسعي إعداد سرير له في الصالة.

عانقتها قاسيا وشعرت بكآبة ثقيلة لم تعهدها من قبل. بدا لها أن الجميع يتعاطفون معها بإستثناء الرجل الذي تحب، زوجها وأقرب اصدقائها كما هو مفروض. كان يرثي لتلك المخلوقة الخداعة التي تشبث به مثل أفعى . . .

رقدت فاسيا على الفراش وعيناها مفتوحتين على سعتها. وحالت  
الكآبة الثقيلة التي تستولي عليها وتسحقها دونها والنوم. بدا لها أن وقتاً  
طويلاً طويلاً مر قبل أن يدخل فلاديمير ويشعل الضوء. قال:

- فاسيك، هل أنت نائمة.

- لا، لست نائمة.

- إذن فانت غاضبة مني.

جلس على السرير وحاول أن يقبلها لكنها شاحت بوجهها:

- إذن فانت غاضبة مني فعلاً، كنت أحسب ذلك. وماذا عن إتفاقنا؟  
لقد انبأتك بكل شيء لأنك توصلتني أن أفعل ذلك. والآن يبدو لي أنه  
من الأفضل لو كذبت.

لاذت فاسيا بالصمت. اضافة:

- اسمعي، لن يفيدنا الجدل ثانية وتبادل الإتهامات من جديد. لم كل هذا  
الغضب؟ ألمجرد أنني زرت نينا؟ ألا تفهمين يا فاسيا؟ كل هذا الوقت  
الذي قضيناه معاً كانت هي وحيدة. ألا تدركين أنها كانت قلقة علي هي  
الأخرى؟ هي عانت ايضاً.

شعرت فاسيا برغبة في أن تصرخ: «لست أبالي بمعاناتها» إلا أنها عضت  
على شفتها ولم تنبس. كانت خفقات قلبها تتدارك.

أضاف:

- ولا داعي لأن تظني أن شيئاً ما حدث بيننا يا فاسيك، إذ أنني لم أختل  
بها. كان ساقيليف هناك وانضم إلينا ايقان ايغانوفيتش. تباحثنا. هل  
تعرفين لماذا ذهبت إليها اليوم؟ لأقول لها الوداع إلى الأبد. لماذا تنظرين  
إلي هكذا؟ ألا تصدقيني؟ إسألني ايقان ايغانوفيتش، سوف يخبرك طلبت  
منه أن يأتي ويساعدني في نقل نينا كونستانتينوفنا وترتيب الشقة وهي مهمة  
بغيضة.

سألت قاسيا ببلادة :

- وإلى أين ستذهب؟

- إلى موسكو. سوف يرافقها ساقيليف. لديه أقارب في موسكو حيث ستبقى نينا إلى أن تعثر على وظيفة ما. هذا هو أفضل الحلول بالنسبة للجميع.

لم تنبس قاسيا، ووشت ملاحظتها بشكها وريبتها. لماذا هذا التغيير المفاجيء؟ ما الذي حدث؟ ليس من المعقول أن يكتشف فجأة أنه لا يجب هذه المرأة؟

قال بسرعة :

- دعينا لا نتحدث عن الحب. هذه مسألة جانبية. المسألة الأساسية هي أن نينا أدركت أن الوضع لا يمكن أن يستمر هكذا - الحقيقة أنها هي صاحبة قرار الذهاب إلى موسكو. كانت تفكر في هذا الحل منذ مدة. في ذلك الصباح حين هربت وهجرتني اتصلت نينا بي وقالت أنها عاجزة عن العيش هكذا، وقالت ينبغي علي أن اختار بينكما وإلا رحلت إلى موسكو.

- أوه، الآن فهمت. لهذا إذن سممت نفسك. واحدة منا تركتك والأخرى تهدد بالرحيل إن لم تتزوجها. أوه كم كنت حمقاء، كم كنت بلهاء. الآن فهمت كل شيء. سممت نفسك خوفاً من فقدانها. وأنا التي ظننت أنك حاولت الانتحار بسببي.

انفجرت قاسيا تضحك بهستيرية.

قال فلاديمير بحزن وهو ينهض عن السرير:

- ها انت تدمرين كل شيء يا قاسيا. لماذا كل هذه القسوة؟ قاسيك القديمة التي أعرف لم تكن هكذا ابداً. من الواضح أننا لم نتوصل إلى نتيجة. وأنا

الذي فعلت ما فعلت لأعالج الوضع حتى لا يكون بيننا أسرار خفية .  
يبدو أنه كلما حاولنا أن نكون أكثر صدقاً كلما ساءت الأمور . تبدين  
وكأنك شخص مختلف . شامت وفظ .

- أوه، لا يا قولوديا . انتظر لحظة . لا تذهب ارجوك .

اختنق صوت فاسيا إذ كان اليأس يعتصر قلبها . استأنفت قائلة :

- دعنا نتحدث عن الموضوع إذا كان ذلك ضرورياً . لماذا إذن ترسلها إلى  
موسكو رغم أنك تحبها ولا تحبني . لو كنت تحبني انا لبقيت معي اليوم ،  
ولكنك تحبها هي وتعطف عليها .

- فاسيا، فاسيا أنت ظالمة . لو تعرفين كم عانت نينا . انها صبيرة صغيرة بل  
هي طفلة حقاً . ليس لها أصدقاء والجميع يصبون عليها الوحل ولماذا يا  
فاسيا، ألأن سوء حظها جعلها تقع في حبي؟ انت مختلفة تماماً عنها .  
لديك اصدقاء ولديك الحزب . وهي وحيدة لا يقف إلى جانبها غيري .  
أنا حاميتها ومعيلها الوحيد .

كان فلاديمير يذرع الغرفة ويده خلف ظهره . اخبرها قولوديا كيف  
حملت نينا منه . كل احلامه انجزت . طفل . طفله هو . أية فرحة وأي  
شقاء .

ذهلت فاسيا وسألت :

- واين الطفل إذن؟

- هل تحسبين أن بوسع نينا إنجاب الطفل في غمرة الفضيحة وتعاستك؟  
اردنا أن نجنيك ذلك . طبعاً كاد ذلك أن يحطم قلبها - كاد إتخاذ القرار أن  
يقتلها غماً . ولكن من أجلك انت يا فاسيا، قرر كِلانا أن نعالج الوضع  
بالإجهاض .

من أجلها هي؟ لقد دبر الإجهاض مع امرأة غير معروفة على الاطلاق،

هو وهذه المرأة المجهولة قررا أن «يجنبا» قاسيا الألم، وكأنها عدو لا يطمئنان له ولا يوثق به. لقد لجأ في غمرة تعاسته إلى نينا هذه لا إلى قاسيا. لا بد وأن يكون أقرب إلى نينا، من الواضح أن نينا هي صديقتها وحببته لا قاسيا.

قال:

- اكتشفت انها حامل يوم وصلت. هل تدركين الآن سبب قلقي يا قاسيا؟ هزت رأسها بالإيجاب ولم تنبس. فلاديمير قال ذلك ليتفادى القيل والقال. ونينا رحلت إلى بلدة أخرى حيث رتب ساقيليف عملية الإجهاض. لم تنجح العملية تماماً وظهert تعقيدات. وكان على فلاديمير ان يزورها هناك.

سألت:

- هل حدث ذلك في الوقت الذي أضرب فيه العمال؟  
- نعم، اعتقد ذلك.  
- فهمت.

لهذا السبب إذن صرخ حين كان يجلس الى الطاولة - بسبب نينا - وليس لذلك علاقة بالحمالين ابداً. واصلت قاسيا اسئلتها:  
- قل لي، هل عادت في ذلك الصباح الذي وصل فيه ساقيليف؟  
- نعم؟  
- نعم هذا ما حسبته.

لاذ كلاهما بالصمت. حامت كلمات قاسية في الهواء بينهما. لو نطقا بها لأسفا طبعاً، ولكن لو فعلا ذلك لدمر حبهما ولشوه مثل وجه اصيب بالحصبة. فلا مواساة ولا بهجة.

قطع فلاديمير الصمت الثقيل قائلاً:

- قاسيا، لماذا نعرض أنفسنا إلى هذا الجحيم؟ من الملام؟ اقسام أنني كنت أحاول أن أفعل المستحيل لأجنبك الألم.

قالت:

- ولكن لبتك وثقت بي كصديق . لما احتجت عندئذ الى تجنيبي الألم . جلس فلاديمير بجانبها وأخذ يدها بين يديه :

- ولكني يا قاسيا أعلم انك صديقتي - ألا ترين أن ذلك يزيد الأمر صعوبة . أراح رأسه على كتفها كما كان يفعل في الأيام الخوالي . مسدت قاسيا شعره بمزيج من الحزن والفرح . رغم كل شيء ها هو الى جانبها، ولعله لا يزال يحبها .

قالت بحذر:

- قولوديا، هل تعتقد أنه من الأفضل لو أنني أنا رحلت بدلاً منها؟

- أوه يا قاسيا ارجوك لنطوي هذا الموضوع . لا تعذبيني هكذا . قفي إلى جانبي ولا تدفعيني إلى ارتكاب نفس الخطأ ثانية . لقد فتحت لك قلبي صديقاً واعترفت لك بكل شيء . ولهذا ينبغي أن تكفي عن الحديث عن رحيلك عني .

- لكنني افكر في مصلتحتك يا قولوديا . إن كنت تحبها حقاً . . .

- وما علاقة الحب بهذا الأمر . قاسيا، الحب شيء آخر، انني لا افهم لماذا تعتقدين أن ثمة ما هو مشترك بيني وبين نينا . إنها ليست رفيقة ولا هي صديقة حقيقية مثلك . كل ما في الأمر هو أنني اشفق عليها وقلق لما قد يحصل لها . إن هجرتها . لا زلت أشعر بأنني مسؤول عنها، ألا تفهمين؟ لقد كانت عذراء .

- أوه يا قولوديا . أي حماقة هذه! كيف تعتبر نفسك مسؤولاً عنها؟ إنها ليست طفلة، لقد كانت تعرف ما الذي تفعله . في أية حال من الذي يبالي بعذريتهن الثمينة هذه الأيام؟

- صحيح أن البروليتاريا تفكر هكذا، لكن نينا مختلفة، إنها ليست

بروليتارية . فقدان العذرية بالنسبة لها إثم يثقل ضميرها . .

- بالضبط . ولهذا قلت انه كان ينبغي علي أنا أن أرحل ، وبوسعك بعد ذلك أن تتزوجها .

- أرجوك يا قاسيا لا تعودى إلى هذا الموضوع ثانية اتوسل اليك . كفى عن إغاظه مشاعري بهذه الطريقة . في أية حال لقد فات الأوان ، وانتهى كل شيء سوف ترحل نينا كونستانتينوفنا إلى موسكو يوم الخميس ، وهكذا سينتهي كل شيء . ولسوف ننسى الماضي ونبدأ من جديد .  
قال هذا بهدوء وعزم حتى كادت قاسيا تصدقه . اضاف قائلاً :

- قاسيا يا حبيبتى اصبري اياماً قليلة أخرى وارجوك أن لا تجهدى نفسك وتجهدينى في غضون ذلك . بعد أن ترحل سوف نحيا أنا وأنت مثلما كنا في الماضي . ولن افاجأ إن اصبحت حياتنا أفضل حتى من الماضي خاصة وأننا قد مررنا بالكثير معاً .

عانقها وقبل عينيها . استأنف قائلاً :

- أرغب في النوم معك الليلة يا قاسيا ، هل تسمحين لي؟ إنني متعب ورأسى يدور .

رقد إلى جانبها وأراح رأسه على كتفها ثم نام .

إلا أن قاسيا عجزت عن النوم . لو كان يجبها لاحس بما تحس ولبادر إلى إشعارها بحبه لها . وبينما كانت تتأمل رأسه الأليف أدركت كم هي غريبة تلك الأفكار التي تدور فيه . رموشه الجميلة تواري آيات حبه . لكنها تعرف أن هذا الحب وهذا الحنان ليسا لها . شفتاه ، قبلاته تثيران عواطف امرأة أخرى . نحت رأسه عن كتفها - إنه رجل غريب عنها .

غمغم فلاديمير بصوت ناعس :



19.

انه صيف قارئ موهن . السماء القاسية لم ترسل مطراً يغسل الأشجار المغبرة ولا روت العشب الداوي . حديقة المدينة مغبرة ذابلة . الغرفة الموسيقية تعزف ، لكن المكان مقفر إلا من قلة من الناس . بعض الأطفال يلعبون قرب منصة الغرفة الموسيقية ومجموعات من جنود الجيش الأحمر يجلسون هنا وهناك أو يمشون وقد تأبطوا أذرع النساء . على مقعد خشبي طويل جلس راهب في الظل وكان يرتدي مدرعة ويستند إلى صولجانه متأملاً . إلى جانبه تجلس مربية معها مشاية أطفال . جلست كل من فاسيا وماريا سيمينوفنا إلى جانبها . أنه مكان مناسب لهما إذ بوسعها أن يريا كل شيء وتنتظرا ظهور نينا كونستانتينوفنا .

قالت ماريا سيمينوفنا :

- آمل أن نرى أميرتنا اليوم . إنها تأتي هنا عادة كلما حان وقت العزف لتعرض آخر صرعاتها . السيدات يأتين هنا خصيصاً ليطلعن على آخر صرعات الأزياء . انهن يعرفن أن نينا كونستانتينوفنا ترتدي آخر صرعة مهما كانت طبيعتها . اصغت فاسيا بشرود . كانت تتوق إلى رؤية نينا كونستانتينوفنا ولكن شعوراً مزعجاً أوحى لها بأنها سوف تضطرب ما أن تبصرها . شدت على يد ماريا سيمينوفنا وقالت :

- انظري ، تلك المرأة ذات الثوب القرنفلي التي تجلس على يمين الغرفة

الموسيقية هل هي نينا كونستانتينوفنا؟

- ما الذي تظنيه؟ هذه ليست نينا كونستانتينوفنا. حين ترينها سوف تعرفينها. إنها مثل عارضة أزياء.

تابعنا تفحص المارة، لكن نينا لم تظهر. وحين دب اليأس فيهما وهمت كلتاها على العودة إلى المنزل ظهرت نينا كونستانتينوفنا فجأة من الطرف الآخر للحديقة. توقفت قرب الغرفة الموسيقية وتبادلت الحديث مع ساقيليف وشابين آخرين غير مكرثة إطلاقاً بنظرات الناس الفضولية. هذه هي أخيراً. كانت ترتدي ثوباً أبيض رقيقاً يبرز صدرها وتضع قفازين بلون التراب وقبعة من نفس اللون هابطة إلى ما فوق عينيها مما حال دون رؤية قاسيا لوجهها بوضوح. كلما رآته هو شفيتها القرمزيتين الفاقعتين وكأنها غُمستا بالدم. قالت:

- انظري الى شفيتها. مثل الدم.

فسرت ماريا سيمينوفنا كالحكيمة:

- انه احمر الشفاه. ينبغي عليك رؤية عينيها ايضاً. . ملطختان بالسخام. بودي لو أحمل منديلاً وامسح هذه الأوساخ عن وجهها عندها سنعرف كيف تبدو فعلاً. هاه. حتى أنا سوف أظهر جميلة لو لُطخت مثلها.

كانت نينا كونستانتينوفنا تستند على مظلتها المخرمة الواقية من الشمس وتركلها بكعب نعلها الأبيض. كانت تضحك وتهز رأسها. وشاركها الشبان الضحك.

ظل ساقيليف منتحياً إلى حد ما طوال الوقت وراح يلاحق خطوط الرمال بقصبته وقد بدا عليه الضجر.

احتجت قاسيا قائلة:

- لكنني لا أستطيع رؤية وجهها ما دامت هذه القبعة على رأسها.

اقترحت ماريا سيمينوفا:

- حسناً. لماذا لا نمشي بمحاذاتها. بوسعك عندئذ ان تتألمي أميرتنا جيداً. ولكني لو كنت مكانك لما نظرت عن قرب إذ لا شيء يستحق ذلك. حين كنت اخدم زوجة الجنرال جولولوبوف رأيت الكثير من السيدات الجميلات الحقيقيات. واؤكد لك أنها ليست من صنفهن.

لكن فاسيا كانت خاضعة لسيطرة فضول قاتم. كانت تريد أن تعرف ما الذي دفع فولوديا إلى حب مثل هذه المرأة. حين اوشكتنا على التوجه نحوها، صافحت نينا الشابين مودعة بصوت مرتفع سمعته فاسيا:

- إلى اللقاء قريباً في موسكو.

انكفأت نحو بوابة الحديقة يتبعها ساقيليف. همست ماريا سيمينوفا:

- هل نلحق بهما يا فاسيليسا ديمتوفنا؟ لا. الأفضل أن لا نتبعها. فالأمر مختلف بالنسبة لسموها. الناس يعزفونك وسوف تنتشر الشائعات.

ابطأت فاسيا دون أن ترفع عينيها عن نينا لحظة واحدة. كانت مديدة القامة باهرة وتهز كتفيها كلما مشت. ولكن ما أن ابتعدت عن منصة الغرفة الموسيقية حتى سقط رأسها على صدرها فأدركت فاسيا انها تنتحب. مال ساقيليف نحوها وراح يحاججها لكنها هزت رأسها سلباً. ثم رفعت يدها ذات القفاز ومسحت دمعة. إنها تنتحب فعلاً. لا بد أنها جاءت إلى هنا لتودع الموسيقى وداعاً أخيراً.

ماذا لو كانت تحب فولوديا فعلاً ولم تكن تستغله لمصلحتها؟ ضاعفت هذه الخواطر من قلق فاسيا إذ إنها لم تشعر بالسعادة حتى بعد أن رأت نينا كونستانتينوفنا تبددت غيرتها وحل محلها شيء مختلف كلياً. ضرب من شفقة وحنو على هذه المرأة بدأ يحوم في رأسها. لماذا تنتحب؟ لماذا جاءت لتسمع الموسيقى؟ هل كانت تودع السعادة الماضية إلى الأبد؟ امتعضت فاسيا من

نفسها لأنها سمحت لمثل هذه الخواطر والمشاعر بمراودتها . وكأن مشاكلها وقلقها لا يكفيها . أي وضع هذا، أن ينقبض قلبها حزناً على تلك المرأة التي سوف ترحل عن فلاديمير .

بعد هذه الحادثة بفترة قصيرة ارتحلت نينا كونستانتينوفا إلى موسكو . مر اسبوعان . وشعرت قاسيا أنه ينبغي لها أن تعاود تمتعها بالحياة مرة أخرى . لقد ارتحلت نينا وبقي فلاديمير لها وحدها . لقد أدركت الآن أنها أكثر أهمية بالنسبة لفلاديمير من نينا التي ما كانت سوى علاقة عابرة . بدأت تتبسم وتضحك أكثر وتحسن سعالها وباتت تحضر اجتماعات اللجنة الحزبية باستمرار واستغرق العمل وقت فلاديمير، وراح يعيد تنظيم العمل حسب الخطوط التي حددتها النقابة . وقد قرر أن ينتقل فلاديمير وقاسيا إلى موسكو بعد الإنتهاء من هذه الأعمال ثم ينقل فلاديمير إلى منطقة أخرى . حالياً بدأ سعيداً بالاستغراق في عمله، وبدأ كل شيء على ما يرام .

إلا أن السعادة القديمة التي عرفها في الماضي تبددت . وبدأ وكأن استعادتها أمر محال . لم يكن فلاديمير فظاً إلا أنه كان يجد صعوبة في السيطرة على أعصابه أحياناً فتثور ثائرته فجأة وينصب غضبه على قاسيا . مرة هاج ساكنه لأنها عادت من احد اجتماعات اللجنة الحزبية متأخرة عن الغداء . صرخ في وجهها لأنها حملت الضيوف على الانتظار . هل كانت تحسب انهم سيجلسون إلى المائدة قبل أن يصل مضيفهم؟ مرة ثانية فقد اعصابه لأن ياقاته متسخة، في هذه المرة فقدت قاسيا اعصابها ايضاً . ولماذا تتحمل مسؤوليتها؟ بوسعه أن يعنى بنفسه جيداً وأن يطلب من ماريا سيمينوفا أن تنظفها . هذه الحادثة عكرت الأجواء بينها . وكل ذلك بسبب ياقات سخيفة .

ذات يوم عادت قاسيا إلى البيت والمطر ينهمر بغزارة . وكانت قد تركت قبعتها الفرو في غرفة اللجنة الحزبية حتى تقيها المطر . وربطت مندبلاً على رأسها . عبس فلاديمير حين رآها :

- أي منظر مخيف . عليك أن تنظري إلى نفسك في المرآة . نعلاك مهترنان ، تنورتك ملطخة بالوحل ، وهذا المنديل على رأسك يجعلك تبدين مثل فلاحه . تبدين رثة تماماً .

ردت قاسيا متسخطة :

- ليس بوسعنا جميعاً أن ننشبه بعارضات الأزياء . إنني على يقين من أنني لن ألطخ عيني عند ساقيليف .

حدجها فلاديمير بنظرة نارية ورغم أنه لم يقل شيئاً احست قاسيا بأنه يغالب بصعوبة رغبة في ضربها .

العلاقات بينها ينهشها الخلل . كانا يرغبان رغبة عارمة في أن يسترجعا صداقتها القديمة ، إلا أن أقل حادث كان يخرجهما عن طورهما . فضلاً عن أن فلاديمير لم يكف عن الحديث عن مهنته الجديدة وعن تخيل البيت الجديد وتنظيمه وكانت قاسيا ترى أن أحلام اليقظة هذه مضجرة مملة . ولماذا يملك المرء بيتاً خاصاً به؟ أين المتعة في ذلك؟ لو أنها شرعا في إنشاء بيت جماعي لاختلف الأمر إلا أن فلاديمير عارضها بعنف ورمها «بالمحافظة» .

وتحدثه قاسيا عن جماعتها الدراسية حيث كانوا يدرسون الماركسية ويناقشون ما إذا كان التاريخ هو نتاج العوامل الاقتصادية وحدها أم العقائد . وبدت مستثارة وهي تحاول أن تشرح له كل ما كانوا يبحثون فيه . لكنه وجد ذلك مضجراً . ما هذا سوى تحايل على الجوهر . الجوهرى بالنسبة له هو كيف نوفر للعمل ربحاً أكثر . . ومن ثم يبدأ جدال جديد .

تدريجياً شعرا أن ما كان مشتركاً بينهما أخذ يتضاءل ، فباتا يتصلان بإيقان ايقانوفيتش كلما اختلفا ببعضهما إذ كان وجوده بينهما يخفف من التوتر والصمت . كانت قاسيا لا تزال تنتظر رسالة جوابية من مسقط رأسها . لكن الأيام مرت ولم يبلغها شيء لا من غروشكا ولا من سيبان اليكسييفيتش . ترى ماذا يفعلان؟ في اعماقها كانت تتمنى أن يكتبها إليها يسألانها العودة ،

لكنها ما كانت تعترف بذلك جهراً، رغم أنها ليست على يقين من أنها ستعود أم لا في هذه الحالة .

أخيراً وصلتها رسالة مسجلة من ستيان اليكسيفيتش . كانت مختصرة ومحددة: يسأل فيها قاسيا أن تيمم في عملها اتجاهًا جديدًا رسمته اللجنة المركزية لمجموعة من مصانع النسيج . تقع هذه المصانع قرب البلدة وبوسعها أن تقيم هناك . سينتظر جوابها .

بدأ وجيب قلب قاسيا يتدارك حين فكرت في مشروع العودة إلى اصدقائها . فأى حياة هذه بلا وظيفة جدية ولا سعادة حقيقية، لا شيء سوى قلق متواصل . كانت تشعر بالقيد في يديها وقدميها - شأنها شأن ذلك الزاغ الزرع الذي قبض عليه شقيقها كولا في غابة حين كانا طفلين . لقد ربط جناحيه حتى لا يطير هارباً . فكان يتبخر على الأرض ويفتح منقاره ويرنو إلى النوافذ بعينه الذكيتين السوداوين ويحاول رفرفة جناحيه . بعد محاولات يائسة يعود إلى التبخر منصرفاً عن محاولات الطيران مرة أخرى .

لو كان جناحا قاسيا مقيدين ببهجة الحب لكان الأمر مختلفاً . لكن مخاوفها المعذبة هي التي تكبحها، قلقها على فلاديمير، إحساسها بالإمتنان له لأنه صرف عشيقته وبقي إلى جانبها . الخيوط التي تربطها به ناعمة لكنها سريعة، خيوط تقيدها بطريقة فنية متقنة حتى أن قاسيا نفسها ماكانت تحس بها ولا بقيدها .

قطع صوت قاسيليسا سيمينوفنا حبل افكارها :

- قاسيليسا ديمتوفنا، لم يبق لدينا بيرة . علينا أن نخبر فلاديمير إيفانوفيتش أن يؤمن لنا كمية منها . ماذا لو حضر ضيوف غير متوقعين إلى العشاء . إذن لكان علي أنا أن أركض هنا وهناك لاتدبر البيرة من العدم .

رمقت قاسيا بنظرة منكرة . قالت :

- انظري إلى نفسك يا قاسيليسا ديمتوفنا أنت لا تقومين طوال النهار الا

برثاء النفس . ما الذي حدث الآن . . هل لي أن أسأل؟ الحمد لله ،  
أقول ، عارضة الأزياء رحلت الى موسكو وقلاديمير ايثانوفيتش بقي إلى  
جانبك . هل يطأ عتبة هذا الباب إلا إذا كان متوجهاً إلى عمله؟ لا . إذن  
لماذا تعانين دائماً من هذه التعاسة؟ الأزواج يرغبون عن ذلك ، انهم  
يرغبون في أن تكون زوجاتهم بشوشات وفي أن ينظفن البيت حتى إذا ما  
عادوا من العمل كان بوسعهم أن ينسوا ما يقلقهم . علينا أن نتيح لهم  
فرصة التطلع إلى شيء من السكينة في نهاية اليوم .

تسمت قاسيا وهي تصغي الى هذه الآراء التي أكل عليها الدهر  
وشرب . وفكرت : من يدري لعلها على حق؟ ربما كان علي أن أقف على  
قدمي وتعود إليّ طبيعتي القديمة : قاسيا العام ١٩١٨ . لقد عملنا بجهد في  
تلك الأيام ، ورغم ذلك كنا نتمتع . ماذا لو سعت في هذه اللحظة لتزور  
قلاديمير في مكتبه . سوف تفاجئه ، تدلف اليه دون سابق إنذار وتنبئه بأمر  
الوظيفة الجديدة . سوف تنفجر ضاحكة وهي تخبره أنها عاجزة عن  
الإصراف عن حبيبها قولوديا ، وإنما سترفض . عندها سوف يدرك كم هي  
متيمة بحبيبها قولوديا ، وسوف يغمره الفرح فيضمها ويقبل عينيها .

سوف يدعوني قاسيتي كما كان يفعل في الماضي ، فكرت بكل هذا بمتعة  
وهي تتناول بلوزة بيضاء لترتديها ثم ربطت شالاً أزرق حول عنقها .  
واعتمرت قبعتها أمام المرأة بعناية وسوت خصلاتها الجعدية . اليوم سوف  
تأثق من أجل قولوديا ، اليوم سوف تحمل اليه هدية خاصة - رسالتها إلى  
ستيبان اليكسيثيتش التي ترفض فيها عرضه حول العمل . اليوم قر قرارها  
على الذهاب مع قولوديا إلى المقاطعة الجديدة ، وعلى أن تعمل هناك .

حين وصلت إلى المكتب قصبت غرفة المدير من فورها . فألفتها مقفلة .  
المدير يحضر اجتماعاً ، فجلست قاسيا تنتظر وراحت تتصفح بعض صحف  
موسكو وهي تبسم لنفسها . كانت غازمة على أن تكشف لقولوديا عن مدى  
امتنانها لكل شيء - لحيه لها أكثر من أي شخص آخر ، لترحيله عشيقته .

وصل البريد فوضع على طاولة المدير. كانت معظم الرسائل رسائل عمل. وراحت قاسيا تفردهم باحثة عن رسالة لها. فجأة انتفض قلبها وأمسكت انفاسها. مظروف مستطيل قرنفلي معنون بخط دقيق أنيق - لا بد وأنه من نينا كونستانتينوفنا.

إذن فالعلاقة لم تنته بعد. كل الخداع السابق لا يزال مستمراً. شعرت وكأنها تنهار، كل شيء يدور حولها. لا بد أنها ترنحت إلى أمام إذ أنها ارتطمت بصحن سجائر على الطاولة وواقعه فتناثر شظايا. بدا وكأن هذا المظروف الطويل القرنفلي يسيطر على مصيرها. بسرعة خاطفة كانت الرسالة في جيبها. سوف يكون هذا نهاية الأكاذيب.

في تلك اللحظة دلف فلاديمير إلى الغرفة ومعه بعض المديرين. قال في دهشة:

- مرحباً يا قاسيا. ماذا تفعلين هنا؟ هل جئت لعمل أو لزيارة؟  
قالت بفتور:

- ليس ثمة بيرة في البيت، علينا أن نأمر بالمزيد منها.

- أنظروا إلى قاسيا وقد تحولت إلى ربة بيت صغيرة، اليس كذلك؟ قريباً جداً لن يسعني التعرف على قاسيا القديمة.

ارسل ضحكة عريضة تشي بفرحه لها.

فكرت: اضحك. انت لا تدري كم أبغض كل القيود التي قيدت بها حريتي. سوف احطمها واكشف كل كذبة كذبتها.

- ألهذا جئت يا قاسيا؟ هل أنت مضطرة الى الذهاب الآن؟

اومأت بالإيجاب. كانت ترتعش الى درجة تكاد معها ألا تسيطر على نفسها.

لم تكن قادرة على الصبر حتى تصل المنزل فسعت إلى الحديقة حيث

جلست على احد المقاعد الطويلة . فضت الرسالة بحركة مسعورة وراحت تقرأ .

حبيبي ساني - فولوديا ، يا قلبي ، يا معذبي ، يا سيدي . يوم آخر ، ولا كلمة منك . هذا هو اليوم الثالث ولم يصلني منك ولا حتى سطر واحد . هل نسيتي؟ هل أفلعت عن حب قردك المصري . نزوتك نينا؟ لا أصدق ذلك . لكنني أخاف فانت معها بينما أنا وحيدة .

أخاف لأنني أعرف كم هي نزاعة إلى السيطرة في علاقتها معك . وكم لها من التأثير عليك . سوف تحاول أن تقنعك بأن حبا ما هو إلا «خطيئة بحق الشيوعية» وبأنه ينبغي علينا أن «نتمنع» على الطريقة الشيوعية . ان نحرم انفسنا وننكر عليها كلما هو جلاب للبهجة وأن نكتفي بتبادل الحب في أيام السبت . إنني أخشاها ، لأنني أعرف مدى سلطتها عليك . ولكن يا إلهي . . . إنني لا أسعى حتى إلى انتزاعك منها - إنما أسألك القليل القليل . العالم كله يعترف بها زوجة لك ، وأنت معها طوال الوقت وإلى الأبد . بينما كل ما أسأله أنا هو سويغات نزيرة من وقتك لأنني احبك حباً عارماً . أرجوك اشفق علي ، فإذا لم تعطف علي فإن أحداً لن يفعل . لا أحد في العالم .

أستيقظ في منتصف الليل ، والرعب يملأني خشية أن تكون قد انصرفت عن حبي ، ومن انك على وشك أن تتركني . خائفة من الذي قد يحل بي عند ذاك . . . الذعر يستبد بي حتى حين أهم بالتفكير بذلك . أنت تعرف كيف يراقبني نيكانور بلاتونوفيتش مثل عقرب . ورغم تكلفه دور الأب الوصي إلا أنك تعرف مثلما أعرف ما الذي يرمي إليه . سوف يغمره الفرح إذا ما تركتني ، لأنني عندئذ سوف أكون وحيدة تماماً ، عاجزة أمامه وضعيفة تماماً . سوف يُسر إن حدث هذا . احياناً اشعر بأنني ابغضه إلى درجة أفضل عليه اللجوء الى الشوارع ، أي شيء ما دام يحول دوني ودون الشعور بأني تحت رحمته كل الوقت .

قوليا يا حبيبي ، قوليا ، احبك بجنون . هل تعتقد أن هذا الكابوس قد

ينتهي يوماً ما؟ وهل ستأتي لتنقذ حبيبك نيكاً؟ الن تشفق على «قردك»؟ ألا تفكر بي أبداً؟ أنت قاس وغير رقيق بي. أعرف أنك في هذه اللحظة تقبل تلك المرأة الأخرى - أنت تحبها هي، أعرف ذلك. التفكير بهذا يحطم قلبي. إنني أرغب فيك يا حبيبي فولوديا الجياش النهم. ألا تتوق إلى طبع القبلات علي وإلى ضمي بين ذراعيك؟ ما عدت أطيع مزيداً من الصبر - أرغب في تطويقك بذراعي الناعمين. نهدي يتشوقان لمداعباتك. ما عدت أطيع صبراً يا قوليا. لا أقوى على العيش بدونك. لماذا، أوه لماذا صرفتني إلى موسكو؟ •

لا يمكن لهذا الوضع أن يستمر. حين تنتقل إلى المقاطعة الجديدة عليك أن تجدي لي منزلاً صغيراً بحديقة، حيث يسعك أن تختلف إليه في الليل، وسأثبت لك عند ذاك أن لا شيء، لا شيء في العالم كله أكثر خطراً من حب مثل حينا.

متى ستأتي إلى موسكو؟ وهل ستأتي هي معك؟ لماذا لا تميز نفسك اسبوعاً نقضيه معاً؟ فكر في الأمر - اسبوع كامل معاً.

أنباني نيكانور بلاتونوفيتش أنك سوف تحصل في المقاطعة الجديدة على منزل جميل ناء. يحتوي على غرفة طعام على الطراز القوطي. ويقول أن لا مصباح فيها. ولقد عثرت على ثريا رائعة لها. صحيح أنها ثمينة ولكنها فاتنة وأعرف أنها ستلقى في نفسك هوى.

لقد ثرثرت بما فيه الكفاية. سوف تكون رسالة طويلة إلى درجة لن تفلح في العثور على مكان تواربها فيه.

إنني أمازحك، لكنني أشعر برغبة في البكاء طوال الوقت. هل ستدرك مدى شقائي؟ أوه، لماذا لا تسمح لنا الحياة بالعيش سعداء معاً؟ ولكن لا تقلق، أنت السيد، سوف أكف عن التذمر. أعتقد أنني بت أكثر حصانة بعد كل الذي عانيته. عليك أن تقوم بما تراه الأفضل. سوف أنفذ كل ما

تأمرني به . ولكن ثمة ما لن أدعك تنتزعه مني : قبلاتك وحبك وعطفك على  
نينا الصغيرة المسكينة الوحيدة المضطربة .

موسكو، ١٨ شارع أوستوزينكا، شقة ٧ (لا ١٧ كما كتبت المرة الماضية -  
لولا الحظ الحسن لما تلقيت الرسالة) .

إنني لك من شفتي حتى أخمص القدم .  
نيناك .

ثمة ملاحظة في الهامش :

«لقد سعدت كثيراً بعثوري على المساحيق التي كنت أبحث عنها:  
L'origan Coty» .

قرأت قاسيا الرسالة بأناة، وكانت تتأمل كل كلمة في الرسالة . وما  
قرأت بعينها وحسب بل بقلبها كله أيضاً . حين أتت على الرسالة، تركتها  
في حجرها وحدقت إلى العشب الجاف المغبر عند قدميها حيث تحوم نحلة  
وترسل طينياً غاضباً . حامت حول أوراق العشب وهي تثب هنا وهناك ثم  
عادت إلى التنقل في نفس البقعة مرة أخرى .

في الربيع حين أزهر الليلك كان النحل يئز ببشاشة . لكن هذه النحلة  
ذات مزاج سيء وكأن الصيف خدعها . فجأة أدركت قاسيا أن أفكارها  
تحوم حول النحلة لا الرسالة . لم تشعر بكآبة ولكن بلامبالاة بليدة .

دبت الحياة في الثعبان مرة أخرى، نعم، لقد عقصتها كلمات نينا:  
«ذراعان ناعمتان، شفتان رقيقتان . . .» رشق لسان الثعبان قلبها بالكلمات،  
وغالبت هي الألم الهائل . لا بد من وجود ركن في قلبها عصي على السم .

ببطء وجهد طوت الرسالة ووضعتها في المظروف . نهضت وعبرت  
منصة الموسيقى وسعت نحو البوابة . لا موسيقى اليوم، لا ناس ولا  
موسيقى . لقد عرفت أخيراً من التي يجبها قولوديا فعلاً . عبرت بويب

الحديقة الغبراء . وسعت نحو الشارع المزدهم بالسيارات . تحولت الحديقة  
في عينيها إلى مقبرة إذ انصرفت لتوها من جنازة - دفن سعادتها .

حين وصلت البيت ألفت فلاديمير هناك وقد عاد في وقت مبكر. كان بشوشاً ومفعماً بالأخبار الحسنة. رسالة اللجنة المركزية التي طالما انتظرها وصلتته وهي تؤكد على تعيينه الجديد. عليه أن يسافر إلى موسكو فوراً.

قالت فاسيا:

- موسكو؟ حسن. وأنا ذاهبة أيضاً ولكن ليس إلى موسكو. إنني عائدة إلى مسقط رأسي.

كانت تتكلمم بهدوء ظاهري لكن مشاعرها اضطربت حين فكرت في مظروف نينا القرنفلي الطويل القابع في جيبها. لكن فولوديا لم يلاحظ تجهم وجهها، ولا شرر الغضب في عينيها. من الواضح أنه يجهل مخططها كلياً. قصدت غرفتها لتعد الحقيبة.

- هل تعتزمين زيارة أقاربك في موسكو؟ فكرة سديدة. بوسعنا أن نتقابل في موسكو، إلا إذا فضلت المضي مباشرة إلى بيتنا الجديد.

للحظة راودها أمل وانسكب في قلبها. أملها الأخير. في أن يعترض ويحول بينها وبين الرحيل. والآن ها هو هذا الأمل الأخير ينهار أيضاً.

- لست ذاهبة معك بتاتاً. لقد طُلب إلي أن أعود إلى مسقط رأسي. للعمل، وسوف أبقى هناك، لا مؤقتاً بل نهائياً. لقد طفح كيبي. اختنقت في

ففصك هذا بما فيه الكفاية، ولقد سئمت القيام بدور زوجة المدير. عليك أن تعثر لنفسك على زوجة ترضى بمثل هذه الحياة.

صدمتها كلماتها ولكنها واصلت حديثها بسرعة أدت إلى التلعثم. لن تتيح له خداعها بعد اليوم قالت. وأعربت عن فرحها لوضع حد للعلاقة كلها أخيراً. طوال الوقت وهي تعيش محاطة برجال المؤسسة البورجوازيين. وقد كانت متشوقة إلى العودة إلى عملها، وتحملت ما تحملت في سبيل فلاديمير. إنها حزينة حزناً عميقاً لأن وجودها إلى جانبه ما عاد له مبرر. ولأن حبهما وصدقاتهما قد انتهت، لكنها عاجزة عن البقاء زوجة له. وعن البقاء مضيفة له وغطاء فقط ليقول: أحياء مع شيوعية، ولي عشيقة في بيت سري لمتعتي.

لقد رسم فلاديمير ونينا علاقتهما بذكاء. لكنها نسيا شيئاً واحداً وهو إن كان قاسيا ستقبل بحياة مقرزة مثل هذه الحياة. اشتعلت عينا قاسيا باخضرار غاضب وراحت تلهث الكلمات. هز فلاديمير رأسه بغضب:

- قاسيا، إنني لا أصدق أنك تعين كل ما تقولين. بل إنني لا أكاد أتعرف عليك حين تكونين بهذا المزاج. لماذا لا تتفهمين إن كنت قد أخفيت عنك شيئاً فإنما لصونك.

- شكراً جزيلاً، لكنني لست بحاجة إلى عطفك. إنني قوية بما فيه الكفاية لتحمل الحقيقة. هل تعتقد أن حبك لي هو الشيء الوحيد في حياتي؟ حسن، بوسعك أن تعيد حبك لي إلى حيث وجدته. ودعني أقول لك شيئاً - لم تكن علاقتنا بالنسبة لي سوى عذاب متواصل. أريد أن أنفصل عنك ما إن أغادر هذا المكان. وأرغب عن معرفة ما سيحل بك بعد ذلك. أحبب من شئت، طارجهن الحب، أكذب على الناس، إخدعهم، أصبح مديراً عاماً، كن خائناً للشيوعية... فلست أبالي. ما هم.

- ولكن يا قاسيا، ماذا عن صداقتنا؟ ووعدك بتفهم كل شيء.

- صداقتنا؟ ماذا عنها؟ أين تبددت؟ أين هي؟ قل لي. ما عدت أصدق أية كلمة تقولها بعد اليوم. لقد اغتلت ثقتي بك يا فلاديمير. هل كنت تحسب أنني سأقف في طريقك لو أنك جئت إلي وقلت «قاسيا، الأمر مريع، أعرف، لكن حدث شيء محزن جداً، لقد أحببت امرأة أخرى؟ هل كنت تحسب أنني سأوجه إليك اللوم أو أحول بينك وبين سعادتك؟ لا يا فلاديمير، لقد نسيت أنني لست زوجتك وحسب إنما صديقتك أيضاً. ولهذا حزت تصرفاتك في نفسي إلى هذه الدرجة. ألا تفهم ذلك؟ لهذا لن أغفر لك أبداً ما دمت حية...

انهمرت الدموع على وجنتيها، وأشاحت بوجهها وهي تكفكفها. ثم استأنفت قائلة:

- ثقتي بك صديقاً كانت هائلة، لكنك دست عليها. كيف يحيا شخصان معاً بينما أحدهما تعوزه الثقة بالآخر؟ لا، ينبغي لحياتنا معاً أن تنتهي، شأنها شأن سعادتنا.

أوجعها قلبها واضطربت مشاعرها وهي تشيح بوجهها عن فلاديمير مرة أخرى وتجلس على السرير، وتعتصر اللحاف بيدها، كانت عيناها مليئتين بالدمع. جلس فلاديمير بجانبها وأمسك بكتفيها.

- قاسيا، كيف تقولين إنك غدوت غريبة عني، وإنك أقلعت عن حبي؟ لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً. ولماذا تتسخطين كل هذا السخط لو أنك فعلاً أقلعت عن حبي؟ هل حاولت أن تراعي مشاعري؟ ألا تصدقين أنني لا زلت أحبك؟ أرجوك حاولي أن تفهميني. صحيح أنني أحب نينا ولكن تلك مسألة أخرى. حبي لك أكثر عمقاً وأكثر أصالة. بدونك أنا لا شيء، ولا ملاذ لي. كل ما أقوم به بدونك أتساءل: ترى ماذا ستقولين عنه. أنت لي النجمة - الدليل يا قاسيا. إنني بحاجة إليك.

قالت قاسيا بحزن:

- أنت لا تفكر إلا بنفسك . ولكن ماذا عني؟ هذه الحياة تقيدني يا فلاديمير .  
بوسعي أن أهضم مسألة العشيقة، ولكن ما لا أطيعه هو أننا لم نعد  
صديقين .

- هل تعتقدن أنني لا أحس بنفس الشيء؟ ولكن هل بوسعك أن تخبريني  
كيف حدث هذا؟ ما عدت أفهم أي شيء . نشأتاق إلى بعضنا حين  
نفترق، ولكن لا نكف عن إزعاج بعضنا حين يلتئم شملنا . تقولين أن  
الوضع لم يكن هكذا في الماضي، ولكننا لم نعش معاً تحت سقف واحد في  
الماضي إلا لماماً . لم نحيا حياة عائلة مستقرة - كان العمل يستغرقنا، وكنا  
نتبادل زيارات خاطفة . لماذا لا نعاود العيش هكذا يا قاسيا؟ بوسع كل منا  
أن يفعل ما يشاء، وما أن يُشعر أحدنا بالضجر من الآخر يرحل . هل  
توافقين على هذا الاقتراح؟ إذا اتفقنا على ذلك فإن الصلابة الداخلية  
ستعاود قاسيتي أنا . قاسيا التي أحببت، ولن نضطر إلى الكذب في هذه  
الحالة . عندها سيكون بوسعنا أن ننصل بيسر . قاسيا، انفصالنا تماماً  
سيكون مؤلماً . أرجوك، ارفقي بي يا قاسيا .

مال برأسه على ركبتيها ودفن رأسه في حجرها . والتزما الصمت . في  
غمرة الصمت شعر كليهما بالرغبة حارة، وجعلت شرارات حبهما القديم  
التي ردمت زمناً طويلاً تحت الشك والهوان، تشتعل .

ضم فلاديمير قاسيا بذراعيه القويين وغمرها بالقبلات :

- قاسيا حبيبتي .

استسلمت قاسيا إلى حبه المنسي بكليتها . في تلك اللحظة شعرت أنه  
يجبها حباً عصياً على القسمة . يجبها كما أحبها دائماً . ها هو فولوديا يخون  
نينا، لا بجسده فقط ولكن بباله وبمشاعره، مما بث في نفس قاسيا سعادة  
قاسية لم تعرفها من قبل . مؤلمة وممتعة . دعه يخون نينا هكذا إذن .

مرت أيام كابية غريبة . شرارة عواطفهما المتأججة تدخن مثل خشبة

نارية تهب عليها ريح الخريف. تشتعل وتنتشر لاعة جراحهما المتفحمة وتتسلل إلى زوايا قلوبهما التي لم تتقرح بعد بفعل لهيها.

كان فلاديمير رقيقاً، وقاسياً حنوناً. وكأنها تجابا مرة أخرى. أكدا لبعضهما أنها عاجزان عن الانفصال. وفي الليل يتعانقان ويرقدان خائفين من أن يفقد أحدهما الآخر. يقبل فلاديمير عيني قاسيا وتضم هي وجهه الحبيب إليها. لم يبلغ الحب بهما من قبل هذا المبلغ. أما الآن فقد بعث إحساس رائع بالحنين والسعادة المرة: كانا يعرفان أن التماسهما لبعضهما مرة أخرى يعني دفن جبهما وسعادتهما.

تضحك قاسيا وتمزح تارة وتنتحب تارة أخرى. وبينما كان فلاديمير يداعبها وينظر إلى عينيها، كان بوسعها أن تقرأ في عينيه حزناً عميقاً. بدا وكأنها يودعانا دون كلمات. حتى لا تراهما ولا ترى دموعه، حتى تقتل الحزن الذي لا يطاق عانقته والتمست شفتيه. وما يزال يضمها إلى قلبه ويداعبها ملتصقاً جسدها بنهم حتى بلغت النشوة وتداعى كل منهما إعياءً وغمرهما النوم.

أيام غريبة كثية. خانقة ومعتمة. . . لا سعادة حقيقية الآن، كأنما تبددت تلك البهجة المجنحة. . . وليدة الحب.

وهكذا اتفقا على أن تمضي قاسيا لتعمل في مسقط رأسها مؤقتاً وبعد أن يستقر فلاديمير في البلدة الجديدة سوف تلحق به . لم يحدد بالضبط أين سيجتمعان ، ولم يتطرقا إلى مسألة انفصالهما . ظاهرياً كل شيء بسيط وواضح ومعقول وصادق . الشيء الوحيد الذي أخفته قاسيا عنه هو أنها اختلست رسالة نينا ، إنها وارتها واحتفظت بها . شعرت بأنها لا تزال بحاجة إليها .

في أية حال ، ألحت قاسيا على فلاديمير أن يرسل لنينا برقية يقول لها فيها أنه سيصل إلى موسكو وحيداً . لم تعرف سبب هذا الإلحاح الذي كان له ثمن كبير ، والذي شعرت أن عليها أن تقوم به دون أن تتبين له تفسيراً . ذهل فلاديمير لوهلة وبدأت عليه ملامح الريبة والحذر ، ولكنه أذعن في النهاية . وبعد ذلك بات أكثر محبة لها وعطفاً عليها .

ما عادت قاسيا تبالي . بدا أنها احتسبا فعلاً آخر قطرات سعادتهما سوياً ، وكانت هذه القطرات تحتوي على نشوة الحب المنحدرة ممزوجة بحزن الانفصال اللذيذ . غدت بشوشة منتعشة - منذ مدة طويلة لم يرها قولوديا بهذه الحالة .

قالت قاسيا مداعبة :

- أشعر وكأنني لبست جلداً لا يناسبني . ما كنت خليقة بأن أكون زوجة

مدير، أليس كذلك؟ أنت بحاجة إلى زوجة من نوع آخر. لست خليقة بك.

اعترف قولوديا قائلاً:

- ما عدت أعرف أية امرأة أنت. كل ما أعرفه هو أنك عاودت طبيعتك القديمة: فاسيا الصلبة. ولن أتخلى عن هذا حتى لو كانت خمس لجان حزبية بحاجة إليك. ربما بعد حين. ولكن الآن لا أدري لماذا انفصل.

ضحكت فاسيا. فليكن. ولماذا لا يزوران بعضهما زيارات قصيرة منذ الآن وصاعداً، لا كزوج وزوجة ولكن كصديقين يملك كل منهما حريته؟ وافق فلاديمير على اعتبار هذه العلاقة هي الأمل والتي ستجعل الأمور بينها أكثر يسراً، لكنه لا يزال يصر على أنه عاجز عن العيش بعيداً عنها:

- ليس لي في هذا العالم سوى قلة من الأصدقاء يا فاسيا، وفي هذه الفترة بالتحديد خاصة وأن كل الأمور تهوي إلى الحضيض. والجميع ينشدون عظم الكتف. أنا وأنت صديقان قديمان حميان، أليس كذلك يا فاسيا؟

بات بوسعها الآن أن يتحادثا وكأن الحاجز الذي كان ينهض بينهما قد تهاوى. وبدا وكأن هواجس فاسيا القديمة قد تبددت. ولكن بين الحين والآخر وبينما هي تتمتع بسكينتها النفسية كانت مشاعر الغيرة تُبعث على نحو مفاجيء. وأحياناً كان فلاديمير يبدو نائياً بلا سبب بين، فيعمد إلى الحديث عن نينا. إنها على يقين من أنها تكاد لا تبارح باله.

يقول إنها مثقفة وبوسعها أن تتحدث بالفرنسية مع الفرنسي والألمانية مع الألماني، لقد درست في معهد...

- إذا كانت مثقفة إلى هذا الحد فلماذا لا تعثر لنفسها على عمل؟ أم لعلها اعتادت أن تحيا عالة على الآخرين؟ إنها طفيلية حتى الأعماق، رغم أن العشيقة لا بد وأن تكون كذلك.

كانت قاسيا تدرك أن الحديث بهذه الطريقة خطأ لكنها ترغب في أن تخفف من ألمها على حساب فلاديمير.

- قاسيا، لماذا تتكلمين هكذا؟ تبدين قاسية. وكأنني أصغي لقاسيا ديميتوفا أخرى، لا قاسيا الجديرة بإعجابي.

ولكن رغم الخجل والجراح كانت عاجزة عن مغالبة رغبة لاراد لها في وخزه ووخزه إلى أن يفقد أعصابه فتدرك عندها ما الذي تفعل :

- حبيبي، أرجوك.. حاول أن لا تغضب مني، اغفر لي كوني قاسية. أنت تعرف كم أحبك. ولو كان الأمر خلاف ذلك لما تعذبت هكذا.

وإذا بهما يتعانقان ويتناسيان كل شيء عبر قبلات خانقة ونشوة ممارسة الحب. لا داعي للتفكير والمعاناة، فلينسى كل منهما كل شيء. وليحتالا على الحقيقة القاسية التي لا تطاق..

بعد أيام ودعت قاسيا رفاقها في اللجنة الحزبية وعادت إلى المنزل لتحزم حقائبها. كان عليها معالجة كل شيء: تجمع الصناديق والحقائب، إعداد القش لتغليف أشياءها. سألت ماريما سيمينوفا عن كيفية حزم الأشياء بحيث لا تتحطم أو تتضرر في رحلتها إلى منزل المدير الجديد.

قالت ماريما سيمينوفا:

- ولم كل هذا الهرج والمرج؟ لست أدري لماذا تجهدين نفسك بهذا، ألم يقر قرارك على العودة إلى مسقط رأسك؟ صديقي: ما أن ترحلي حتى تأتي عشيقته لتحل محلك. لماذا تجهدين نفسك من أجلها؟

لكن كلماتها لم تؤثر على قاسيا. ما عادت تشعر أنها تساعد قولوديا كزوجته. ولو كانت تشعر أنها زوجته لما فعلت ما تفعل ولا انتقدت أساليبه البورجوازية. أما الآن وما دام هو ذاهب في طريقه وهي في طريقها الخاص فإنها لا ترى سبباً يحول دون مساعدته. تماماً كما يساعد الصديق صديقاً. إذ

أنها لم تعد تمسك في نفسها أي عتاب عليه . وإذا شاء أن يجر كل هذه التوافه معه فيحمل نظام النقل العام أكثر مما يحق له بصناديق الأواني الفخارية ، وحقائبه المليئة بثياب الحرير فهذا شأنه . لو كانت مكانه لما نقلت كل هذا ، ولكن لماذا لا تساعده في حزم حقائبه ما دامت لا تحفل بالأمر كله بعد؟

حين رآها قولوديا تقوم بذلك دهش . لا داعي لأن تكون مدبرة منزل على نحو مفاجيء - قال - ما دام ايقان ايقانوفيتش والمدراء على استعداد للقيام بذلك . وفي أية حال من سيرتب كل هذه الأشياء في بيته الجديد إن لم تأت هي بسرعة؟ قال :

- وماذا عن نينا كونستانتينوفا؟ أم أنها لا ترغب في توسيخ يديها البيضاوين الجميلتين؟ لعل مثل هذا العمل لا يليق بسيدة مثلها . ولعلها لا تفعل سوى انتظار قيام الآخرين بخدمتها . تنتظر أن تحمل إليها وجبات الطعام على صوان من فضة . وتتمتع بثمار جهود الآخرين وأموالهم .

سرعان ما ندمت وشغرت بالغضب من نفسها لأن كلماتها تحز في نفس قولوديا ومرة أخرى لم تتبين أية قوة غامضة تدفعها إلى مثل هذا السلوك . رمقها قولوديا بنظرة معاتبة . فطوقته بذراعيها وعانقته .

- أوه يا حبيبي ، إني أمقت نفسي لقسوتي عليك . إنما السبب يعود إلى حبي العارم لك . لا تسخط علي يا حبيبي إنما كنت أمزح .

دفنت رأسها في سترته ماسحة الدموع التي غصت في حلقها . إنها لا تزال تحبه . تحبه حباً جارفاً ، تعاني من أجله ، تخشى أن تفقده ، ومن العيش بدونه .

واساها قائلاً :

- يا حبيبتى المسكينة . عزيزتي قاسيك الصغيرة . أعرفك جيداً ، لهذا أحبك . ولن يكون بوسعي أن أنتزع نفسي منك . ليس لي في العالم كله قاسيا أخرى . ولن يكون لي صديق مثلك . .

مرة أخرى دهمتها تلك العاطفة المريرة واحتوتها ودفنا ألهما في عناق  
محموم .

- اتركي حيزاً في قلبك لحبيك الفوضوي القديم .

- إذاً تذكرت حبيبتك فاسيك الصلبة وسعادتنا السابقة .

كانت تلك الأيام الأخيرة غريبة ومسكرة بالنشوة . خانقة ومظلمة .

قرعت قاسيا بابِ عِلِّيَّتِها حيث تعيش غروشا الآن . قيل لها أن غروشا عادت من العمل ، لكن الباب كان موصداً . لعلها نائمة ، التفتت فإذا بها تراها وهي تتراكمض في الرواق حاملة إبريق شاي وماء ساخن .  
- غروشا .

- قاسيليسا ، يا عزيزتي . متى وصلت؟ ما كنت أتوقع أن أراك .

وضعت غروشا الإبريق جانباً وتعانقت الصديقتان بفرح .

- تعالي ، خذي راحتك . تذكري أن العلية عِلِّيَّتِك وإنما أقيم فيها بفضلك . دعيني افتح الباب . لقد حصلت سرقات عديدة في هذا المنزل . وعلى أن أقفل الأبواب حتى حين أخرج لأحضر ماء . قبل أيام سُرق معطف السيد فورازهين الخريفي من على المشجب مباشرة ، وهو معطف جديد . استنفرنا سكان المنزل جميعاً ودعونا المليشيا . لكنهم عجزوا عن اكتشاف أي شيء . حاصله ، ها أنت قد عدت يا قاسيا إلى بيتك القديم . فلماذا لا تخلعين معطفك وتغتسلين بعد هذه الرحلة؟ كنت على وشك أن أعد شيئاً . هل ترغبين في إصابة شيء من الطعام؟ ثمة بيض وخبز وتفاح .

بيت؟ قالت غروشا أن هذا هو بيتها . هل سيكون لها بيت حقيقي في يوم من الأيام؟ . جال بصرها في العلية . إنها العلية القديمة بلا شك ولكنها ما عادت عِلِّيَّتِها . ثمة ماكينة خياطة ودمية لعرض الملابس في الركن .

وقصاصات قماش منتشرة هنا وهناك، وخيطان على الأرض. الجدران عارية وصور ماركس ولينين ومجموعة الرفاق التي علقتها حين احتفلوا بعيد الثورة. ليست معلقة. بدلاً منها ثمة مروحة ورقية حمراء وإلى جانبها بطاقة معايدة تصور بيضة فصيح وأحرف ذهبية محفورة: المسيح قام. وثمة أيقونة في الركن أيضاً.

لم تكن غروشاً عضوة في الحزب. كانت تؤمن بالله. وتصوم، رغم أنها تؤيد السوفييت وعلى علاقة صداقة بعدد من الشيوعيين. كان لها في الماضي خطيب قاتل مع البيض ولم تعرف إن كان حياً أو ميتاً. كانت تقول: سوف يلعني من العالم الآخر إن انضمت إليكم.

للوهلة الأولى لم يكن بوسع قاسيا أن تفهم كيف يمكن لغروشاً أن تحب جندياً أبيض، لكنها الآن تدرك أن للعواطف قوانين خاصة بها. لقد ذهب قلاديمير وهي كل في طريق منفصل، إلا أن حبهما ظل حياً لا يمنحها سكيناً ولا هدوءاً.

غمر الفرح غروشاً لرؤية قاسيا فأسرفت في الأسئلة. لماذا لم يزداد وزنها رغم كل المال الذي يملكه زوجها؟ لقد عادت نحيلة كما ذهبت، لا بل أضعف.

لاذت قاسيا بالصمت. كانت تحسب أنها بمجرد رؤية غروشاسوف تعانقها وتنحب شاكية لها مشاكلها، إلا أنها الآن وقد جلست إزاء غروشاً لم تجد الكلمات المناسبة. كيف تبدأ بوصف معاناتها؟

سرعان ما سمع سكان البناية بوصول قاسيا. ففرح بها السكان القدامى ودب الفضول في الجدد ليروها. وتخوف ممثل لجنة الإسكان من تدخلها في شؤونه الإدارية مرة أخرى.

كان الأطفال الأعضاء في نادي الأطفال أول من هب لرؤيتها في غرفة غروشاً. وسرعان ما حمل لها أكبرهم الشكاوى. أنبأها أن نادي الأطفال

قد أغلق نتيجة الخطة الاقتصادية الجديدة، وأعلنت السلطات استحالة إعادة شرائه من الدولة، ما دامت هذه الجهات تحتاجه لأشياء أخرى. فأين سيعد الأطفال دروسهم بعد الآن؟ لقد نقلت مجموعة دروس الأشياء botanical أما محتويات المكتبة فقد وزع بعضها على مكتبات أخرى وبيع بعضها الآخر.

دهشت قاسيا لهذا النبا وسارعت لمعالجة الوضع. ستذهب اليوم بالذات إلى دائرة الإسكان. لا اعتراض لها على السياسة الاقتصادية الجديدة ولكن كيف يتجرؤون على ما نظمه العمال بأنفسهم. قالت: سوف أكافح هذا القرار، لا تقلقوا أيها الأطفال، سوف أدافع عن حقوقكم. لن أدعهم ينفذون قرارهم هذا، ولو اقتضى ذلك ذهابي إلى موسكو.

ضحك الأولاد الكبار. كانوا واثقين من أن قاسيا سوف تدافع عنهم. وها هي ستهب للدفاع عنهم. لقد اشتهرت كمناضلة لا تلين لها قناة، وكان هذا صحيحاً.

بعد ذلك أقبل السكان القدامى ليرحبوا بها وكل منهم متلهف ليحكي عن مشاكله وقصصه. أصغت لهم بنفس الانتباه الذي عرفت به دائماً. وراحت تستجوب كل واحد منهم وتسدي المشورة وتواسي. وسرعان ما ازدحمت العلية بالناس وغصت بالمراجعين.

قالت غروشا:

- اسمعوا أيها الأصدقاء، أليس بوسعكم أن تنتظروا قليلاً. لم يتسن لها أن تتناول لقمة من الطعام بعد رحلتها والمسكينة مرهقة. بوسعكم أن تفكروا بليالي السفر المرهقة بدل أن تنهمروا عليها بمطالبكم.

قالت قاسيا:

- لا يا غروشا، أرجوك لا تعترضهم. لست مرهقة أبداً. ما الذي كنت

تقوله يا تيموني توموفيتش؟ أوه صحيح ، كنت تتحدث عن ضرائبك .  
إنني لا أفهم ذلك ، فأنت لست ملاك أرض ولا مدير . . ؟

ما إن نطقت بهذه الكلمة حتى خطر قولوديا على بالها ، ولوهلة شعرت  
بالألم القديم مرة أخرى . لكن هموم الآخرين سرعان ما طمسته . ليس  
لديها متسع من الوقت لتفكر .

حين بدأوا يغادرون الواحد تلو الآخر أعدت قاسيا نفسها للذهاب  
إلى اللجنة الحزبية . كانت راغبة في معالجة الأمور حتى أنها لم تنتبه إلى  
مدى إعيائها . وبينما كانت تزرر بلوزتها راحت تصغي إلى أخبار غروشا :  
فلانة الفلانية تزوجت ، فلان الفلاني ترك الحزب ، فلان انتخب عضواً في  
السوفييت . فجأة انطلق صوت السيدة فيوديسيفا في الرواق :

- أين هي حبيبتنا الصغيرة ، ملاكنا الحارس ، قاسيليسا ديمتوفنا؟ وبحركة  
سريعة اندفعت نحو قاسيا وضمتها .

- أوه يا ملاكي طالما انتظرت عودتك . أنت أملي الوحيد الآن . قلت لنفسي  
ما إن تعود ملاكنا الحارس حتى تحل لي كل مشاكلي . فلن يجرؤ على إهانة  
زوجته الوفية هكذا . التعيس سوف ينجل من تحويل البناية إلى ماخور -  
هو وهذه العاهرة . قاسيتنا سوف تشفق علي أنا التي بت أكافح من  
أجل صغاري المساكين وحيدة . سوف تقوده إلى العدالة ، عندها سوف  
يضطر إلى تنفيذ ما يقوله الحزب . أنت أملي الوحيد يا عزيزتي .

من عادة قاسيا أن تدرك مشاكل الآخرين بسرعة ، إلا أنها لم تفهم  
عن ماذا تتحدث السيدة فيودوسيفا . لا شك في أنها تغيرت كثيراً . إذ  
كانت امرأة قوية ذات صدر ضخم ، أما الآن فهي تبدو عجوزاً صفراء  
وشرسة .

راحت تحكي لقاسيا قصتها . فأنبأتها أن فيودوسيفا على علاقة  
بيهودية لم تتعمد تدعى دورا . وقد هجر زوجته في سبيلها ، وهو الآن

يلحق بزوجته الهوان تحت سمع وبصر الجيران جميعاً. لقد نبذ أولاده بطريقة مخجلة. وهو ينفق كل نقوده على عشيقته. ويقول لها:

- دعيني أقيم معك، بوسع عائلتي أن تموت في حفرة فأنا لا أكرث، ولكن لا تتخلي عني.

بصقت السيدة فيودوسيفنا وقالت:

- ماذا ترى دورا الحمقاء الصغيرة فيه؟ حتى إنه ليس رجلاً حقيقياً. أوه، يا وجه الفأر يا قميء ثماني سنوات وأنا أحتمل وأقبل وجهه المشوه بالجدري من أجل أطفالنا. كنت أقول لنفسي: «مهيا كنت قبيحاً يا قاسيليثيتش فإن القدر قد ربط ما بيننا والكنيسة زوجتنا، لهذا سوف اضطر لاحتمالك». كنت أحس طوال الوقت أنه يبعث على الاشمئزاز، طريقته بتقبيلي مثلاً، لكنني تحمّلت وناهضت ولم ألق نظرة على رجل آخر، حسبت أنه قد يشعر بالامتنان - لكنني ضيعت شبابي على هذا المشوه بالجدري هذا القميء. والآن انظري ماذا حصل. ما إن تقدمت في العمر حتى شرع يلاحق الفتيات. وها هو يتورط مع هذه اليهودية ويعرض غسيله الوسخ للجيران.

كانت السيدة فيودوسيفنا تتحب. وبينما راحت قاسيا تصغي فاض قلبها بالمشاعر. فقد تجل حزنها في حزن السيدة فيودوسيفنا، تولتها كآبة حادة لدى ثورة مشاعرها القديمة بهذه الطريقة.

فجأة شعرت بالإعياء والهبوط. وتبددت رغبتها في المضي إلى اللجنة الحزبية. كل ما ترغب فيه الآن هو أن تدفن رأسها في وسادة وتواري وجهها. لكن السيدة فيودوسيفنا واصلت نحيبها وهي تقبل كتفيها وتتوسل «قاسيليسا الحكيمة» أن تعيد إلى زوجها رشده، وأن تدافع عن حقوق أطفالها بأن تهدده بالمحكمة الحزبية. لكن ما إن وصلت قاسيا إلى اللجنة الحزبية حتى نسيت كل شيء. هناك شعرت أن لا قيمة لأي شيء سوى

الحزب . جادلتهم بحدة واستقصت عن مكتبة الأطفال .

واستغرقتها هذه المهمة فارتفعت معنوياتها، بعد حين عادت إلى المنزل ومعها أصحابها . لديهم الكثير من الأمور التي تستحق النقاش، كانت فرحة تمور بالحوية حتى أنها هرولت إلى العلية بسرعة وخفة، وعندها فقط أدركت كم هي متعبة .

بينما كانت غروشا تعد العشاء، رقدت فاسيا على السرير، وسرعان ما استسلمت لنوم عميق . تأملتها غروشا ولم تدر أتوقظها أم لا؟ بدت فاسيا منهكة فقررت أن تتركها نائمة . جردتها من ثيابها كطفلة ثم من نعلها ثم بسطت عليها غطاء . جللت المصباح بشالها وجلست تسوي عوى الأزرار .

فجأة سمعت قرعاً على الباب . من يا ترى؟ تساءلت غروشا مغضبة للازعاج . فتحت الباب فأطل وجه زوج فيودوسيف . سأله :  
- ماذا تريد؟

- جئت لأرى فاسيليسا ديمتيتشنا . هل هي موجودة؟

- هل جننتم جميعاً؟ لقد أرهقتها رحلتها الطويلة، فقد قضت أكثر الليالي دون أن يغمض لها جفن، وإذا بالناس يزعجونها ويندفعون نحوها مثلما تندفع الكلاب الجائعة نحو عظمة . فاسيليسا ديمتيتشنا نائمة .

وقفت غروشا بالباب تلقي محاضرتها على فيودوسيف المسكين الذي ألح على رؤية فاسيا . إلا أن غروشا تأبت، فوافق أخيراً أن يعود في اليوم التالي . صفقت الباب في وجهه . قدر تافه . ماذا عن زوجته الوفية وأولاده الثلاثة، بينما تكشف دورا عن بطنها الكبير . ليعالج مشكلته بنفسه . كانت غروشا تحتقر فيودوسيف وما كانت متعاطفة مع دورا، التي تقيم علاقة مع رجل متزوج كهذا وكأن غير المتزوجين قد اختفوا .

لم تكن غروشا لتنسى خطيبتها وها هي الآن «تحافظ على طهارتها» . وقد طبقت هذا المنطق المتشدد على الجميع .

عندما استيقظت قاسيا شعرت بالسكينة والوضوح . تراقصت شمس خريفية خلال النافذة ونثرت ذهبها على آلة الخياطة . كانت غروشا تسخن المكوى لتسوي ثوبها .

سألت قاسيا :

- لمن هذا الثوب؟

أجابت غروشا :

- لسكرتيرة اللجنة التنفيذية ، اليوم عيدها .

- صحيح؟ ألا يزال الناس يحتفلون بأعياد أسماء قديسيهم؟ حتى اليوم؟

- نعم . وبروعة تفوق عهد الأرستقراطية . ينبغي عليك أن تري الموائد التي تزدهم بالولائم . بالطعام والنبيد والقودكا . . .

أرسلت المكوى هسيساً فتوقفت غروشا عن الكلام . انكمشت قاسيا على نفسها في السرير الضيق المألوف . لقد نامت مع قولوديا في هذا السرير . كيف كان يتسع لهما . ألم يضيق بهما السرير الواسع مؤخراً؟ كانت الأمور في الأيام الخوالي مختلفة .

تولت قلبها كآبة سوداوية هددت بإفساد سكينتها الذهنية . لكنها استعادت سكينتها تدريجياً مثل حديقة بعد أن عصفت بها عاصفة عنيفة . لعل الجزء الأعنف من العذاب قد ولى .

فجأة تذكرت غروشا الموعد الذي عينته لفيودوسيف . قالت قاسيا .  
- دعيه يدخل إذن .

إلا أنها كانت مترددة ومنزعجة لاضطرارها إلى التورط مع الزوجين  
فيودوسيف مرة أخرى . لماذا يعاني هذان التعيسان من بين الناس جميعاً  
نفس معاناتها؟

سألت غروشا عن دورا .

- ألا تتذكرينها؟

سألت غروشا بدهشة .

- إنها تلك الفتاة السمراء الجميلة . لقد رقصت مرة رقصة الدف الصغير  
في عيد الكومسومول .

تذكرت قاسيا أنها كانت معجبة بها . كانت في لجنة الثقافة العليا  
وتعمل بين الدباغين . كانت ذكية ، صبية فتيّة ، وغنت غناء جميلاً .  
مسكينة السيدة فيودوسيفا ، أية مقارنة !

لم توافق غروشا على رأي قاسيا . قالت :

- عليك باتباع القوانين . لو سمح الشيوعيون للأزواج بأن يتصرفوا  
هكذا ، لكان بوسع كل رجل أن يهجر زوجته وأطفاله ويهرب مع فتاة  
أصغر .

لقد سمعت أنهم يعدون قضية ضد دورا في الحزب .

قالت قاسيا وهي تتأهب للدفاع عن دورا :

- إذن هذا من صنع السيدة فيودوسيفا . إنها امرأة مثيرة للاشمئزاز . ليس  
ثمة قانون يفرض على الزوج أن يعيش مع زوجة لا يحبها . لا يسع  
القانون أن يجبر فيودوسيف على مضاجعة زوجته بالقوة . في أية حال ، إنها  
مشاغبة وتبغضه .

كانت قاسيا مضطربة اضطراباً نَفَسَتْ عنه يبغضها للسيدة فيودوسيفيا .  
ولكن بينما كانت تجادل غروشا في موضوع السيدة فيودوسيفيا كانت تفكر  
طوال الوقت بفلاديمير . وأثناء دفاعها عن دورا كانت ترى شريط مظلة  
أبيض وشفتي نينا الحمراءين . . .

دهشت غروشا لتورط قاسيا عاطفياً إلى هذا الحد في قضية الزوجين  
فيودوسيف . قالت :

- قد يعتقد المرء أنها أصدق أصدقائك . ألا تتذكرين كيف كنت تشكين  
منهما؟ وكل تلك المشاكل التي كانوا يثيرانها في وجهك . أنصحك ألا  
تورطي نفسك في هذه الفضيحة . طبعاً القرار قرارك . بوسع الكلاب أن  
تحل مشاكلها فيما بينها . فدعيهما يعالجان مشاكلهما وحدهما .

لكن قاسيا ألحت على أنها ستعتمد إلى الدفاع عن دورا إن رفع أحدهما  
دعوى ضدها . هل تعتقد السيدة فيودوسيفيا حقاً أنها تملك هذه الحقوق  
عليه لمجرد كونها زوجته الشرعية؟ فإذا كانت تعتقد ذلك فهي مخطئة .  
فثمة حقوق أخرى وليس هناك قوانين بوسعها أن تفرض نفسها على مشيئة  
القلب . وما من إنسان يستطيع أن يعارض هذه المشيئة مهما بلغت قوته .  
فلكل امرئ حاجاته الخاصة .

كانت غروشا تكوي الثوب . اختلست النظر إلى قاسيا وكأنما تريد أن  
تقرأ أفكارها . عبست قاسيا . لماذا تحديق غروشا إليها بهذه الطريقة؟  
أليست على حق؟ أية قوانين تريد غروشا أن تفرضها على عمل القلب .

قالت غروشا :

- لا أحد يستطيع الإجابة . طبعاً المهم هو مشاعر الناس ، المرء ليس إنساناً  
بلا مشاعر . ولكن حين نظرت إليك الآن يا قاسيا أدركت كم تعانين .  
وكم أنت مليئة بالاستياء والغیظ . وأكباد أقسم أنك حين دافعت عن  
فيودوسيف الزوج بهذه الحدة إنما كنت تفكرين بزواجك وتحاولين أن

تخترعي له عذراً . هذا هو التفسير الوحيد لموقفك .

غضت قاسيا بصرها ولم تنبس . وامتنعت غروشا عن طرح الأسئلة .  
تناولت الثوب هزته ثم انتزعت الخيوط المفككة . بات جاهزاً .

سألت قاسيا شاردة :

- هل انتهيت؟

- نعم ، انتهيت .

- حسن يا غروشا ، سوف أمضي الآن إلى اللجنة الحزبية . إذا جاء السيد  
فيودوسيف قولي له أن ينتظر .

تنهدت غروشا :

- حسناً .

وهكذا بدأت فترة نشيطة جديدة في حياة قاسيا . عليها أن تستشير  
ستيبان اليكسيقيتش قبل أن تمضي إلى عملها في مصنع النسيج . وأن تقرأ  
تعليماتها بإمعان وأن تجتمع عدة أمسيات مع العمال الفنيين . مر الوقت  
بسرعة ولم تجد قاسيا الوقت الكافي للتفكير في مشاعرها ثم هنالك مشكلة  
الزوجين فيودوسيف وعليها أن تحلها ، ومشكلة دورا أيضاً . في النهاية لجأ  
ثلاثتهم اليها حاملين مشاكلهم وعجزت هي عن التخلص منهم .

روى لها فيودوسيف ما حدث من وجهة نظره . لقد تعارف إلى دورا  
ابراموفنا من خلال دائرة التعليم العالي . كان يغني في جوقة من المرتلين .  
واعجبت دورا ابراموفنا بصوته الجمهوري واقترحت عليه أن يأخذ دروساً  
موسيقية . كانت هي تتقن العزف . قدمته إلى الدائرة ، ثم تطورت العلاقة  
بينهما .

حين عرفت زوجته عن العلاقة صبت عليه نار جهنم . وثار غضب  
غيودوسيف عندما راحت زوجته تنشر حولها الشائعات والفضائح وتؤلب  
أصدقاء دورا ابراموفنا عليها . كانت تزعم كذباً أن دورا ابراموفنا تلاحقه من

أجل ماله . وإنما تعتاش على ما يكسبه . والحقيقة على العكس من ذلك . كانت دورا ترفض أن تأخذ منه كوبيكاً واحداً . لا بل كانت مهتمة بوضع عائلته ، وعلى استعداد لمنحهم آخر كوبيك في جيبيها . لطالما كانت تميل إلى الأطفال وتحفل بهم . وهي التي وجدت لأطفاله الصغار أماكن في روضة الأطفال . وهي التي أحضرت لولده البكر الذي كان في المدرسة كتباً ودفاتر . وطبعاً ، قامت بكل هذا دون أن تعلم زوجته .

ودورا هي التي زودت فيودوسيف بربطة عنق وقميص ليضعهما في الحفلات الموسيقية . ولكن الناس قلبوا الآية بدافع من نكاية . إن قلب فيودوسيف ينزف من أجل دورا . انه لا يكثرث بسمعته ، إنما هو لا يحمل إلا بها . ماذا لو تسببت لها هذه العلاقة بمتاعب مع الحزب؟ إنها غلطة زوجته التي وقفت في طريقها .

أثناء حديث فيودوسيف كانت قاسيا تفكر في فلاديمير ونيينا . لا بد أنهما تعرضا لمثل هذا العذاب حين كانا يفكران بحل للمشكلة . لا بد وأنهما كانا غاضبتين من قاسيا تماماً مثل هذين لأنها وقفت في طريق سعادتهما . على فيودوسيف أن تتنحى جانباً وتخلى لهما الطريق . عليها أن تكف عن التشبث بالماضي فتحول دون سعادة الحاضر . فهذه محاولة لا جدوى منها في أية حال ، إذ للسعادة حركتها الذاتية وزخمها الخاص .

لكن قاسيا عادت وتساءلت إن كان يحق لها أن تتكلم في هذه المسألة ، هي التي لا تزال تقف عائقاً وتشبث بسعادة الماضي . من الواضح أن فيودوسيف متيم بدورا . إذ ما أن يذكر اسمها حتى يتحول إلى شخص رقيق . فلاديمير أيضاً كان يتحول حين ينطق باسم نينا .

كان فيودوسيف يقول :

- لدورا ابراموفنا قلب من ذهب . كل النقابة معجبة بها . وغير الحزبيين لا يكادون يصدقون أن الحزب سيحاكمها . لا بل بعضهم فرح لذلك . إنهم

يقولون أن ذلك سيدفعها إلى صفوفهم، وأنهم سيقفون إلى جانبها ويمنحونها ولاءهم.

ما أن ذهب فيودوسيف حتى اقبلت السيدة فيودوسيفا واندفعت نحو قاسيا وجعلت تقبلها متأملة أن تنحاز قاسيا نحوها. شعرت قاسيا بالبغض تجاه هذه المرأة في تلك اللحظة، وبغضب دفعتها بعيداً. منذ تلك اللحظة صبت فيودوسيفا جام غضبها على ثلاثتهم: دورا وزوجها وقاسيا وراحت ترميهم بأقذع الشتائم.

دبرت قاسيا لقاء بينها وبين دورا في اللجنة الحزبية. انتحت بها جانباً في ركن غرفة تزدهم بالطابعات على الآلة الكاتبة. ساعدهما البضجيج الذي ترسله الآلات على تبادل الحديث من دون أن يسمعها أحد.

كانت دورا تضع شالاً حول جسدها لتخفي كونها حاملاً. بادرت هي إلى الحديث، لم تتحدث عن نفسها، تحدثت عن فيودوسيف.

قالت إنها مهتمة به وأنها معجبة بموهبته. إنه يتمتع بصوت رائع يشبه صوت شاليابين. لكنه يحتاج إلى التدريب فقط. ولهذا السبب تلح عليه دورا أن يترك أسرته ويتزوجها. بوسعه عند ذاك أن يترك عمله ويتفرغ للغناء. لكن رغم مديح دورا لفيدوسيف فقد انتقدت تردده. إنه على استعداد للقيام بأي شيء حين يكون معها، يوافق على أن ينفصل عن زوجته ويطلقها ولكن ما أن يعود إلى منزله حتى ينكث الوعد ويرجع عن ما قطعه. انه عاجز عن المواجهة. وبالتالي يضطران إلى إعادة «هذه الاسطوانة» من جديد عوداً على بدء. إن دورا تناضل على هذا المنوال منذ أشهر وأشهر لكنه لم يتقدم شبراً واحداً.

تولى قاسيا شعور بالامتعاض وهي تصغي. لا شك في أن نينا كانت تتحدث هكذا عن فلاديمير.

كانت دورا ترى أن التقاليد المتعلقة بالزواج والطلاق غير ضرورية مجرد

(كلام فارغ) تقول. إنها مع العلاقات الحرة، لكن السيدة فيودوسيفنا لن تتركها بسلام إلا إذا سجلا في المفوضية. وهكذا أصبحت دورا حاملاً كي ترغم فيودوسيف على الطلاق. ليست خائفة من أن تغدو أمًا، وبوسعها أن تدبر أمورها من غير أب إذا ما اضطرت.

تساءلت قاسيا: هل فعلت نينا ذلك يا ترى؟ هل حملت كي يُضطر فلاديمير إلى اللجوء إلى الطلاق.

ولا تزال دورا تتحدث وتبحث قاسيا على التعاطف معها حتى شردت قاسيا مع افكارها. دورا لا ترى إلا الجانب الإيجابي في فيودوسيف. لا شك في أن نينا تحب فلاديمير بنفس الطريقة. لكن قاسيا عاجزة عن مثل هذا الحب. كانت تعرف سلبيات فلاديمير وتحبها. حبه كان يعني المعاناة بسبب سلبياته، والرغبة في مساعدته ليتخطاها، ولعل هذا ما آذى فلاديمير في نفسه.

سألت دورا بغضب:

- لماذا تشبثت زوجته به إلى هذه الدرجة؟ هل تحابا يوماً ما؟ إذا حدث هذا فلا بد أنه وقع منذ فترة بعيدة، لأنها يفتقران لأي مشترك بينهما الآن. هل تعرفه معرفة حقيقية وتقدره؟ هل تتفهم فعلاً حاجاته؟

فكرت قاسيا: هذا ما حدث لي أيضاً. هكذا كانت علاقتي بفلاديمير، هو لا يعرف ما الذي أرغب فيه، وأنا لا أدري ما الذي يريده. لهذا افترقت دروب مسالكتنا.

قالت دورا:

- إنه غريب تماماً بالنسبة للسيدة فيودوسيف، إنها يختلفان في كل شيء تقريباً. أذواقهما مختلفة، طموحاتهما متباينة. إنها تشبثت به لمجرد كونه زوجها. إنها لا تحتاج إليه كشخص ابداً. إنه ليس ضرورياً لها.

وحيث وجهت قاسيا نفس هذه الأسئلة إلى نفسها ادركت بوضوح أنها لم تعد بحاجة إلى فلاديمير كما هو الآن .

تابعت دورا :

- أي ضرب من ضروب الحب هذا؟ إنها لا يتفقان على أي شيء . ليس بينهما سوى الشجار ثم يذهب كل منهما في طريقه ، بلا صداقة ولا ثقة بينهما «نعم نعم» وافقت قاسيا بصمت . لا صداقة ولا ثقة .

- أما أنا وفيودوسيف فتفاهم دون حاجة إلى كلام - عقلانا يعملان حسب نفس الموجة .

لا شك في أن نينا وفلاديمير تحابا هكذا . بدأت قاسيا تدريجياً وبيطء تفهم الكثير من الأشياء ، الكثير من المشاعر . .

كان على قاسيا أن تقوم بمهمات حزبية مستعجلة ، لكنها على الرغم من ذلك لم تهمل قضية الزوجين فيودوسيف . فسعت جاهدة متعجلة طلاقهما . فراحت تصالح فيودوسيف مع أصحابه وتجميل صورة دورا في عيون الحزب . لسبب ما لم تعرف له مصدراً محدداً شعرت أن هذه المهمة هامة جداً .

غادرت قاسيا اللجنة الحزبية وتوجهت صوب بيتها . كان عليها أن تمضي في اليوم التالي إلى مصنع النسيج ، وشغل بالها بخواطر تتعلق بالعمل ، كيف تعيد تنظيمه وكيف تنفذ تعليمات الحزب وكيف تتواصل مع العمال غير الحزبيين أيضاً إذ باتت ميول العمال غير الحزبيين الآن قريبة جداً من اتجاهات الحزبيين الشيوعيين . الاعتماد عليهم بات ممكناً . كانت تثق بهم وبقدرتهم على سبر غور الوقائع وعلى التساؤل حول كل شيء . إذ أنهم لا يأخذون الأمور كتحصيل حاصل بدافع من ثقة . سوف تحدد لهم وظائفهم قبل أن تشغل بآرائهم السياسية . ولا تزال قاسيا تفكر بهذه القضايا حتى نسيت حزنها السابق . ما عادت تفكر في أنها فقدت زوجها وصديقها . لا بل

ما عادت. تذكر موضوع وقائع ذلك الصيف حين كانت زوجة المدير.

وبينما هي تمشي بخطى سريعة تذكرت انها لم تصب شيئاً من الطعام منذ الصباح، لكن مجرد التفكير في الطعام جعلها تحس بأنها تكاد تتقيأ وبدأ رأسها يدور. متى هي من الأيام؟ هل هي مريضة.. أم أنها..؟ ثمة علامة استفهام غير مبلورة في ذهنها. أليس هذا هو الشهر الثالث الذي لم تأتها العادة الشهرية فيه؟ ينبغي أن تمضي إلى صديقتها الطبيبة ماريا اندريقنا التي تقطن في الشارع المجاور. لقد عملتا معاً فترة لتنظيم دور حضانة للمنازل الجماعية. بوسع ماريا اندريقنا أن تفحصها وترى إذا كان مرضها يحول دون ذهابها.

انفتلت فاسيا نحو الشارع، سعت إلى باب أبيض وقرعت الجرس. بادرت ماريا اندريقنا إلى فتح الباب وابتهجت حين وقع بصرها على فاسيا.

- ما غرضك من زيارتي؟ عمل أم أنك تنشدين نصيحة؟

فجأة غمر الارتباك فاسيا فتضرجت وجنتاها.

رمقتها ماريا اندريقنا بنظرة ثابتة ثم اخذتها من ذراعها.

قالت:

- تعالي إلى عيادتي لافحصك.

سألت فاسيا عن شهيتها، عن عاداتها الشهرية، عن شعورها بالغثيان. لكنها بدت وكأنها تعرف. كل الإجابات مسبقاً. ثم فحصتها. لم ترتج فاسيا لكل هذا وأحست بالغرابة. لم تفحص من قبل امرأة - طبيبة في السابق. حين رقدت على سرير الفحوصات دهمها الرعب.

بعد الفحص وبينما كانت ترتدي ملابسها ارتعشت يداها حتى انها وجدت صعوبة في معالجة ازرارها. كانت ماريا اندريقنا تقف وراء حوض الماء مرتدية معطفها الأبيض وراحت تغسل يديها بالماء والصابون.

قالت قاطعة الصمت :

- عزيزتي قاسيليسا، لا أدري إن كان علي أن اهنتك ام اواسيك، لكنني على يقين من أنك حامل.

هتفت قاسيا :

- حامل؟

إبتسمت إبتسامة عفوية حين فكرت بالطفل.

أضافت الطيبة وهي تجفف يديها :

- ماذا تنوين أن تفعلي؟ هل ستعودين إلى زوجك؟

هزت قاسيا رأسها سلباً وقالت :

- إلى زوجي؟ أوه، لا. لا لن أعود إليه ابداً، لقد انفصلنا نهائياً.

- إذن لقد انفصلتما ها؟ لا أعتقد أن توقيت الحمل مناسب اليس كذلك؟

كيف تحسبين انك ستتكيفين مع هذا الوضع يا عزيزتي؟ لعلكما تستطيعان

أن تسويا مشاكلكما بعد، كيف يسعك أن تتدبري أمر طفلك وحدك؟

وأنت لست امرأة قوية.

قاطعتها قاسيا قائلة :

- لكنني لن أكون وحيدة. غداً سوف أمضي إلى مصنع النسيج. ثمة خلية

رائعة من العمال هناك. معظمهم من النساء، وهناك سوف ننشئ

حضانة. وبالمناسبة أردت أن أسألك كيف استطعت أن تعاودي شراء

الحضانة من الدولة؟ هل تنصحيني حول هذا الموضوع

وشرعتا تناقشان مسألة الحضانة. والمعونات والديون ومرتبات الموظفين

المختصين. . ونسيت قاسيا موضوع الحمل، ولم تتذكر ذلك إلا حين ذكرتها

ماريا اندريثنا وهي تودعها.

- لا تجهدني نفسك في العمل يا قاسيا. تذكرني انك لست قوية. لا أستطيع مغالبة قلقي عليك.

إنهالت على قاسيا بالنصائح ، فقالت لها ما ينبغي أن تفعل وما ينبغي أن لا تفعل . وحفظت قاسيا كل هذا من أجل الجنين .

عادت تمشي في الشارع وهي تبتسم . طفل . رائع . سوف تكون والدة نموذجية . من المفروض أن تكون تربية الطفل على الطريقة الشيوعية شيء ممكن . ليس ما يدعو النساء إلى إقامة الأسر مع أزواجهن إذا كان ذلك يعني تقييد النساء بالطبخ والأعمال المنزلية . من الأفضل لهن إقامة دار حضانة وإعادة الحصول على نزل للأطفال . وسوف يكون ذلك مثلاً لتربية الأطفال بالنسبة للجميع . وما زالت تفكر في هذا الأمر حتى تبخر فلاديمير من افكارها تماماً وكأن لا علاقة له بالطفل .

ما أن وصلت قاسيا إلى البيت حتى جعلت تحزم حقائبها استعداداً للرحيل إلى المصنع . فجأة وقع بصرها على صندوق يحتوي على رسائل قولوديا القديمة وصورة له . فوق هذه الرسائل مظروف رسالة نينا كونستانتينوفا القرنفلي . رنت اليها وقلبتها . ادركت أن الرسالة ستثير التداعيات المؤلمة السابقة والأسى نتيجة لكذب فلاديمير وخداعه . إلا أنها رغم ذلك حملتها وجلست إزاء النافذة لتقرأها مرة أخرى . إن ضوء النهار يجبو .

فضت الرسالة وراحت تقرأها سطرًا سطرًا . لم تشعر بالكآبة كسابق عهدها . لقد فقدت الأفعى سمها ، وثبت قلبها في مكانه . دهمها شعور الحنو والشفقة على نحو مباغت . ذرفت الدموع لنينا كونستانتينوفا ، لعذاب هذه المرأة المسكنية وآلامها . تذكرت كيف مسحت نينا دموعها بأطراف اصابعها حين غادرت منصة الفرقة الموسيقية . لماذا فرض عليها أن تعاني هكذا؟ لا شك في أنها عانت الكثير من العذاب والقلق! وكانت تحمل جنيناً في رحمها

ايضاً، وكان عليها أن تتخلص منه . قامت قاسيا إلى الطاولة ازاحت الثوب الذي تخطه غروشا جانباً، وبادرت إلى الحبر فوضعتة أمامها وراحت تكتب .

عزيزتي نينا كونستانتينوفنا

«أعرف من أنت . لم يقع بصري عليك سوى مرة واحدة، وفي تلك المرة لم اشعر بميل اليك - اقولها بصراحة - ولكن حين انصرفت عن المنصة ورحت تبكين، ادركت فعلاً كم أنت تعيسة وشعرت بالشفقة نحوك . لقد قرأت لتوي رسالتك لفلاديمير ايقانوفيتش مرة أخرى والتي سأعيدها لك إذ أنني ارتكبت خطأ باختلاسها منه . ولكني اعتقد أنها قامت بدور إيجابي ولذلك أرجو أن لا تسرفي في الغضب مني .

لقد فكرت ملياً في رسالتك، والآن وبعد أن أعدت قراءة رسالتك أدركت أنني لا أشعر بالغضب أو الضغينة تجاهك بعد . أدركت كم عانيت بسببي . لقد قلت هذا لفلاديمير وسأقوله الآن لك : لنكف عن لعب الغمضة مع بعضنا البعض .

عليك أن تتزوجي من فلاديمير ايقانوفيتش وتصبحي زوجته الوفية . لا شك في انك تناسبه اكثر مني . ما عاد بوسعي أن أبقى زوجته لأن ميولنا قد تغيرت . لقد تغيرنا كثيراً وبتنا منفصلين تماماً . ما عدت أفهم بماذا يفكر وهو من جهته لا يفهمني .

حياتنا ما عادت تمنحنا سوى الشقاء - وكان مقدراً لها أن تكون كذلك حتى لو لم تكوني معنية . لم نفصل لأنك أخذت فلاديمير مني ، ولكن لأن قلبه ما عاد يحمل لي حباً .

سوف أحيأ الآن كما كنت قبل أن التقي بفلاديمير . إنه كل ما هولك في هذه الدنيا . ليس لك أي شيء آخر تعيشين من أجله، وهذا هو الحب الحقيقي بين اثنين . إن زواجنا هو زواج قائم على القانون العادي . وبالتالي

فنحن بحاجة إلى الطلاق. انني لا أحمل لك أية ضغينة، ولو كنت أعرف انكما متحابان إلى هذه الدرجة لاتخذت هذه الخطوة منذ زمن طويل. قولي لقلاديمير ايثانوفيتش أنني لست غاضبة منه وأنني سأبقى صديقة له كما كنت دائماً. إذا احتجت إلى مساعدتي فإني على استعداد للمساعدة. كنت أشعر بعداء حاد نحوك ولكني الآن وبعد أن تفهمت الوضع فإني أشعر بالأسى لكل الدموع التي ذرفت ولكل معاناتك وقلقك. وكما تتمنى الأخت لاختها السعادة فإني أتمنى لك السعادة تحياتي لقلاديمير وقولي له عن لساني أن يعنى بزوجته الفتية. سوف اكتب لك عنواني الجديد لعلك تحتاجين إليه، وإذا كتبت لي فأني سوف أجيب على رسالتك. أنا وانت لسنا عدوين. ما كنا نقصد أن يسبب كل منا للآخر الألم.

أتمنى لك السعادة.

المخلصة قاسيليسا مالينفينا

كتبت عنوانها بأناقة، ووضعت الرسالتين في مظروف واحد. لعقت طرفه بلسانها ثم أغلقتة. في تلك اللحظة فقط شعرت قاسيا انها النهاية.

لا ألم بعد اليوم، ولا أفعى معذبة، ولا حنين مضمن، ولا قولوديا «الأمريكي». بات الآن مجرد قلاديمير ايثانوفيتش. حين فكرت لقلاديمير تراءت لها نينا. وحين فكرت بنينا تراءى لها قلاديمير إلى جانبها. باتا كأنهما شخص واحد بالنسبة لها، لا ينفصلان ولا يقبلان القسمة. وكشخص واحد، ما عادا قابلين لإضفاء الشقاء عليها.

لقد استنفذ الحب القديم نفسه. احرق نفسه حتى الرماد، وشعرت بالسكينة في نفسها. بات بالها هادئاً صافياً بعد العاصفة.

ظلت واقفة إزاء النافذة تتأمل الغروب العاصف الأرجواني والغيوم ذات الأطراف الذهبية. غربان تنصب في بحثها عن مأوى. وفاحت رائحة أوراق ميتة وفطر وأرض خريفية. رائحة طفولة عذبة تختلف تماماً عن رائحة الهواء الميت الواهن في منزل فلاديمير. تنفست بعنق تملأ رثتها وتطل من النافذة. وقع بصرها على غروشا في الباحة وكانت تجمع غسيلها عن الحبال. هتفت قاسياً:

- هيه، غروشا. تعالي بسرعة. لدي أخبار سعيدة أريد أن أخبرك إياها.

أجابت غروشا:

- إنني قادمة.

حين دخلت رمت الغسيل على السرير.

- حسن. ما هي الأخبار؟ هل وصلتك رسالة؟

- لم استلم رسالة، لكنني انتهيت لتوي من كتابة رسالة. إحزري لمن؟

قالت غروشا:

- لا بد أنها لفلاديمير ايغانوفيتش.

- خطأ، ليس له بل لصديقتة. أو بالأحرى لزوجته المقبلة نينا كونستونوفنا.

سألتها غروشا بدهشة:

- لماذا فعلت ذلك؟

شرحت قاسيا قائلة :

- لقد قرأت رسالة بعثت نينا بها إلى فلاديمير وبدأت أشعر بالشفقة عليها .  
لقد عانت بسببي الكثير . حتى أنها اجهضت بسببي . وتعذبت عذاباً لا  
داعي له . لسنا عدوين ولا متنافسين . لو أخذت فلاديمير مني دون أن تحبه  
بدافع من الطمع في ماله لما غفرت لها ولكنت حقدت عليها . ولكن الآن  
وبعدما عرفت كل شيء عنها ، لماذا ابغضها؟ إنها تحب فلاديمير  
ايقانوفيتش ، حباً عميقاً ، أعمق من حبي له وهذا يمنحها الحق في أن  
تتزوج . ليس لديها ما تعيش من أجله سوى فلاديمير - هذا ما كتبتة .  
قالت : «بدونك اضيع» هل فلاديمير ضروري هكذا بالنسبة لي؟ لقد  
فكرت في الأمر ملياً يا غروشا وأدركت أن فلاديمير ليس مصدر شقائي .  
ولو عاد فولوديا الاميركي اليّ لكان الأمر مختلفاً . لكنه ما عاد موجوداً  
بالنسبة لي . فلماذا إذن استمر في تعذيب نينا المسكينة وأقف عائقاً بينهما .  
لا أرغب في أن أعيش مع مدير .

قالت غروشا بحزم :

- أوافقك ، أنت لا تصلحين زوجة لمدير . من المؤسف أن الكثير من  
المسؤولين فقدوا تواصلهم مع الناس وباتوا مدراء . لكن لا داعي للحزن  
يا قاسيليسا ، فلا يزال أغلب الرفاق معنا . وعليك أن تلتقي بغير  
الحزبيين . الحق أقول لك ، سوف تجددين بينهم بروليتاريين شيوعيين أكثر  
أصالة من أعضاء الحزب .

- نعم ، هذا صحيح ، ولكن رغم أننا نزداد قوة كل يوم . ولكن ماذا عن  
تلك المجموعة التي بدلت ولاءها الطبقي مقابل لحافات الحرير  
والمصاييح ! إننا لا نتحدث اللغة ذاتها ، لهذا كنت اتساءل لماذا أضهد نينا  
واتشبث بفلاديمير وهو ليس متزوجاً مني بشكل صحيح ولا هو بمتحرر  
مني في آن معاً . أي نفع أجنبيه؟ أن آوان طي هذه الصفحة نهائياً دون

تبادل الاتهامات . لقد عانينا جميعاً بما فيه الكفاية . ما كنت ادرك كل هذا حين تركته ، وبقيت آمل وانتظر حدوث شيء ما ، ما كنت اتبين طبيعته . كنت اعتقد أن انفصال فلاديمير عني بسبب امرأة أخرى سيسبب لي الهلاك . كنت اتعرض لنوبة تعاسة حادة حين جئت إلى هنا . ما كنت أعرف ماذا ينبغي أن أفعل . ولكن ما أن عدت الى العمل في اللجنة الحزبية حيث علي أن اهتم بمشاكل الآخرين حتى تبدد الألم تدريجياً . والآن . صدقي أو لا تصدقي - ما عدت اشعر بالغيرة أو الشقاء ابداً . اشعر بالسكينة الآن .

قالت غروشا وهي ترسم إشارة الصليب وترنو الى الأيقونة في ركن الغرفة :

- الحمد لله على ذلك ، إذن لم تذهب صلاتي للعدراء وأنا جاثية كل تلك الليالي هباء . كنت ادعوها الى أن تشفق على امرأة مكتئبة وأن تساعد فاسيليسا المسكينة .

ابتسمت فانسيا :

- يبدو أن لا سبيل الى تقويمك يا غروشا . ألا تزالين مؤمنة بهذه الايقونات؟ لكنك محقة في أية حال . لقد شفيت تماماً الآن . خلال الشهور الأخيرة كنت أروح وأجيء وقد نسيت من اكون . نسيت الحزب . وكان كل شيء ضبابياً . لكني الآن أشعر بتحسن وأرى أن الحياة رائعة وكل شيء يبدو لي مثيراً وجديداً . لا فلاديمير بعد اليوم ، لا شيء إلا الحزب . اذكر أني احسست بذلك بعد أن شفيت من التيفوئيد .

قالت غروشا :

- آمل أن لا ينال منك المرض مرة أخرى حين يبدأ زوجك بكتابة رسائل متشكية لك .

هزت فانسيا رأسها بتأمل وقالت :

- لا يا غروشا، لن يحدث هذا أبداً. أشعر وكأني كنت عرضة لثورة ذاتية .  
لقد تبدد الحزن وازيح الندم والعتاب . كنا نحن الثلاثة نتصارع وكأننا في  
دائرة ملعونة مسحورة، وكلنا نحاول الخلاص . كنا نتبادل الكراهية ولم  
ننجح في الهروب فواصلنا الدوران في دائرة الكراهية . لم أبصر مهرباً إلا  
حين بدأت اتفهم كيف تشعر نينا . ليس ثمة ما أغفر لها عنه، إنما أشعر  
بالشفقة عليها كما لو كانت شقيقتي . كل منا مر بنفس التجارب، عانت  
بقدر ما عانيت ولم تكن معاناتها بسبب غلطة ارتكبتها . ولكن لأن حياتنا  
أصبحتنا بلا جدوى . ما أن بدأت أشعر معها حتى بدأت أتحسن يا  
غروشا .

قالت غروشا :

- هذا لا يفاجئني . إنه يعني انك ما عدت تحببته قطعاً . لأن الحب جلاب  
للسقاء دائماً . ما أن يسمح لك الحب بومضة من السعادة حتى يتسلل  
الحزن إلى ظله . فإذا ما تبدد الحزن تبدد الحب ايضاً .

هزت فاسيا برأسها :

- من المحتمل أن يكون هذا صحيحاً . لم أقلع عن حب فلاديمير . لا يزال  
عزيزاً على قلبي ، لكن حبي له تغير . لقد اختفت البغضاء القديمة . إنني  
سعيدة لأننا كنا متحابين وسعيدين . ولماذا اغضب منه؟ غلطة من هي إن  
كان لا يحبني الآن؟ إنني فرحة للماضي . بات فلاديمير ونينا مثل شقيق  
وشقيقة لي الآن . صدقيني يا غروشا انني أعني ذلك . كنا سعيدين . آن  
أواهما الآن . لكل إنسان الحق في ذلك ما دام الأمر لا يعني الأكاذيب  
والخداع .

- كل ما تقولينه حول الخداع صحيح ، لكنني أعجز عن فهم قدرتك على  
اعتبار نينا مثل أختك . كأنما بت فيلسوفة يا فاسيليسا . من الأفضل أن لا  
تسرفي في التفلسف . وإلا بالغت في شيوعتك ايضاً . طبعاً من الأفضل

أن تغفري لفلاديمير من اجل نينا وتنسي . ما هو خارج العقل يكون خارج  
الذهن ، ولكن لا حاجة بك إلى أن تحبينها . خليك بك أن تخصي العمال  
بحبك وبعطفك فهم يحتاجون اليهما . لقد بدأوا يفقدون ثقتهم وإيمانهم ،  
إنهم بحاجة إلى رفع المعنويات والأمل وليس إلى الإكثار من التنظير  
العقائدي الحزبي . صدقيني يا قاسيليسا انني أعرف ما الذي يجري ،  
وأفهم الشيوعية مثلما تفهمينها انت .

- طبعاً يا غروشا ، انت واحدة منا . الكل يعرف ذلك . ولكن كيف  
تحافظين على إيمانك بايقوناتك هذه؟ لا تغضبي مني ، كفي عن العبوس  
في وجهي هكذا . اسحب ما قلت . لا أرغب في جدال . لأن هذا اليوم  
هو يوم خاص . الحق أني أشعر بضرب من الطيش ، إنني سعيدة جداً .  
ولن يسعك أن تخمني ما الذي شفاني .

- انني عاجزة عن تخمين ذلك ببساطة .

- إنها الزوجين فيودوسيف .

- هذا مدهش ! في هذه الحال اتمنى لهما حياة سعيدة ، وسأغفر للسيدة  
فيودوسيفا الفظة كل خطاياها .

انفجرت كل منهما ضاحكة . استأنفت قاسيا :

- لكنني لم اخبرك حتى الآن الأخبار الجوهرية يا غروشا ، لقد ذهبت الى  
الطبيب . . انني حامل .

- حامل .

صفقت غروشا مستثارة . ثم قالت بصوت أكثر رصانة :

- ولكن يا قاسيا ، كيف سمحت لزوجك أن يمسك؟ ليس بوسعك أن تربي  
طفلاً بلا أب . أم انك ترغبين في إجراء عملية إجهاض ، شأن الجميع  
هذه الأيام .

- ولماذا أجهض؟ بوسعي أن أربي طفلاً لوحدتي . وما حاجتي لزوج؟ حكاية الآباء ليست سوى خرافة . انظري الى السيدة فيودوسيفا: عليها أن تُعنى بثلاثة اطفال بعدما رحل زوجها مع دورا .

- ولكن كيف سيتسنى لك أن تُعني بطفلك وحيدة؟

- ماذا تعنين «بوحذك»؟ كل شيء سيكون على ما يرام ، وسوف ننشئ دار حضانة . الحق انني فكرت في سؤالك إن كنت ترغبين في مساعدتنا لادارة دار الحضانة . أعرف انك تحبين الأطفال . وقريباً سيكون لنا طفل جديد . . لنا كلنا .

- طفل شيوعي !

- بالضبط .

انفجرت كل منهما بالضحك .

- عليّ أن أحزم حقائبي الآن يا غروشا . سوف ينطلق القطار في صباح الغد الباكر . منذ الغد سوف أشرع في العمل وسأنظم حياتي بطريقة صحيحة . لقد منحني ستيبان اليكسيقتش بركته . انني سعيدة لأنني عائدة إلى العمل مرة أخرى يا غروشا ، لا يسعك أن تتصورني كم أنا سعيدة .

قبضت على يد غروشا وراحتا تدوران في الغرفة مثل طفلين حتى اوشكتا على الارتطام بدمية الخياطة واسقاطها . وأرسلت كل منهما ضحكات صاحبة عريضة حتى أن الناس الذين يقفون في الباحة سمعوا قهقهتهما . هتفت فاسيا :

- علينا أن نحيا يا غروشا .

نحيا ونعمل ، نعمل ونكافح ، نحيا ونحب الحياة ، مثل النحل في الليلك ، مثل العصافير في أسفل الحديقة ، مثل صرصار الليل في العشب .



## ذاكرة الشعوب

المحرر: الياس خوري

### صدر منها :

- ١- فرديناند أيونو: الصبي الخادم كامبرون
- ٢- كين كيسي: طيران فوق عش الوقواق الولايات المتحدة
- ٣- جاك رومان: سادة الندى هاييتي
- ٤- ب. ترافن: انتفاضة المشائق المكسيك
- ٥- غينوا اتشيببي: الأشياء تتداعى أفريقيا
- ٦- كامارا لاي: الولد الأسود غينيا
- ٧- كمالا ماركاندايا: رحيق في غربال الهند
- ٨- بيتر أبراهامز: فتى المنجم أفريقيا الجنوبية
- ٩- أريش ماريا ريمارك: ثلاثة رفاق ألمانيا
- ١٠- غابرييل أوكارا: الصوت أفريقيا
- ١١- رجيس دوبريه: غير المرغوب فيه فرنسا
- ١٢- عبد اللطيف اللعبي: مجنون الأمل المغرب
- ١٣- أريش ماريا ريمارك: ليلة لشبونة ألمانيا
- ١٤- كارلوس فوانتس: موت أرتيميو كروز المكسيك
- ١٥- غينوا اتشيببي: مضى عهد الراحة نيجيريا
- ١٦- جورج لمنغ: في قلعة جلدي الكاريبي
- ١٧- استورياس: السيد الرئيس غواتيمالا
- ١٨- دوميتيلا دوشنغارا: دعوني أتكلم بوليفيا
- ١٩- صنين عثمان: الحوالة السنغال
- ٢٠- الكسندرا كولنتاي: حب عاملة النحل الاتحاد السوفياتي



## رواية من الاتحاد السوفياتي

### حُبَّ عاملة النحل

الكسندرا كولنتاي هي إحدى المفكرات والمناضلات القليلات اللواتي عشن تجربة الثورة الاشتراكية، وحاولن التفكير حول موضوع تحرر المرأة. فإبنة الجنرال السابق في الجيش الروسي القيصري كانت واحدة من المجموعة القليلة التي رافقت لينين في قطار العودة عبر المانيا، وشغلت منصب مفوضة الشعب لشؤون الخدمات العامة في أول حكومة ثورية أسسها لينين. بالاضافة إلى ذلك فقد نشرت كولنتاي مجموعة من الكتب حول المرأة: «الشيوعية والمرأة»، «الأخلاق الجديدة والطبقة العاملة»، «الأسس الاقتصادية لمسألة المرأة».

تنقل رواية «حُبَّ عاملة النحل»، بأسلوبها الواقعي، وبلهجتها القريبة من السيرة، تناقضات المراحل الأولى لبناء الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي. فهي تعالج مشكلات الحياة الجماعية والحب والزواج والأطفال، عبر كشفها للتناقضات الاجتماعية التي رافقت نشوء العلاقات الجديدة. فقيمة هذه الرواية هي في الاسئلة التي تطرحها، وفي المعاناة التي تنقلها، وفي صوت المرأة الذي يرتفع معلناً التوق إلى الحرية.